A.U.B. LIBRARY

N. MAKHOUL
BINDERY
11 FEB 1974
Tel. 260458

089.927
D213mA
1952
c.1

منشورات دار الكتب الوطنية بحلب

١

المحاضرات العامة

لعام

١٩٥٢

Cat. 17 Mar. '53

توطئة

.. في اوائل هـذا العام استطاعت « دار الكتب الوطنية » ان تحيي موسم المحاضرات ، وان تدعو غير واحد من رجالات الفكر للكلام في شتى القضايا الثقافيـة : في الادب ، والتاريخ ، والعلم ، والاقتصاد ، والاجتماع .. وقد تكرموا مشكورين فلبوا دعوة الدار ، واستطعنا ان نقدم الى الجمهور الحلبي الكريم الوانا مختلفة من الغذاء الفكري الشهي .

وها نحن اولاء نضم هـذه المحاضرات في كتاب لتعم فائدته من جهة ، ولنؤرخ من جهة ثانية ، ظاهرة من الظواهر الادبية في مدينة سيف الدولة ذات الماضي الباهر في تاريخنا الادبي القديم .

ونرجو ، وقد اصبح موسم المحاضرات موسماً تقليـدياً تنهجه الدار كل عام ، وهي ماضية في دعوة كبار المفكرين للمساهمة ببحث شتى قضايا الفكر ولا سيما هذه القضايا التي تمس حياتنا القومية والاجتماعية

وتمس الامة العربية في وثبتها الكبرى ، أقول ، وهذا نهج الدار - ارجو ان نقدم الى جمهور القراء كل عام كتاباً يضم ثمرات طيبة من ثمرات الفكر البشري .

ولا يسعنا في هذه التوطئة ، ونحن ننشر هذا الكتاب الا ان نتقدم بوافر الشكر الى بلدية حلب الكريمة ممثلة برئيسها ومجلسها البلدي على ما أسدوه ويسدونه لهذه الدار من مؤازرة ورعاية .

نعم ، من الحق علينا ان نعترف بفضل هذه المؤازرة التي تدعم عملنا ولا سيما، ودار الكتب، لم تعد بيئة للمطالعة فحسب بل اصبحت بيئة للاشعاع الفكري يلتقي على مسرحها اكابر رجالات الفكر والادب واساطين رجال العلم والفن ، وتعقد في قاعاتها المؤتمرات ؛ وتقام مواسم للفنون بشتى فروعها : للرسم والتمثيل والموسيقا وغير ذلك مما يتصل بشتى نواحي المعرفة .

وقد مرت بالدار فترات كانت الهيئات الثقافية تتزاحم على ايامها ، وكثيراً ما اقيمت في اليوم الواحد اكثر من حفلة واحدة ، وان دلّ هذا على شيء فعلى ما تؤديه هذه الدار من خدمات جلى للجمهور الحلبي الكريم.

ونحن اذ نقدم هذا الكتاب الى حضرات القراء ، وهو اول كتاب يصدر عن دار الكتب ، نرجو ألا يقف جهدنا المتواضع عند هذا الحد

بل نرجو مخلصين ان نوفق الى نشر بعض المخطوطات ، مما تحتفظ به خزانات حلب - وهي مليئة بالكنوز - ولا سيما ما له علاقة بتاريخنا القومي وتاريخنا الفكري معاً .

وبتحقيق هذه الامنية نريد ان نخطو الخطوة الثانية اسوة بما تعمله سائر دور الكتب في العالم ، وهذا عمل جليل تقدره ، ولا شك ، بلديتنا الموقرة التي لم تكن في يوم من الايام ضنينة على العلم ، أو مقترة على شئون المعرفة . ولا سيما والدار نفحة من نفحاتها ، كما ان مشروع المدارس - وهو من اعظم مشاريع العلم - اثر من أضخم آثارها (١)

هذه امنية نرجو ان تتحقق قريباً
والله الهادي الى الصواب .
١٩٥٢/١١/٢٢

سامي الكيالي
مدير دار الكتب الوطنية

---

(١) استطاعت بلدية حلب ، خلال ثلاث سنوات ، ان تبني عشر مدارس كبرى على أحدث طراز كلفت قرابة الخمسة ملايين ليرة سورية قدمتها هدية الى مديرية المعارف . وهذا عمل جبار سبقت به بلدية حلب جميع بلديات المدن الكبرى .

كلمة الافتتاح (١)

في هذه الليلة المباركة ، نفتتح باسم الله ، موسم المحاضرات التي سيتفضل بالقائها بعض قادة الفكر .

ويسرني ، بهذه المناسبة ، ان اتحدث اليكم بايجاز عن تاريخ خزائن الكتب وقاعات المحاضرات لما لهما من فوائد ومزايا كثيرة، ذلك انهما العامل الاول الذي ترتكز عليه قواعد الثقافة العامة وركن تتوثق به دعائم الحضارة ، ناهيك ان خزائن الكتب هي المراجع العامة في انتقاء المصادر والوثائق والمستندات على اختلاف انواعها .

ايها السادة : مما يؤسف له ويجب التنبيه اليه هو انه على خطورة خزائن الكتب العربية ووفرة عددها في سالف الأزمنة لم يقم بين جميع المؤرخين من دوّن لها تاريخاً وافياً مستقلاً بنفسه ؛ بل دوّنوا كل ما جاء عنها عرضاً في سياق كلامهم عن غيرها من الحوادث والاخبار . ولئن جاءنا في الزمن الاخير بعض المفكرين فنقلوا عن بعض المصادر تاريخ خزائن الكتب العربية الا اننا لم نجد في بعض وقائع هذه المؤلفات مراجع صحيحة ثابتة يمكن الركون اليها والاعتماد عليها . ومع هذا فاننا لا نرى بداً من إسداء عظيم الشكر لهم على ما أنفقوا من جهود قوية وما لاقوه من عناء ومشقة في سبيل التحري عن الحقيقة تلك التي اتفقت عليها

(١) الكلمة التي افتتح بها موسم المحاضرات الاستاذ احمد منير الوفائي رئيس البلدية آنئذ بتاريخ ٢٩ شباط ١٩٥٢

كلة مشاهير المؤرخين في الغابر والحاضر من عرب وعجم بان اهتمام العرب بتأليف الكتب وترجمتها وجمعها كان داعياً الى اهتمامهم الشديد بتأسيس مكتبات عامة وخاصة انتشرتا انتشاراً غريباً لم تألفه بقية الامم قبل الفتح وبعده، فالعامة منهما أسسها الخلفاء والملوك كدار الحكمة في بغداد ودار العلم في القاهرة وأمثالها في الشام وفلسطين وغيرها من الاقطار العربية والاسلامية ؛ أما المكتبات الخاصة فقد تكاثرت في جميع الامصار تكاثراً مدهشاً بعناية نصراء الادب واصبحت تعد بعشرات الآلاف بل بالمئات التي تضم كتباً قيمة في قصور الامراء ودور العلماء من المسلمين وغير المسلمين ففاقوا بتلك الثروة الادبية والعلمية جميع شعوب الارض دون جدال . وان كل من اطلع على ما بقي من تلك الكنوز الثمينة في المعارض التي تقيمها دار الكتب المصرية ، او متاحف الغرب حولاً بعد حول يشهد للعرب بسلامة الذوق وبراعة الفن فيما خلفوا من الآثار الكتابية العظيمة الشأن .

دار الفلك دورته (وتلك الايام نداولها بين الناس) واذا الايام تعبث بهذا التراث الجليل بعد افترارها فتنكبه نكبة هائلة تقضي على الاكثرية الساحقة من خزائن الكتب العربية برزايا الحروب العديدة وقيام الفتن الاهلية والخصومات الدينية والمؤثرات السياسية وغارات البرابرة فتذهب بعضها فريسة النار والماء وتنهب بعضها وتتلف بطرق مختلفة ، وعلى الجملة فان هذه المصائب والكارثات وما تبعها من فساد نظام واستبداد حكام واستئثارهم بالمغانم وفوضى احكام وجمود عام واستسلام للقضاء والقدر جعل العالم الاسلامي في ظلمة حالكة ووحشة شاملة : جهل مطبق ، وظلم فادح ، وفقر مدقع .

هذا ما كانت عليه الحال في الشرق . أما الغرب فقد حمل من الشرق معه بذور الاصلاح ايام الحروب الصليبية وبدأ يغرسها في ارضه حتى انتجت هذه البذور اشجاراً باسقة عصفت بها الريح حيناً ودب اليها الفساد حيناً ولكنها تحملت الشدائد حتى استوى امرها وكونت لها شخصيتها التي ازاحت الستار عن كنوز الطبيعة في شتى مرافق الحياة العملية وجعل لها الكلمة العليا على سائر شعوب

الارض بكل شيء مصدره المادة وتوفرت للغرب الوسائل المادية والادبيـة فالتفتوا الى التأليف فأبدعوا فيه ولم يتركوا باباً من ابواب المعارف الا ولجوه وجمعوا الكتب على اختلاف اصنافها وأجناسها من كل حدب وصوب واصبحت جميع البلاد الغربية حافلة بالمكتبات العامة والخاصة .

وبعد سبات عميق تنبه الشرق مذعوراً ففكر وفكر فيما وصل اليه والألم يحز ضلوع علمائه العاملين المصلحين الذين هبوا لمعالجـة جمود اهله وجهلهم المطبق وما ان بزغ القرن العشرون حتى تجلت في الشرق نهضـة مباركة في علم السياسة والاجتماع والاقتصاد وأخذ المفكرون يتبارون في مضمار هذه النهضة المجيـــدة متذرعين بالوسائل الناجعة للوصول الى اهدافهم المنشودة . نادوا بالاحتذاء بالبلدان الغربية الراقية باحداث مكتبات وقاعات للمحاضرات تابعة للمجالس البلدية يؤمها الطلبة ورواد الادب للدراسة والاستفادة فأنشأوا مكتبات جامعة لأصناف الكتب. وحسبنا من هذا القبيل ان نذكر المكتبة البلدية في الاسكندرية ، ودار الكتب الوطنية في حلب الشهباء وغيرها من مكتبات عديدة انشئت في بعض البلاد العربية بهمة رجال مخلصين .

ايها السادة : اني قبل ان اختم كلمتي هذه اقدم الى حضراتكم باسم المجلس البلدي خالص شكري لتفضلكم بحضور هذه الحفلة والاستماع الى المحاضرة القيمة التي سيلقيها عليكم الآن مدير هـــذه الدار الاستاذ الفاضل السيد سامي الكيالي واني إذ ارحب بحضراتكم آمل ان تتفضلوا بالحضور الى بقيـة المحاضرات ليتخذ المجلس البلدي من مشاركتكم تشجيعاً له في هذا العمل النافع والسلام عليكم .

احمد منير الوفائي

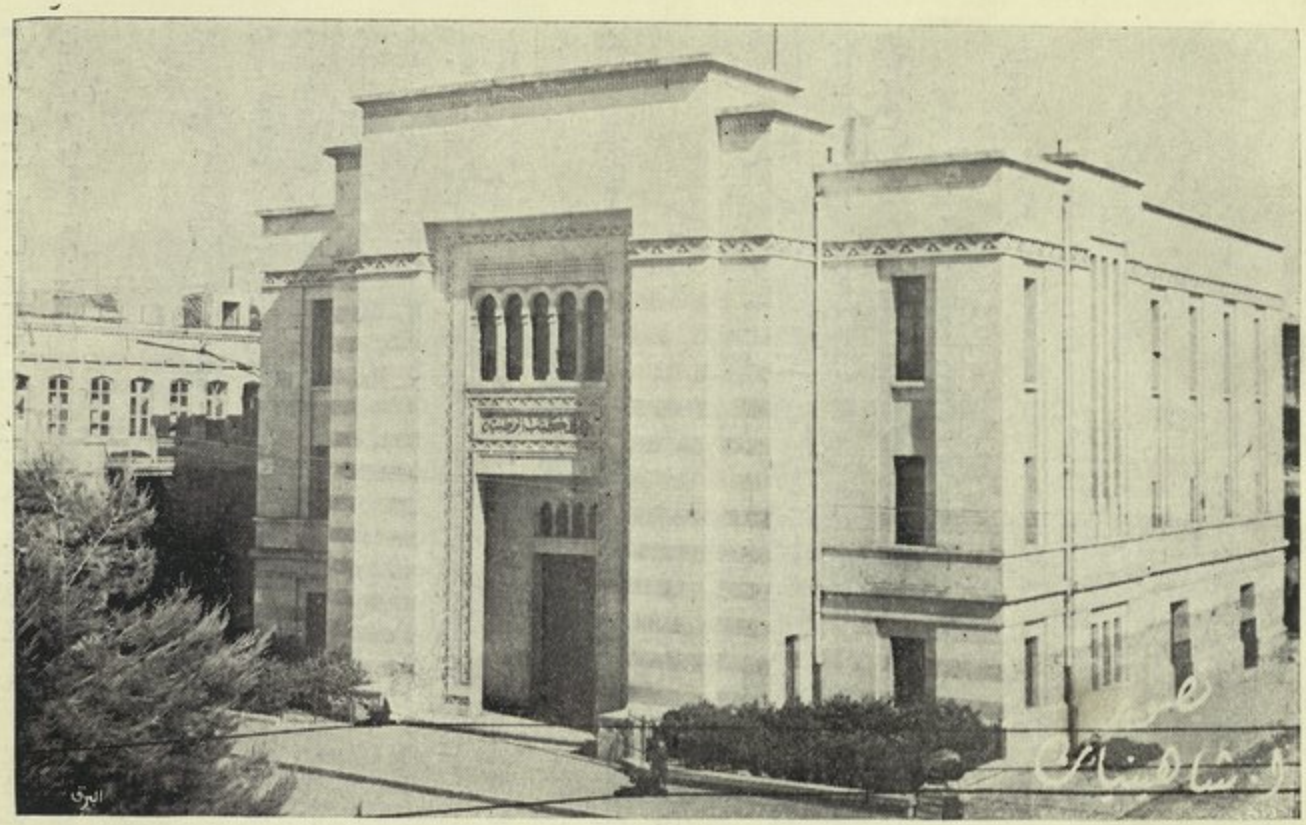

دار الكتب الوطنية بحلب

المحاضرون

المحاضرون

سامي الكيالي

خليل هنداوي

غسان تويني

وجيه السمان

محمد سعيد الزعيم

عبد الرحمن الكيالي

عمر بحي

اجر الطرابلسي

اديب نصور

فؤاد افرام البستاني

المحاضرة الاولى

صفحة من تاريخ حلب الادبي

سامي الكيالي
مدير دار الكتب الوطنية

= القيت بتاريخ ٢٩ شباط ١٩٥٢ =

- ١ -

ان قصة الصلات بين الشرق والغرب ، وصلات الفكر بصورة خاصة ـ قصة طويلة الفصول ، كثيرة المناظر ، وهي تمر ، عبر العصور ، بالوان مختلفة ومظاهر متعددة ، ولا يمكن لانسان ان يلم بها في محاضرة ولا عدة محاضرات . ولكن في وسعه ان يشير الى بعض جوانبها اشارات سريعة .

وفي تاريخنا الفكري والسياسي مظاهر مختلفة لتاريخ هـــذه الصلات ، بعضها او اكثرها مما تناولته اقلام المؤرخين بالبحث والتنقيب ، وبعضها ظل مطوياً في بطون الكتب .

ومن هذه القصص قصة الشيخ فتح‌الله والقسيس ادوار پوكوك وشجرة التين التي نقلت من حلب الى لندن .

وقد يخال لحضراتكم ، بعد سماع هذه العناوين ، انني سأروي اسطورة من الاساطير ، ولا اجانف الحقيقة اذا قلت انكم في تخيلكم لا تبتعدون كثيراً عن الواقع .. فشجرة التـــين التي نقلت من حلب الى لندن ، قبل ثلاثمائة سنة ونيف ، تحمل في اطوائها عناصر قصة .. ولكن لم يكن نسيجها من الخيال بل من الواقع ، قصة من قصص الفكر . قصة هذه الصلات الفكرية بين الشرق والغرب في القرن السادس عشر الميلادي .

ولن اسرف في التوطئة اكثر من هـــذا بل اريد ان ادخل صميم الموضوع دون هذه المقدمات الملتوية .

* * *

قبل ثلاثمائة سنة ونيف هبط حلب رجل انكليزي فمكث فيها خمس سنوات يدرس العربية على احد شيوخها الاعلام ، فلما استقام لسانه العربي ، بعد ان اجاد الحديث باللغة العامية ـ لغة حلب الدارجة ـ عاد الى بلاده يكتب ويؤلف وينشر المخطوطات ، وما زال حتى ترك ثروة ادبية اصبحت مرجعاً للكثيرين من فطاحل المستشرقين .

فما قصة هذا الرجل ؟

ان الدراسات الادبية ، ولا سيما الدراسات المتعلقة بشئون الاستشراق لا تبخل علينا بسرد قصته ، فهو مستشرق معروف ، وله بين المستشرقين الاعلام مقام مرموق سواء بما الفه من كتب او بما نشره من مخطوطات .

ولا بأس من إلمامة صغيرة عن نشأته الدراسية ، فقد ولد ادوار پوكوك Edward Pococke سنـة ١٦٠٤ م في مدينة اكسفورد، وتعلم في مدرســـة مجانية ، ثم في كلية « كورب كريستي كولليج » Corps Christi Colleg ـ مدرسة جسد المسيح ـ حيث حصل سنة ١٦٢٤م على شهادة الماجستر في الآداب، اي انه ظفر بهذه الشهادة العلمية وهو في العقد الثاني من عمره ، واذ تميز على اقرانه بالذكاء والمعرفة والميل الى البحث المجرد انتخب سنة ١٦٢٨ استاذاً في الكلية التي تخرج منها لتدريس التوراة ، واستطاع في هذه الفترة ان يعثر بين مخطوطات خزانة البودليان على الترجمة السريانية لأربع رسائل من العهد الجديد المفقودة ، وهي رسالة بطرس الثانية ، والرسالتان الثانية والثالثة ليوحنا ، ورسالة يهودا التي لم تكن في الترجمة السريانية القديمة للتوراة .

وإذ كان للعلم ، في تلك الفترات ، هذا الطابع الديني اصبح ادوار پوكوك

في سنة ١٦٢٩ قسيسا ، وهو في الاصل من عائلة دينية ، ولا نعرف العوامل التي دفعته لأن يترك المحيط الجامي ليلبس ثياب الكهنوت ؟

أيكون تمكنه من دراسة اللاهوت ، والوسط الديني الذي عاش فيه هما الدافعان الى ذلك ؟ .. ربما .

وكشاب امتلأ قلبه بالمعرفة احب ان يدرس العربية كمنفذ لمعرفة الشرق ، او لرحلة اعتزمها الى بلاد الشرق العربي فتتلمذ على ماتياس باسورا الالماني وبدأ يدرس عليه مبادئ العربيـــة حتى اذا تعلم ابجديتها وبعض كلماتها اتصل بوليم بيدويل Wiliam Bedwal اكبر علماء الانكليز بالعربيـة آنئذ .. ووليم بيدويل هذا هو الذي اصدر اول ترجمة انكليزية للقرآن الكريم، وكان يصف اللغة العربيـــة بانها اللغة الوحيدة للدين ، واللغة الرئيسية للسياسة والعمل من الجزائر السعيدة الى بحار الصين .

لقد اخـذ ادوار پوكوك مبادئ العربية عن هذين المستشرقين ، واذ تفتحت امامه الآفاق احب ان يتوسع في معرفة هذه اللغة ـ لغة القرآن ـ والاحاطة بدقائقها واسرارها .

فكيف السبيل الى ذلك ؟

لقد رأى ، وبايحاء من استاذيه ، انه لا بد لتحقيق بغيته من رحلة الى بلاد الشرق العربي ليأخذ العربية من ينابيعها .. فالى اية بقعة من بقاع الشرق العربي يسافر ؟ واي مدينة من مدنها يختار ؟

أيسافر الى القاهرة ام الى دمشق ام الى بغداد ؟

ان واحدة من هذه العواصم العربية الكبرى لم تجتذبه، بل اجتذبته حلب، عاصمة الحمدانيين ، فما سر هذا الاختيار ؟

* * *

لا نعرف شيئاً عن ذلك ، وليس لدينا من مذكراته وكتبه ما يشير الى هـــذه الناحية ، وحتى الذين عرضوا الى سيرته وكتبه لم يشيروا اليها ، واغلب الظن ، وهذا ما نقوله على سبيل الافتراض ـ ان المركز التجاري العظيم الذي كان لحلب في تلك الفترة والتي كان يراها السياح الاجانب اعظم مدينة في تركيا وآسيا بعد الآستانة ، ثم اكتظاظها بالتجار الاوربيين الاجانب ـ ان كل ذلك من العوامل التي دفعته ان يختار حلب لدراسة اللغة العربية فيها .

* * *

لقد كانت حلب في تلك الفـــترة ، طريق تجارة الشرق الى الغرب وبالعكس ، وكانت ملتقى الطرق بين آسيا والشام والجزيرة والعراق ، وقد ظلت محتفظة بهذا المركز التجاري الهام الى قبيل اكتشاف طريق الرجاء الصالح وقبل افتتاح قناة السويس .

وكما تجتذب حلب اليوم التجار الاجانب ورجالات الاقتصاد والبيوتات المالية من شتى اطراف الدنيا بسبب ازدهار زراعة القطن في اراضيها والمناطق المحيطة بها ، فان مركزها التجاري الهام ، في تلك الفترات ، قد اجتذبهم فجاءوها متاجرين من فرنسا وانكلترا وايطاليا وهولنده حتى بلغ عدد البيوتات التجارية الاوربية سنة ١٧٧٥ ثمانين بيتاً .

قـد يقول قائل وما علاقـة رجل العلم بشئون التجارة ، اي بمركز حلب التجاري حتى يتخذها بيئة لدراسته العربية ؟

وجوابنا ان ليست شهرتها التجارية هي التي اجتذبته ولكن اكتظاظها بالاجانب ، ولا سيما بالتجار الانكليز ، هو الذي حفزه ان يفضلها على غيرها من مدن الشرق .

وتدل بعض المصادر على ان الانكليز كانوا من اوائل الاجانب الذين اسسوا في حلب « وكالة تجارية » وكانت الوكالة تتألف من قنصل وعشرة تجار ووكيل قنصل وحاجب وقسيس .

واذا عرفنا ان ادوار پوكوك ، قبيل سفره الى الشرق ، قد نزع ثوبه الجامعي وارتدى اللباس الكهنوتي ، وانه بمت الى عائلة من رجالات الدين ، جاز لنا ان نفترض ـ وافتراضنا هو الواقع ـ انه قد جاء حلب بصفة قسيس للقنصلية البريطانية .

وقد بدأ منذ قدومه ، يبحث عن استاذ ضليع في اصول اللغة العربية ليتتلمذ عليه ، ولم يطل بحثه ، فسرعان ما وقع اختياره على الشيخ فتح‌الله فاتخذه استاذه المفضّل الذي لازمه طوال مدة اقامته في حلب . . فمن هو هذا الشيخ الحلبي الذي تتلمذ عليه القس الانكليزي قبل ثلاثمائة سنة ؟

- ٢ -

ان تاريخ حلب الادبي في تلك الفترة لم يكتب بعد ، وان ما كتب عن ادباء القرن الحادي عشر الهجري مشوش مضطرب لا ينقع غلة الباحث ، ولا بدّ لمن يتصدى لتاريخ هذه الفترة من حياة حلب الفكرية ـ من ان يرجع الى عشرات المؤلفات القديمة ليعثر على سطور تنقع غلته ، وهذا ما جرى لنا حين اخذنا نبحث عن « الشيخ فتح‌الله » الذي درّس العربية للمستشرق ادوار پوكوك .

وقد وقفنا في غضون تلك المؤلفات على اسم غير واحد ممن سمي باسم « فتح‌الله » من علماء حلب : منهم الشيخ فتح‌الله المشهدي ، والشيخ فتح‌الله الآمدي والشيخ فتح‌الله المعروف بابن النحاس وغيرهم وغيرهم .

وحين قرأنا سيرة كل واحد من هؤلاء العلماء لم نر فيها ما يربط بين حياة الاستاذ والتلميذ ، سواء من حيث النهج والتفكير والميول او من حيث ما بين عمرهما من تقارب .

فالشيخ فتح‌الله المشهدي قد توفي سنة ٩٦٣ هـ وهي توافق سنة ١٥٥٦ م ،

اي قبل ولادة ادوار پوكوك بـ ٤٨ سنة ، ومن جهة ثانية فلم يعرف عن الشيخ فتح‌الله المشهدي براعته في علوم العربية ، وكل ما ذكره المؤرخون عنه : دراية حسنة في كتابة قوائم الاخشاب وجمال الخط ، وهذا كاف ، في تلك الفـــترة المظلمة من حياة الفكر ، ان يدون المؤرخون اسمه في سمط العلماء الاعلام !

والشيخ فتح‌الله الآمدي المعروف بفتحي جلبي قد عرف بالزهد والتقى واقامته حلقات الذكر ، ولم تطل اقامته في حلب بل نزح الى عينتاب ، وكان ولاة الاتراك يعتقدون بصلاحه ، ويتبركون به ، ويغدقون عليـــه الاموال الطائلة فيصرفها في شئون الخير ، ومن اعماله الخيرية انشاؤه مدرسة وجامعاً وتكية ، وقد انصرف عن الدنيا بكليته حتى قيل انه حج حتى سنة اربعٍ وستين وتسعمائة ثلاث عشرة حجة .

ورجل هذا شأنه، لا شك، انه كان يعتقد ان التدريس لأجنبي رجس من عمل الشيطان ، رغم ان وقته لم يكن ليساعده على مثل هذه الامور ، ومن جهة ثانية، فان معاصريه من المؤرخين لم يشيروا الى تبحره بعلوم العربية .

وطال بنا التنقيب للعثور على هـــذا الاديب المسمى « الشيخ فتح‌الله » الذي تتلمذ عليه ادوار پوكوك الى ان وقفنا على سيرة الشيخ فتح‌الله المعروف بابن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ وهذا من فحول ادباء القرن الحادي عشر ، عرف بين شعراء عصره برقة النظم وجزالة النثر وانسجام الالفاظ حتى قيل انه لم يكن ليوازيه احد في اسلوبه .

يقول المحبي في خلاصة الاثر :

« كان فتح‌الله في حداثة سنه من احسن الناس منظراً ، وأبهاهم صباحةً ورشاقة ، وكان « ابناء الغرام » يفدونه وهو يعرض عنهم ، ويجافيهم حتى تبدلت محاسنه فعطف عليهم يستمد ودادهم ، وكانت النفوس قد انفت منه فرمته في زاوية الهجران ، ثم اندمج في مقولة الكيف ، وتزيا بزي الزهاد » !

ان عناصر حياة هذا الشاعر الحلبي تؤلف وحدها قصة مستقلة ، ولا ندري أنسلكه بين الشعراء الماجنين ام بين المتصوفة الزاهدين ؟

فقد كانت صباحته ورشاقته من العوامل التي جعلت الماجنين واصحاب الميول الشاذة يطاردونه، فنفر منهم وآثر العزلة فضايقوه . ثم شعر بألم الحرمان من هذه المجتمعات التي تفيض بالمباهج واراد ، بعد ان استكمل رجولته ، ان يوثق صلاته بهم فهجروه . . وقد احب هو ايضاً فأخفق في حبه . . ولم ير من وسيلة لتبديد شجونه وهمومه غير الادمان على المكيفات فتعاطى الحشيش والافيون ، ثم هجر حلب بعد ان هجره حبيبه وسافر الى دمشق فاقي فيها كل حفاوة ، ومن دمشق الى مصر ، ثم الى الحجاز حيث اعتكف في المدينة المنورة يعيش عيشة المتبتلين الزاهدين . وما زال فيها حتى اخريات ايامه .

لقد خيل اليّ حين قرأت سيرة هذا « الشيخ فتح الله » ـ وفي سيرته الكثير من ملامح بيرون وبودلير واوسكار وايلد . خيّل اليّ انه الشاعر الحلبي الذي تتلمذ عليه ادوار بوكوك .. ولكن نزوحه عن حلب، وهو في شرخ الصبا ، ثم تطوافه في المدن كالعاشق الهائم المدنف والقائل من قصيدة :

انا التارك الاوطان والنازح الذي تتبع ركب العشق في زي قائف

يعيش في غيبوبته من اثر المكيفات التي تعاطاها بعد تلك الصدمات العنيفة التي مرت به ـ ان هذه الحالات المضنية التي عاشها وهو معشوق تارة وعاشق تارة اخرى ، وهو ميئوس في حالتيه ـ ان كل ذلك جعلني اعتقد ان استاذ ادوار بوكوك لم يكن هذا الشاعر الماجن الزاهد الذي ارجو ان أجلو صفحات حياته في دراسة مستقلة في يوم قريب .

ان التاريخ الادبي لحلب ، في القرن الحادي عشر الهجري ، يعجُّ باسماء كثيرين من الاعلام في فنهم - فنون وعلوم عصر الانحطاط - وكل واحد منهم ، على رأي مؤرخي تلك الفترة : « أوحد الفضلاء وأبلغ البلغاء » ! او « نجم طلع من افق المكارم زائد الارتفاع ، ونزل منازل سعد رقي فيها عن قوس الشرف بأطول ذراع ، يقطع اوقاته في طلب الفضائل والكمال ، ولا ينزّه طرفه في غير سماء خلال ، أو رياض جمال ، فلو كان العلم بالثريا لناله ، أو بالعيّوق لطاله » !

وقد أخذنا نبحث في جوّ تلك الظلمات عن بريق ينير لنا الطريق ، واذا بنا نلتقي بطائفة من الادباء والشعراء والمؤرخين ، وكل واحد قد بلغ الذروة في البلاغة بالنسبة لعصره ، اذكر منهم ابا الوفاء العرضي صاحب تاريخ معادن الذهب ، ونور الدين الحلبي صاحب السيرة الحلبية ، وعبدالله بن محسن قضيب البان صاحب رسالة « الفتوحات المدنيـة » الذي حذا حذو محي الدين بن عربي في « الفتوحات المكية » .. وغيرهم من الادباء والشعراء الذين كانوا يعنون بقشور اللفظ دون المعنى .. وحتى في الفترة التي بدأ فيها الغرب عصر نهضته وانبعاثه ، نعم ، في تلك الفترة المظلمة بينما كان الغرب يضع اساس نهضته في العلوم والفنون والسياسة والاجتماع والاقتصاد مما غير وجه حياته تغييراً تاماً كان ادباؤنا يدورون في تلك الدائرة المغلقة من الآراء المتحجرة والالفاظ الميتة . واذ شعر شعرائنا مثقل بقيود الصنعة ، ومحصور في دائرة التقليـد ، تغلب فيه مظاهر الضعف الخلقي كالجبن والملق والشكوى والاغراق والقحة ؟؟ . ولا نريد في كلمتنا هذه ان نقسو على ادباء حلب ، في تلك الفترة من عصر الانحطاط ، لانتهاجهم هذا النهج ، فقد كان جميع ادباء البلاد العربية يرسفون تحت هذه الاعباء الثقيلة ، وكان الادب العربي بمجموعه ذا لون واحد ، قد خلا من عناصر الحياة ، كل مادته التلاعب بالالفاظ وتنميقها ، والافتتان بانواع البديع والتصنع والتورية والاحاجي والالغاز وغـير ذلك من البهارج التي أورثت أدبنا السقم والهزال !

واذ اشير الى هذه الناحيـة من طابع الادب في ذلك العصر ، لا اريد ان اتوسع اكثر من هذا خشية ان يقذفنا هذا الاستطراد ، ومجاله واسع ، الى ملتويات بعيدة ، وكلامنا ينحصر في جلاء صفحة من صفحات الحياة في تلك الفترة ، وكان حافزنا اليها الصلة الوثيقة التي ربطت بين كبير مستشرقي الانكليز في القرن السادس عشر الميلادي وبين الشيخ فتح الله الحلبي ـ ذلك الاديب الذي يحتل بدوره ، مكانة مرموقـة بين ادباء عصره ، وهو كما يصفه معاصروه ، « أوحد عصره في فنون الادب وعلو المنزلة » .. فقد ترجمه ابن معصوم في سلافة العصر فقال : « فتى العلم وكهله ، وبيت الفضل وأهله ، الحكيم الحكم ، السائر الامثال والحكم ، معدن المعارف ، وكنز الافادة ، وكعبة الفضائل وقبلة الوفادة ، تصانيفه في سماء الوجود كواكب ، وتآليفـه لجمع الفوائد مواكب ، الى ادب مورده في البراعة معين ، يحسد إثمد مداده كحل عيون العين ، وديوان شعره عزيز المثال ، واكثر مقاطيعه حكم وامثال ، وكان له مجلس وعظ ونصح ، يزدحم لسماعه الحكم والفصح ، فيقرع الاسماع بتذكيره وتحذيره ، ويصدع قلوب اولي المنكر بنكيره ، ويقص من المواعظ أحسن القصص ، ويقسم من اخبار الخوف والرجاء أوفر الحصص ، ولم يزل سالكاً هذه السبيل وارداً من صفو عينها السلسبيل حتى طوى الدهر منه ما نشر ، والدهر ليس يأمون على بشر » .

ومن هذا الوصف نعلم ان الشيخ فتح الله هذا الذي اختاره ادوار پوكوك ليدرّسه العربيـــة كان على جانب وفير من علوم العربية ، وكان اديبـاً ، ناقداً ، شـاعراً ، متحدثاً .. ونعلم مما قرأناه في مختلف كتب السير انه من الرجالات المعدودين ، قد ألف وصنف ، وتولى افتآء القدس وســافر الى مختلف المدن ، وصحبه الوزير نصوح باشا والي حلب في رحلاته الى بلاد الروم ، وكان الوزير قد تتلمذ عليه ايضاً فلقي منه كل مكرمة .

ونصوح باشا هذا من كبار رجال الدولة في عهد السلطان احمد الأول ، وقد انتدبه والياً الى حلب ليقمع الفتن والاضطرابات التي سادت مدة طويـلة بين حلب ودمشق .. فقد وقعت ، في تلك الفترة ، مآس بين المدينتين يقشعر لها البدن ،

وكانت الاقطاعية الجامحة تسيطر على مقدرات الوطن بشكل مريع ، فكان ابناء الوطن الواحد فريسة للاهواء ، وقد وقعت مظالم من الانكشاريين واتباعهم المتغلبين يدمى لها جبين الانسانية فجاء نصوح باشا ليقضي على هذه الفتن والاضطرابات فنجح في مهمته وأحبه الحلبيون ، وكان الشيخ فتح الله من المقربين اليه ، حتى اذا انتهت مهمته وسافر والياً الى ديار بكر ثم الى استانبول ليشغل منصب الصدارة صحبه معه ، وان دل هذا على شيء فعلى المكانة التي كان يتمتع بها ادبنا الحالي

وقد كان لصحبة الشيخ فتح الله ذلك الوزير الخطير في سفراته المتعددة الى مختلف البلدان أثره غير المنكور في صقل شخصيته وامتداد افق ثقافته وبعد صيته ، وهذا الذي حفز رجال القنصلية البريطانية في حلب ان يدلسوا ادوار بوكوك عليه .

- ٤ -

لقد توثقت الصلة بين الاستاذ وتلميذه فكان يلازمه صبح مساء ، وظل يقرأ عليه ، ويتعلم منه خمس سنوات كاملة الى ان استطاع ان يحذق الفصحى بعد ان حذق العامية من افواه الحلبيين .

وقد اهتم ادوار بوكوك الى تعلمه العربية ، بكنوز حلب ، اريد بمخطوطاتها ، وحلب مشهورة بين مدن الشرق كله بان خزاناتها تضم أندر المخطوطات وأنفسها في شتى فنون المعرفة .

لقد كانت تلك الكنوز مبعثرة هنا وهناك في مختلف مدارس حلب وجوامعها ، لا تضمها خزانات ولا تضبطها فهارس وسجلات ، انثرت على الرفوف أو القيت في النوافذ والكوى ، قد علاها الغبار وعبثت بها الرطوبة والعفن والأرضة ، فوقف ادوار بوكوك من هذه الكنوز وقفة المتحسر المتألم .. كان يقلب كل مخطوطة صفحة صفحة ، وكانت تطول وقفته ، وقد يقضي النهار

بكامله دون ان يروي نهمه ، وكان يتساءل كيف يسمح الشرقي لنفسه ان يترك هذه الكنوز طعمة للغبار والرطوبة والعفن والأرضة ؟ لا .. ان مكانها ليس هنا ، في هذه الأمكنة الباردة التي ستحيلها ركاماً من الاوراق المهترئة .

لقد ودّ ادوار پوكوك ، وهو يتلقى دروس العربيـة من استاذه الشيخ فتح الله ـ ودّ لو استطاع ان ينقل كنوز الشرق الى الغرب ليضعها في المكان اللائق بهـا الى جانب الكنوز الثمينة التي يحتفظ بها الغرب . ولكن كيف السبيل للحصول على هذه المخطوطات النادرة ؟

لا نريد ان نورد بهذه المناسبة المثل الحلبي العامي الذي يقول : « ان المال الداشر يعلّم الناس الحرام » . لا .. فادوار پوكوك ، وله صفة الاستـاذ الجامعي وصفة رجل الكهنوت ـ أرفع من ان يمدّ يده الى سرقة كتـــاب من جامع أو مدرسة ولا سيما وهو ممن ينتسب ايضاً الى السلك القنصلي ! .. ولكن المتولّين ـ جازاهم الله على فعلتهم النكراء ـ هم الذين مهّدوا السبيل لادوار پوكوك ان يضع يده على مئات الكتب من أنفس مخطوطات حلب ، كان يبتاعها بواسطة بعض المتولّين أو بعض المدرّسين بأثمان اقدّر انهـا بخسة للغاية ، وما زال حتى جمع من حلب مخطوطات تزيد على الألف ، وفي رواية قد قاربت الألفي مخطوط !

يقول الدكتور ج. ا. آربري مؤلف كتاب « المستشرقون البريطانيون » ، في صدد كلامه عن پوكوك انه في اثنـاء السنوات الخمس التي عاشها في حلب جمع مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية تكوّن الآن قسماً من أثمن محتويات المكتبة البودليـة ـ نسبة الى استاذه وليم بيدويل مترجم القرآن الذي أهدى مكتبته الى جامعة اكسفورد .

ويقول برنز لويس في كتابه « مساهمة البريطانيين في الدراسات العربية » ، وهو يعرض الى مخطوطات حلب ، التي نقلها ادوار پوكوك :

« فقد اقتنى مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية عاد بها الى اكسفورد ، فأنقذها من الدمار الذي كان من المحتمل ان تحلّ بها » !

انقذها من الدمار الذي كان من المحتمل ان يحلّ بها .

لقد استوقفتني هذه الجملة كثيراً ، ففيها تنطوي كل هـــذه الفوارق بين الشرق والغرب ، بين حرصه على مثل هذه الكنوز وتهاوننا في الحفاظ عليها .

وهذه المخطوطات التي تحمل بين صفحاتها علوم الأولين من فلسفة ومنطق وفلك وتاريخ وشعر وأدب ـ لم تكن في نظر بعض شيوخنا الاجلاء الاّ تخرصات أولى بهـا القمامات أو ألسنة اللهيب ! فالجهالة الطاغيـــة على روح العصر في تلك الفترات السود لم تكن لتعطي اهمية بالغة لمثل هذه الكنوز التي كانت مبعثرة هنـا وهناك ، غير معتنىً بها كما قلت ، لا يلتفت اليهـا الا بعض كبار المدرّسين الذين كانوا لا يهتمون ايضاً الا بكتب الفقه والتفاسير . أما بقية كتب الأدب والحكمة والشعر والرياضـة والفلسفة والمنطق فكانت في نظرهم اضاليـل وتخرصات ، وهي اليوم لا تقـدّر بثمن ومرجع وثيق لفطاحل مؤلفي الغرب والشرق الذين يُعنون بعلوم العربية وآدابها .

ونحب ان نتساءل ، ونحن نتحدث عن هذه المخطوطات التي نقلت من حلب الى لندن على يد ادوار پوكوك هل كان ذلك بمعرفة استاذه الشيخ فتح الله ؟

اننا لا نريد ان نحمّله وزر هذا العمل ، كما اننا لا نريد . من جهة ثانية ، ان نبرئه ، فلولا اتصال پوكوك به واستغلاله دالة الاستاذ على تلميذه ، لما استطاع ان يغشى مدارس حلب وجوامعها ويظفر بتلك الكنوز .

ولكن فقدت حلب ، هذه الثروة الثمينة ، فنحمد الله ، انهـا وصلت الى أيدٍ تعرف للعلم قيمته ، فلولا اولئك الهداة الأعـلام الذين اتخذوا الاستشراق صنعة لهم لفقدت اكثر تلك الكتب النفيسة ولعدا عليها الزمان شرّ عدوان !

وكل من أحاط بشئون الاستشراق يعـلم ان في خزائن كتب انكلترا وفرانسا والمانيا وهولندا وروسيا واسبانيا وايطاليا والنمسـا والسويد والدانمرك ما يقرب من الستين الف مخطوطة من المخطوطات العربية، ولأكثر هذه المخطوطات

فهارس حسنة مطبوعة ، تهدي الناس الى ما فيهـــا من كنوز ، والى ما في تلك الكنوز من فوائد تاريخية وعلمية وأدبية » (١)

فلولا المستشرقون الاعلام لكان اكثر هذه الكنوز طعمةً للدمار .

واذا علمنا ان قسماً غير قليل من هذه المخطوطات قد نشر نشراً علمياً أفاد الثقافة العربية افادة لا يجحدها منصف قدّرنا فضل اولئك الهداة من المستشرقين على حركتنا الفكرية . ولئن وضع بعضهم علمه لاغراض السياسة وخطط الاستعمار فان اكثرهم قد خدم العلم للعلم ، وكانت جهودهم ترمي الى صون هـذه المخطوطات ونشر نفائسها ، وهي جهود جديرة بالتقدير والتمجيد .

— ٥ —

حين رجع ادوار پوكوك الى وطنـــه رجع مزهواً بعلمه وبما حمله من كنوز ، وقد استقبلته لندن كرجل مغامر — والسفر الى الشرق في تلك الظروف لون من المغامرة — فما كاد يستقر به المقام وينفض عنـه اعباء السفر ، ويعرض هذه الكنوز التي حملها معـه على زملائه واساتذته حتى اخذت شهرته تستفيض ، واذ كان من خريجي اكسفورد ومن حملة شهادة الماجستر افقد اسند اليـــه في ١٠ آب سنة ١٦٣٦ المنبر الجديد لاستاذية اللغة العربية ، فحاضر في الأدب والنحو ، وكانت اولى محاضراته عن بلاغة الامام علي وكلماته ، وقد طبعت هذه المحاضرة سنة ١٦٦١ م ، وأقبل على محاضراته لا تلاميذ الجامعة فقط بل اكثر المتخرجين من الجامعة وبالاخص زملاؤه في التدريس .

وفي ختام السنة الدراسية فكّر برحلة ثانية الى الشرق ، ويظهر ان السنوات الخمس التي قضاها في حلب قد اثارت في نفسه الحنين اليهـا والى مختلف بلاد الشرق .. وقد كان هـــذا الحنين يدفعه الى ارسال الرسالة تلو الرسالة الى استاذه ، وكم كنا نودّ ان نعثر على هـــذه الرسائل ، وهي وثائق ثمينة تشير الى علائق الفكر بين الشرق والغرب ، ولا نعلم اذا كان ورثة ادوار پوكوك يحتفظون ببعض رسائل اديبنا الحلبي الذي كان يثير حنينه الى موطنه .

(١) المخطوطات العربية في دور الكتب في امريكا لكوركيس عواد ص ٣

وحين قام برحلته الثانية الى الشرق سافر مع وليم جريفز المستشرق البريطاني المختص بشئون الفلك والذي كان يجيد العربية والفارسية معاً .

وقد سافرا الى تركيا وأقاما في استانبول حتى سنة ١٦٤٠ م ، وكان لا بدّ لادوار پوكوك وقد وصل الى الشرق، من زيارة حلب التي كان لها اثر غير قليل في تكوين شخصيته الادبية ، وربما كانت حلب ، هي قصده من الرحلة الى الشرق و « مخطوطاتها » هي السبيل !

وقد جاء الى حلب يحمل الى اصدقائه والى استاذه الكثير من الهدايا .. ويؤكد بعض المستشرقين البريطانيين ان ادوار پوكوك التقى باستاذه الشيخ فتح‌الله في هذه الرحلة ، ولكن تحقيقنا يدحض ذلك ، فهذه الزيارة كانت في الفترة الواقعة بين سنة ١٦٣٧ وسنة ١٦٤٠ م . والشيخ فتح‌الله البيلوني قد توفي سنة ١٠٤٢ هـ الموافقة لسنة ١٦٣٢ م ، أي بعد وفاته ببضع سنوات ، ونرجّح انه ، في الرحلة الثانية قد التقى بابن الشيخ فتح‌الله ، وقد كان كأبيه من الادباء المعروفين في زمنه ، ويصفه معاصروه بقولهم :

« كان غرة في جبهة الفضل ، كثير الادب ، راوية للشعر والوقائع ، خبيراً بصنعة النقد ، غواصاً على دقائق الادب ، ولد بحلب ونشأ بها ، وتأدب بوالده فتح‌الله ، وقد ولي القضاء وسافر الى مختلف المدن ـ الى مصر وسوريا ، وله شعر بفيض رقة وعذوبة »

وقد رأى ادوار پوكوك عند ابن استاذه الاديب ، الشاعر ، الناقد كل ما يكمل ثقافته الادبية ، ولا سيما بعد ان عهدت اليه جامعة اكسفورد بكرسي الدراسات العربية .

واستطاع ، في هذه الرحلة ايضاً ، ان يجمع أنفس المخطوطات وأندرها ، وان ينقل معه ، كما تقول الرواية الانكليزية ، شجرة تين غرسها في حديقة جامعة اكسفورد ، وظلّ يتفيأ ظلالها الى آخر ايام حياته ، وقد ظلت هذه الشجرة أقدم شجرة من نوعها في انكلترا . اما لماذا نقل شجرة التين ولم ينقل شجرة فستق مثلاً .. فهذا امر يرجع الى الذوق لا مجال لتعليله ، ولم يحاول من كتب عنه ان يعرض الى هذه الناحية اكثر من رواية الخبر !

- ٦ -

بعد هاتين الرحلتين انصرف ادوار پوكوك الى الحياة الادبية الخالصة ، فبدأ يؤلف وينشر بعض المخطوطات ، واستطاع في فترات متقطعة ان ينشر الكتب والمخطوطات التالية :

١ ـ كتاب « الحضارة العربية » وهو مقتبس من كتاب «مختصر الدول» لأبي الفرج ابن العبري ، وقد صدر سنة ١٦٤٩ م وأهداه الى ملك انكلترا ، وقد اعيد طبعه في اكسفورد سنة ١٨٠٦ م .

٢ ـ كتاب المختار من تاريخ العرب الذي يعتبر اول نصّ عربي طبع في اكسفورد، وقد عرض في هذا الكتاب الى نشأة العرب وعاداتهم وآدابهم وديانتهم.

٣ ـ كتاب « مختصر التاريخ العام » لابن البطريق سنة ١٦٥٨ م .

٤ ـ ترجمة مجمع الامثال للميداني ، وهو كما تعلمون يضمّ أمثال العرب ، وترجمته من الصعوبة بمكان عظيم، وقد نشر الترجمة المستشرق الهولندي شولتنز . وطبع اجزاء منها سنة ١٧٧٣ م . وسنة ١٧٧٥ م .

٥ ـ لامية العجم ، وهي دراسة نقدية لقصيدة الطغرائي تصحبها ترجمة وتفاسير وافية ، وقد طبعت سنة ١٦٦١ م .

٦ ـ مقالة عن مزايا القهوة من كتاب طب عربي نشرت سنة ١٦٥٩ م .

وبعد نشره هذه الكتب استفاضت شهرته لا في بلاده فحسب بل في جميع المعاهد العلمية ولا سيما في البلاد التي تعنى بالاستشراق وبالمخطوطات العربية .

* * *

هذه هي ، ايها السادة ، قصة شجرة التين التي نقلت من حلب الى لندن والتي لا تزال مزدهرة الى اليوم كما يقول برنزلويس ، ـ وان كنت اشك في ذلك ـ

أو قصة الثمار اليانعة ، أريد تلك المخطوطات النادرة التي نقلت من حلب الى لندن، وبتعبير أعمّ قصة هذا المستشرق الذي جاء حلب قبل ثلاثمائة سنة فوجد عنداحد فطاحل ابنائها ضالته المنشودة ـ عنـد الشيخ فتح‌الله البيلوني ـ ذلك الامام الذي يرقد في تلك التربة المهجورة من ترب حلب ، في الزاوية المتهدمة الكائنة في زقاق البيلوني ، الواقع وراء خان الميسر في محلة جب اسد الله .

* * *

وهكذا ، فقد استطاعت حلب ، في تلك الفترة من حياة الفكر ، ان تنير السبيل لرجل تعتبره دوائر الاستشراق من الروّاد الذين وضعوا أسس هذا العلم على دعائم وطيدة والسلام .

مراجع هذا البحث :

خطط الشام محمد كرد علي
خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر للمحبي
تاريخ حلب لكامل الغزي
اعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء لقطباخ
مجموعة الغرفة التجارية الحلبية
مساهمة البريطانيين في الدراسات العربية لبرنر لويس
قاموس الاعلام لشمس‌الدين سامي
الاعلام لخير الدين الزركلي
المستشرقون البريطانيون للدكتور ا. ج. اربري
المستشرقون لنجيب العقيقي
سلافة العصر لابن معصوم
دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٥٠
تاريخ الدولة العثمانية لمحمد فريد بك .
المخطوطات العربية في دور الكتب في امريكا لكوركيس عواد

المحاضرة الثانية

الحركات الادبية التي عاصرتها

خليل الهنداوي

= القيت بتاريخ ٧ آذار ١٩٥٢ =

سيداتي ، سادتي !

أضحكني صديق لي شاهد عنوان « محاضرتي » هذه ، فابتدرني قائلاً : ان هذا العنوان يجعلك كبيراً ، لكي يسمح لي بمعاصرة الحركات الأدبية ... وقد يكون قوله صحيحاً لو اننا كنا نحيا حيث كان الناس يحيون ببطء واجترار ، وحيث كانت تمشي الحركات الرئيسية ببطء واجترار . ولكننا ، في عصر تتوثب فيه الحركات ، وتتبدل معالم الاشياء بين ليلة وضحاها ... وما عرف الفكر البشري يوماً أن ظلاله تسبقه بهذه السرعة في يوم كهذا اليوم ... كما لم تعرف الانسانية اياماً تمخضت بالحوادث الكبار كهذه الايام . ويحق لنا أن نقول ـ فخورين أو آسفين ـ اننا شاهدنا عجائب الانسانية في ارتفاعها وانخفاضها ، وإنسانيتها وبهيميتها : نحن الذين عشنا في حربين مظلمتين . ولا ندري ماذا ينتظر العالم ؟ وتلك ـ اذا جاءت ـ ثالثة الأثافي ، كما تقول العرب في أمثالها . فعلى جباهنا انطبعت حوادث يصح لنا أن نردد فيها قول المتنبي :

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم ، وأتيناه على الهرم

ولكن ... ما لنا والحوادث الخارجة عن نطاق موضوعنا ! إذ يهمنا منها تلك الحوادث التي جعلت آدابنا تضطرب وتختبط مثلها ...

ان من يقارن بين الانتاج الغزير الذي تجود به المطابع اليوم ـ دون النظر الى قيمته ـ وبين الانتاج الضئيل السابق يقدّر المجال الذي تقدم به الفكر وأسرع فيه الأدب . وإن كان هذا الانتاج يتفاوت في روحه وقيمتـه . ففي مطلع القرن العشرين لم يكن هنالك شيء الا ما يُشعر بأن روحاً جديدة تدبّ فيما نسميه جسداً عربياً هامداً ... من آثار قديمـــة يختلط فيها أدب عصور الانحطاط ، والأدب الفحل العباسي ... ومن آثار حديثة لا يزال التقليد يغلب عليها ، وعدم الصراحة في القول والتفكير .

فتحنا عيوننا ـ في هذا الجو ـ على النور ، وطلبنا أن نقرأ ، وكنا لا نجد كتباً تلذنا قراءتها ، واذا وجدنا لم نجد ما يمتزج مع أنفسنا . نسأل أساتذتنـــا ، فيقولون لنا : ـ عليكم بكليلة ودمنة ، ... بنهج البلاغة ... بمقدمة ابن خلدون... فنحمل هذه الكتب . ، نقرؤها ، نحملق فيها ، ثم نطويها يائسين لاننا لم نفهم منها شيئاً . إما لمزاجها البياني ، أو مستواهـا الفكري . وعلة الكتب علة رئيسية في حياة الشباب .

إن لي رأياً في أن للكتب أعماراً خاصة تترك آثارها فيها . فالكتاب الذي يسرك في مرحلة ما قد لا يكون في غيرها إلا شيئاً ميتـاً . والكتاب الذي كنت تفرّ منه قد تقبل عليه في مرحلة ثانية ، وقد تعيده . وما ذلك لان الكتاب قـد تغير ، وانما التغير قد حدث فيك ، وفي عواطفك ، وفي اهوائك ... ولذلك كنا نعرض عن تلك الكتب القيّمة ـ في ذلك العمر ـ لانها ليست من عالمنا ، بينما نقبل عليها الآن لانها وجدت مأربها الى أنفسنا . ولذا أحب ان اذكر انني من اصحاب الرأي القائلين : « بأن القيم الادبية لا يمكن ان تتحجّر ، والنقد نفسه لا يمكنه ان يضع قواعد ثابتة للاثر الادبي ! » فأنت تهتز للاثر الادبي ، بالاعجاب اوالاعراض عنه بحسب اهتزازات نفسك وتقبلها لهذا الاثر . أي « ان المذهب التأثري الذي قال به النقّادة الفرنسي « جول لمتر » هو المذهب الذي يسيطر على كل ما تنتجه القرائح . فأنت مدعو اذاً الى التمتع بالآثار الادبية والتلذذ بها . ولذلك يعتمد اصحاب هذا المذهب على العاطفة والادراك الموحي به . ولكن اذا سألتهم : ماذا أعجبهم من هذا ؟

لم يحددوا لك ما أعجبهم ؛ لانه لا يحدّ ، ولا يستقر . إن ما أعجبهم يحيا بصورة خفية في الاصل الخفي للنفس الانسانية ، وفي مدارج العقل من حياتنا العميقة الصماء ! ولذلك تبدلت قيمة الأثر الادبي نفسه عند قارىء وقارىء ، بل عند ناقد وآخر ؛ بل لتتبدّل عند الانسان نفسه بالنسبة الى اطواره المتعاقبة في مجرى حياته. فكم أعجب قارىء لشاعر ـ مثلاً ـ في حداثته، ثم زال هذا الشاعر من حياته . أكان واهماً في حاليه ؟ لا ، انه كان اكثر صدقاً في الحالتين بالنسبة الى أطوار نفسه وحياته ... اننا نحن المتبدلين دائماً ، نعيش ونتأمل في عالم يتبدل . وهب ان الشيء الملحوظ قد وقف عند شكله الواحد ابداً ، فيكفي أن نفسنا ـ أنى انعكست ـ تتحرك وتموج بشتى الاحاسيس ، وبذلك يستحيل علينا الجواب بغير تأثرنا الحيني. إن الآثار الادبية كذلك تتحرّر إزاء مرآة عقلنا . ولما كان هذا التحرّر طويلاً فان المرآة تتبدل في البرهة الواحدة ، ولما كان الاثر الواحد يرجع الينا مرة ثانية بطريق المصادفة فانه ، إذ يعود ، لن يعكس الصورة نفسها التي عكسها في المرة الاولى ... وما كان تأثير اليوم بموجب لتأثير الغد ؛ لان لكل حين تأثيره بحسب الحالة النفسية التي نكون عليها . واكثرنا قيّض له أن يقرأ كتباً وروايات وقصائد وأن يتأثر بها في حينها ، لانها صادفت هوىً حينياً في أنفسنا ، وهذا الكثير قيّض له أن يعود الى شيء منها ؛ فاذا بها لا تحرك ساكناً ، ولا تترك سوى الفراغ . لان الامر كما قاله فيلسوف يوناني « انك لا تغتسل في نهر مرتين » ، وأنت تظن انك واحد في شعورك ، ثابت في عواطفك ، وأنت في الحقيقة كتلك الشجرة التي تنمو ، وتكتسي ، وتعرى كأنها من ذاتها في عوالم لا تتناهى .

ليس من اليسير برغم تحديدي العنوان الذي وضعته ان اكون ـ كما يطلب العلماء ـ مركزاً للموضوع ، محدداً لخصائصه ؛ لاننا نحيا في ـ عهد من ادبنا ـ يشبه أعنف نقطة في اوقيانوس تلاقت فيه تيارات مختلفة ، وهبّت عليه عواصف مختلفة ، فأصبحت لا تعرف أين موضعك منها ؟ وإن الامر نفسه ليثقل عليّ لو أردت تحديد تأثير تلك الحركات في نفسي وحدها ، فكيف العمل على جعل تلك الحركات مذهباً عاماً مستقراً ؟ ولكي ينتقي منها تلك الخطوط الكبرى التي تأثرنا بها.

لنعد الآن القهقرى ! ومنكم من يستطيع العودة معي بسهولة ، ومنكم ـ وهم الشباب ـ يستطيعون أن يتخيلوا معي هذه العودة ، وليست بعيدة عليهم ؛ لأنهم لا يزالون يعيشون بافكار مبدأ هذه العودة وعواطفه ... ففي منتهى الحرب الاولى خرجنا منها أحداثاً ، ولكن ليست لنا همة الاحداث ولا طموحهم لأن تجاعيد الجوع والألم والشقاء وفقد الاهل طبعت جباهنا بما لا ننساه . فكان فينا الجوع الحقيقي . والجوع المجازي الى اكتشاف الآفاق الادبية . وقد كان من فجائع الحرب الاولى أن انقطعت الصلات بين الاخوات من البلاد العربية . فلما عاد التواصل قامت حركة عنيفة مندفعة تشبه لقاء أمواج عنيفة حيل بين بعضها والبعض . ثم تواصلت . فنهضنا نستمع ، وأقول : نستمع لان الشعر كان يُتغنى به في كل موضع ، وكان كبار الشعراء في الاقطار العربية يواصلون الغناء . ونهضنا نقرأ ؛ لان المطابع العربية بدأت تجود بمختلف القرائح . ولكننا ـ برغم هذا ـ لا نزال حائرين في أي الكتب اجمل ؟ الحق أن آراء اساتذتنا لم تنفعنا شيئاً في هذا المضمار ؛ لاننا كنا لا نقرأ الا ما يلذنا ، وإن خالفونا فيه . لانهم يحكمون على عقولنا ، ولكنهم لا يحكمون على أذواقنا . وأذكر الكثير مما كنت اعانيه من هؤلاء الاساتذة وبعض الناس حين يجدونني أقرأ مثلاً « لجبران ، أو الريحاني ، أو نعيمة » باعتبار أن افكار هذه الجماعة مسمّمة . ولكني ـ ويا للعجب ! ـ تناولت سموم هذه الجماعة في حداثتي بأكبر كمية ، ولم تظهر علي اعراض التسمم ! وينقمون علينا أننا نقرأ روايات المنفلوطي مثلاً ، لانها روايات غرامية ، والغرام ممنوع بين الشباب ؛ كأنما هو مادة لا يُسمح بها ـ عندهم ـ الا للكهول وعند الكهولة فقط ! فلذلك كنا حريصين على مناوءة هذه الجماعة ، ونحدّيها فيما نطالعه ، لاننا نريد ان نعترف بسلطان أذواقنا ، ولذلك وجدنا أنفسنا ...

نحن الآن ازاء حركات كما وصفتها عنيفة ، متناقضة ، متخاصمة كتلك الخصومة التي كانت بين أهل القديم وأهل الجديد ، أو كتلك الخصومة التي تبقى بين العقل المتسمر والعقل المتطور ، على ان لكل حركة من هذه الحركات خصائصها الفكرية والفنية ... وكلها قد انصبت في تفكيرنا وأدبنا . ومن العجيب انها أضاعت تقريباً خصائصها الذاتية لتتحول الى حركة واحدة ذات خصائص

موحـدة ، وما مثل الافكار والحركات الادبية تختلف ، وتعصف ، ثم تتحد ، وتمتزج في الفة واحدة .

هنالك : الحركة الادبية « المهجرية » ... وقوامها رجال هجروا الوطن الى ما وراء البحار طلباً للرزق الميسور . وهم يحملون شعلة ادبيـة في صدورهم . فيهم التاجر ، والمحرر ، والكادح سعياً . ولكنهم حين ينتهون من اعمالهم المختلفـة يجمعهم أدب واحد ، وفي ذلك سر انطباع الانسان على أن يتغنى حيث كان بآلامه وسرّائه ، وان يلجأ الى الفن من واقعه الثقيل ، مروحاً بأوهامه عن نفسه ، يوم كان الفنان لا يقدر على اكثر من الاوهام ... وقـد وجدوا في تلك الارض تربة صالحة لجذور الادب الصحيح ؛ فان فيها الحرية التي كانت مفقودة في بلادهم ، وفيها الحنين الدائم الى الاهل والوطن ، وفيها الاتصال بثقافـة الغرب من غير ترجمان . وفيها الالفة التي شجّعت على خلق جمعيتهم الادبيـة المعروفة « بالرابطة القلمية » وأبرز رجالها جبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمة ، وايليا ابو ماضي الشاعر .

كانت هـذه الحركة الادبية ومنتجاتها الرائعة تجوز البحار ، لتصل الينا وفيها حرارة العاطفة ، وصدق الشعور . ومن منكم لم يقرأ في حداثته آثار هذه المجموعة ، ومن من الاحداث لا يقرؤها اليوم كما كنا نقرؤها ؟ ويلتذّون بها كما فعلنا امس ؟ دون ان تخدش ركاكة اللغة ، واضطراب البيان آذانهم ؟ لانها عنيفـة بروحها ، عنيفة بألوانها ، عنيفة بحريتها وصراحتها . ولعلّ أشمخ هـذه المدرسة « جبران » الذي خلق فناناً بكل شيء فيه ... قد احتلّ قلوب الناشئة بفتنة بيانه وموسيقاه ـ كما يقولون ـ . ولكنه في الحقيقة لم يفتنها الا بسببين : الاول انه استطاع أن يصور الكآبة ... الكآبة العميقة المغيّمة في الشبـاب حين ينطوي على نفسه ، ويئس ، وينحدر ... والثاني انه استطاع ان يصور التمرد العنيف في الشباب نفسه حين يجد سبيـلاً الى التمرد . والكآبة والتمرد حالتان متناقضتان اسماً ، ولكنهما متلاقيتان وجوداً في النفس ، لانهما نتيجة طبيعية لاصطدام طموح النفس في الحياة والواقع ، وبخاصة طموح النفس الفنيـة ! أما تمرده الذي كنا نحبه ، ونحبيه فهو حالة طبيعية تستجيب للاوضاع الجامدة في مجتمعنا ؛ فعنـدنا اوضاع جامدة ، وحالات تقليدية ليس فينا القدرة على مجابهتها ، أو الحد من سلطانها . فاذا

جاءنا واحد يعلن هـذه البطولة قرأناه كأنما يصوّر أنفسنا ، ويعبر عمّا أسكتنا الجبن عنه . ولذلك يعيش « جبران » دائماً بأبطاله المتمردين لانه ينقـل عن تمردنا الباطن . أما « جبران » الكئيب فهنالك كاتب ـ في مكان آخر ـ يغلبه على هـذه الصفة ، وهو « المنفلوطي » والمنفلوطي كاتب محبوب عند النشء كثيراً . هـذا يريد إصلاح المجتمع عن طريقة استدرار شفقة الأقوياء ، وتصوير آلام الضعفاء ، فلست ترى في صوره الا كل صورة مظلمة الالوان ، تحمل في طياتهـــا اليأس والوجوم . وذلك لا يرى صلاحاً ممكنـــاً الا بنزع ثوب المسكنة والاستسلام ، وإعلان التمرد الفكري والروحي على كل شيء ، حتى على الفكر نفسه .

ثم يرى تمرد جبران ينطفىء ، وتحل محله صوفية انسانية تدعو الى قيـام الحياة على المسالمة ، لا على التنازع . وتبني الانسانية المتحابة لا الانسانية المتباغضة .

قد تسألني : كيف تبدلت هذه النفس ؟ وما هي الدوافع الى هذا التبديل؟ أراد الناقد المعروف « ميخائيل نعيمة » أن يرد تمرد جبران في عواصفه الى تمرد الفيلسوف الالماني « نيتشه » في كتابه « هكذا قال زراداشت » والحق ان هنالك تشابهاً كبيراً بين هـذين الكتابين في الافكار والصور والاسلوب . أما الدوافع الانسانية الاخرى فأردّهـا بنفسي الى « الناقد نفسه نعيمة الذي لم يبدل فكرته وطريقته منـذ زاول التفكير والادب . فهو ابن الادب الانساني الذي اغترفه من الادب الشرقي والادب الروسي . فهل استطاع « ميخائيـل نعيمة » وهو الصديق الملازم لجبران ان يتغلب بروحه الانسانية الهادئة على تمرد جبران؟ إنه استطاع... ولكن انسانيـة جبران بقي لها اسلوبها الشخصي في كتابه « النبي » المكتوب بالانجليزية . ولعلّ « نعيمة » نفسه يجلو لنا هذه الناحية يوماً كما جلا لنا اسبـاب تمرده . وإلا فان جبران ذاته بما يحمل من صور الشرق وأدب الشرق كان قادراً على أن يجد طريقه كما يريد ...

وهكذا نجد أن أبرز ما تمتعت به هذه المدرسة ـ على قصر عمرها ـ تعبير انساني حرّ ، اتخذ النفس الانسانية موضوعاً له . فيه حرارة العاطفة والتعمق في وصف التأثرات النفسية ، حتى باتت الى الانفعالات الشعرية أدنى . وكان من أثرها

البياني البعد عن الاساليب الجافية ، والاكثار من التراكيب والصور الغربيـــة الملونة .

وهنالك الحركة الادبية المصرية : وهي أم الحركات الادبية في العالم العربي: وكانت الحركة الادبية فيها على أشدّ ما تكون اختباطاً واضطراباً ، لانها تضم أدباء مختلفي النزعات ، متبايني الثقافات ، فمنهم اهل القديم الذي لا يتسع صـــدره لأي جديد ، ومنهم أهل الجديد الذين ينفضون اليد من كل قديم . ومنهم الذي ينتصر للاسلوب ، ومنهم الذي يجد الاسلوب كساءً أو طلاءً ، ويجعل الأهمية للمعاني ... كل هؤلاء كانوا يعملون ويتلاقون ، ويتخاصمون . والأدب ـ لا بد ـ هو الكاسب من هذه الخصومة ... لقد كان المثل الأعلى للشعر شعر شوقي ، والمثل الأعلى للنثر نثر المنفلوطي بأناقته. وفي ذات يوم نسمع أن كتاباً اسمه « الديوان » في نقد شوقي والمنفلوطي ، كتبه شابان محرران صحفيان: هما عباس محمود العقاد وابراهيم عبدالقادر المازني . سمياه الديوان ، لا باعتباره ديوان شعر ، لانهما ارادا فيه النقد لا الشعر ، أخرجاه سنـة ١٩٢١ . وقـــد جاء في مقدمته « أنه كتاب يتم في عشرة أجزاء موضوعه الادب عامة ، ووجهته الابانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة وأوجز ما نصف به عملنا أنه « إقامـة حد بين عهدين لم يبـق ما يسوّغ اتصالهما ، والاختلاط بينهما ، وأقرب ما نميز به مذهبنـــا أنه مذهب انساني مصري عربي : انساني لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان، خالصاً من تقليد الصناعة المشوّهة، ولانه من ناحية اخرى ثمرة كفاح القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة ... » ... وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى أن تحطم كل عقيدة اصناماً عُبدت قبلهـا . وربما كان تقدماً ليس صحيحاً أوجب وأيسر من وضع قسطاس الصحيح ... فلهذا اخترنا أن نقدم تحطيم الاصنام الباقية على تفصيل المبادىء الحديثة ... وسنردفها بنماذج للادب الراجح من كل لغة ... » ولكن هذا الوعـد لم يتم ، لان صاحبي الديوان اكتفيـــا بجزءين حطما فيهما شوقي شاعراً ، والمنفلوطي ناثراً .

من هنا بدأت حركة جريئة تفهم الأدب فهماً صحيحاً ، واستطاعت هـذه

المدرسة أن تربي جيلاً جديداً يتذوق الادب تذوقاً جديداً لا يقف عند اناقة في الاسلوب او زخرفة في الصورة . ومن المسلّم به ان هذا الجيل الجديد يجب ان يكون مثقفاً متمكناً حتى يمكنه ان يميّز . وهكذا التقى كتاب « الغربال » الآتي من المهجر ، والديوان القادم من مصر يدعوان الى أدب صحيح ونقد يستقيم في الذوق الصحيح ، دون ان يكون له قواعد ... ولكن اللهجة التي استخدمها صاحبا الديوان رمتهما بالحقد والحسد . وإنها للهجة قاسية يبرأ منها النقد النزيه . ومما زادهما اتهاماً وقوفهما على النقد دون ان يعرضا النماذج الادبية العالية التي وعدا بها في المقدمة . واذا وفيا بشيء مما لم يعدا به فهو مجموعة شعرية للعقاد والمازني ، وكلنا يعلم نصيب الاثنين في الشعر . وهـــذا كله لا يمنعنا ان نقول : « إن اقوم المقاييس النقدية الادبية التي قامت في ادبنا الاخير كان يحملها هذان الرجلان اللذان منحا : احـــدهما القسوة والفظاظة ، وثانيهما الخفة والتهكم ... ونقدهما ـ كما قلت ـ مستلهم من « المذهب التأثري » . والحق ان النقد الذي استلهمه المتأثرون بالادب السكسوني كان نقداً تأثرياً . ـ كالعقاد والمازني ـ بينما النقد الذي نهجه المتأثرون بالادب اللاتيني كان اكثر ميلاً الى « القوانين » التي يحاول اصحابها اخضاع الادب والذوق لها ـ كطه حسين في بعض كتبه ـ وقد اخضع النقد لكثير من التجارب ، وظهر ان كل نقد ، يهمل فيه نصيب الذوق فالى الفشل ...

وفي قلب هذه الحركة استعرت حركة ثانية هي ابعد مدىً وعمقاً في اسبابها ونتائجها ، لانها لا تستقر الا حيث تبدأ الحياة ... هذه الحركة قامت بين اهل القديم واهـل الجديد كما قامت وتقوم في كل عصر . وقد قدم كل فريق عدته وعتاده . ويهمنا من هذه الحركة دراستها « كمذهب » دون ان نقف على ما جاء فيها من مهاترات ومنافرات . هـــذا المذهب الذي نريد ان نعبر عنه بالمذهب الذي يسمح بحرية الفكر في المباحث الدينية والادبية .

منذ خرج الفكر الاسلامي ـ من منطقته المجدبة المحدّدة ـ على يد الشيخ محمد عبده وجمال الدين الافغاني اللذين اقنعا الاذهان بان من عوامل انحطاط

التفكير الحجر على تلك الحرية التي ابدعت الحضارة السابقة ؛ هذه الحرية العقلية التي كانت اليونان مهدها الاول هي الجديرة بان تعيد الى الفكر العربي خاصة الحياة مرة ثانيـــة . والحرية لا تتحقق بمجتمع قبل ان يشعر الفرد بحريته تجاه نفسه وتجاه مجتمعه . ولذلك سمح بعض المفكرين لانفسهم بالمناقشة والاخذ والرد فيما كان الناس يعتقدون بأنه لا مجال فيه للمناقشة . وكان من ابطال هذه الحرية الفكرية جمال الدين والشيخ محمد عبده وقاسم امين الذي اعلن الحرب على قيود المرأة ... وكثيرون من هؤلاء الأبطال اضطهدوا ، وحمل عليهم . ولكن المذهب الذي اعلنوه هو الذي انتصر ، فبدأ الناس يشكّون في القيم الموروثة ويتناقشون في الاشياء المقدسة ... ويسلخون عن « إيزيس » المحجوبة كل الحجب ليخرجوها عارية للناس . فكان من نتاج هذا المذهب الجريء كتابان احدثا ضجة عنيفة في مصر : الكتاب الاول « الخلافة » الفه الشيخ علي عبدالرازق اثبت فيه ان الخلافة امر لا تعلق له بالدين ، وانما هو اتفاق دنيـــوي لم ينص عليه القرآن ولا الأثر ، ولا الرسول نفسه حين اهمل امرها . فكان ظهور هذا الكتاب محركاً للافكار المقيدة . قابله اهل الجديد بالاكبار ، واهل القديم بالانكار ؛ لانهم وجدوا فيه بادرة ـ للدين ـ منذرة . حوكم المؤلف ، وحكم ، وفصل من منصبه في الازهر ... ولكن متى كانت الافكار يحكم عليها ؟ فقد علمنا التاريخ ان كل فكرة عذّب اصحابها هي الفكرة التي اشتعلت وانارت ، وان الذين يحرقون الافكار الحرة هم وحدهم الذين يحترقون ... وبعد قليل ذهب هذا التحدي ومضى ، الكتاب لسبيله ، والشيخ في ارتفاعه ...

والكتاب الثاني ـ وهو الذي يمسّ حركتنا الادبية هو كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين ... الذي وضع الشك في هذا الشعر كله دون ان يمسّ الدين . فكانت الضجة التي احدثها اعنف ، وبخاصة انها جاءت قبل ان تذهب تلك الضجة . وكان منها اهتزاز الاوساط العلمية والشعبية التي تأثرت بهذا ؛ حتى عرض الأمر على المجلس النيابي المصري ، فطلب عزل المؤلف من الجامعة ، والغاء مـــنبره الجامعي ... ولكن المسألة تعقدت حين تخطّت هـــذه الحدود ، فيناصر وزير

المعارف مبدأ حرية التفكير ، ورئيس الوزارة يقترع على الثقة ... ثم تسوّى المسألة تسوية مرضية .

في الكتاب الاول مبحث ديني حر ، وفي الثاني مبحث أدبي حر . وقد انتصر المذهب الذي جرى عليه المبحثان لا أمام السلطة القضائية فحسب ، بل أمام الرأي العام كله . ورأينا نحن اننا لا نميل مع هذا وذاك ميلاً أعمى لمجرد الآراء الشكوكية . ولكنا نحترم اولاً مبدأ التفكير الحر ، ونخطّىء ثانياً الوسائل التي يستخدمها كل فريق ليفرضها على الفريق الآخر . فقد تكون آراء طه حسين مخطئة من ألفها الى يائها ؛ ولكن الطريقة التي يجب ان تستخدم لتخطئتها هي طريقة المناقشة ومقارعة الحجة بالحجة ، لا طريقة جمع عوام الناس ، وتحريضهم باسم المقدسات وغيرها على المفكرين . وكما قلت : إن الافكار ما خضعت ولن تخضع للقوة . وقد رأينا في الغربيين اصول المباحث الحرة للوصول الى الحقيقة . فالقيود التي توضع أمام حرية البحث تعتبر خطيرة لا بالنسبة الى البحث وحده ، بل بالنسبة الى نفس الحقيقة التي تخرج عنها .

وقد ترك ذلك أثراً عنيفاً في الاوساط القديمة والحديثة ... فهذا «الرافعي» يكتب كتابه « تحت راية القرآن » دعا فيه الى أن الدفاع عن الشعر الجاهلي هو دفاع عن القرآن . وهو دفاع مبني على العاطفة والحمية . بينما خرج من ذلك كتب اخرى أهدأ نقداً وأثبت مناقشة . كما ان لهذه الضجة صدىً تركته في الاوساط التقدمية . والنوادي الادبية . وهذا هو الشاعر العراقي الرصافي يشير الى الحادثة في قصيدته التي أنشدها في حفلة مبايعة شوقي بامارة الشعر :

ولكنني قد أنظر الحفلة التي ... تقام له ـ ذا اليوم ـ في مصر ساخرا
اذا احتفلت مصر بشوقي فما لها ... تقيم على الاحرار ـ في مصر ـ حاجرا
فقد أسمعتنا ضجة أمطرت بها ... « علياً » و « طه » حاصباً متطايرا
فما بال هذا عدّ في مصر مارقاً ... وما بال هذا عد في مصر كافرا !
اذا لم تك الافكار في مصر حرة ... فليس لمصر ان تكرّم شاعرا
الا ان هذا الشعر ليس بطائل ... اذا كان عمّا يبالغ العلم قاصرا
كما أن هذا العلم ليس بنافع ... اذا لم تكن فيه النفوس حرائرا

وكأن ذلك كان إيذاناً بكتابة التاريخ الاسلامي الاول بروح النقد والمناقشة ، وتوارد من ذلك على المكتبة العربية كتب حديثة فيه ، وأدب حديث تولته أقلام رفيعة ، بدأها « هيكل » بكتابه « حياة محمد » متأثراً بكتاب « حياة محمد » لاميل درمنغايم فقد استوحى منه الاسس ، ومضى في كتابه . وأهم مراحل هذا الكتاب أن حياة الرسول كتبت بروح علمية ، منطقية ، تجمع الحوادث وتتقراها ، وتناقشها ، وتثبت ما تثبت ، وتنفي ما تنفي ، أي انه أخضع الادوار البطولية من تاريخنا للروح العلمية . فكل شيء يحلّل ، ويناقش ... وتبذل فيه محاولة التوفيق بين الايمان والعلم والحضارة الحديثة ... فهو يتصل بالحاضر ، ولكنه لا يحطم الماضي . اشتهر هذا النوع من التأليف ، وشجع صاحبه على إتمام حلقة الدراسة ، فألف في ابي بكر وعمر .. ثم أخذ عنه « عباس محمود العقاد » هذا المذهب ، فأخرج « عبقرياته الاسلامية المعروفة » . وكان من هذا ان أولع فريق من العلماء والادباء بتجديد الدراسة الاسلامية وبنائها على العقل والتجديد ، بما يتلاءم مع التفكير الحاضر . و « العقاد » في عبقرياته لا يتبع طريقة التحليل والمناقشة كسابقه ، ولكنه أميل الى ان يذكر تأثراته الشخصية ، وأن يلقي أضواء عقله على الاشياء ، فيلوّنها بما يريد .. فهو يحبي الشخص « كبطل » كما يفعل « كارليل » في كتابه « الابطال » . والعقاد ينجح في طريقته هذه بفعل شخصيته القوية .

وكان ، من ذلك القديم ايضاً ، طريق آخر يشبه طريق « جول ليمتر » في كتابه « على هامش الكتب القديمة » يحييها بطريقة عرض جديد . أثّر هذا الكتاب في « طه حسين » فألّف « على هامش السيرة » وهو كتاب يعتمد على التاريخ ؛ ولكنه ليس من التاريخ في شيء . وفيه التحليل النفسي الكثير وهو البعيد عن التحليل ، لأنه اراد ان يجمع بين الخيال والحقيقة ويستخدم الاساطير ، ويكون حراً ـ على أوسع مدىً ـ في انتقاء الحوادث او اختلافها ليصح له منها إطار موحّد . فهو قديم بحوادثه ، جديد بروحه . وجاء بعده « توفيق الحكيم » يخضع ذلك التاريخ لحواره المنمّق الفني ، فجمع أقوالاً ، ونظّمها ، وخلق لها اجواء مناسبة ، ولكن لم يكن لعمله أثر كبير ؛ لان الكاتب تقيد بالحوار المعقول ؛ فخانته

الآفاق المكتشفة كما فعل سواه . ويدخل هنا ما فعله الرافعي في قصصه الاسلامية . لكن الرجل كان لا يرى الا نفسه ، ولا يعيش الا مع اشخاص تخلقهم نفسه .

وإن مثّل هذا الاندفاع شيئاً فانه يمثل أخذ الفكر العربي بأسباب الحضارة الجديدة بعدما كان لا يعترف الا بماضيه . فهو الآن يحترم مثله الماضي ويعمل على إحيائه باسلوب جديد . وما كان منه وحوله ـ من منازعات ـ فقد دلت على يقظة أدبية ، وجادت بحركات عنيفة .

ولعلنا لا ننكر ـ على هامش هذه الحركة ـ الجهود المبذولة لاحياء الادب القديم بنصوصه إحياءً علمياً صحيحاً . وهي حركة بدأها المستشرقون ، ثم تناولها بعض ادبائنا بالرعاية . وكثير من هذه الكتب صحّحت مقاييس النظر الى الادب الصحيح وتمييزه عن الادب الزائف . كما ان ما سينشر منها نشراً علمياً سيبدل الدراسات الادبية المشوّهة . ففيها إحياء الرجال ، والبحث عن الذخائر المطمورة . ولكن لست أدري كيف اختلط الأمر عند بعض الذين انبروا لهذا العمل ؛ فراحوا يحيون ما ليس جديراً بالحياة ؛ مع ان الغاية الاساسية هي أن نستخلص اللآلىء التي غرقت في الطين ، لا الطين نفسه . ولذلك بت أخشى الاسترسال في هذه الناحية على غير هدى ، لانها تثنينا عن الحاضر ؛ عن مادة حياتنا نفسها ، عن الابداع نفسه . وطالما ردّدت بيني وبين نفسي : « عجيب أمر هذا الادب ، وأمر هؤلاء الادباء الذين يشتغلون بالأموات ، ولا يشتغلون بالأحياء ! »

ولعلنا لا ننسى التيار الفكري والادبي الذي انحدر علينا عنيفاً من الغرب ، تمثّل لنا تياره الخاص ، وادبه الخاص . ولعل هذا التيار يمثّل اعنف ما هزّ الفكر العربي والادب العربي في العصر الحاضر . والأدب العربي لم يعرف اتصالاً بلغ هذا المدى مع الادب العربي كهذا الاتصال . وقد سبق للفكر العربي ـ في العصر العباسي ـ ان اتصل بالثقافات الاجنبية ، وتفاعل معها . ولكن أدبه بقي منكمشاً على نفسه . ولا ندري فيه الخسران الذي جناه في هذا الانكماش ... ويبقى هنالك الفرق واضحاً في ان اهل العصر العباسي اتصلوا بثقافات هلك اصحابها . والآن نتصل بثقافات ، اهلها قائمون عليها . واتصالنا هذا

جاء بلغة الاقوام الاجنبية نفسها ، والقارئون للآداب الاجنبية باللغات الاجنبية كثيرون . وهم وحدهم يقدرون ما بلغه هذا الادب في التعبير الدقيق عن خلجات النفوس ، والحقائق النبيلة . وادباء هذا النوع يتأثرون بهـــذه الافكار التي يقرءونها ، فتتصل بافكارهم ، وتلتحم باسلوبهم . وهنالك اتصال آخر جاء ـ عن طريق الترجمة ـ ! وقد اشتدت حركة الترجمة الادبية في مطالع عصر النهضة ، ثم اشتدّت على ايدي أدباء أحسنوا التعريب ، وان اختلفوا في أمانة الاصل ! كالمنفلوطي والزيات الذي نقل « آلام فرتر » وكان نقله ـ يومذاك ـ عيد الشهداء عند الادباء . وفليكس فارس معرب الكتاب الجبار « هكذا قال زراداشت » . وغيرهم ممن أحسنوا ـ بهـــذا النقل ـ الى الأدب العربي الحديث . واكثر ما اعطى هـــذا الانتاج اكله في مجال النقد الموضوعي ، والقصة الطويلة والقصيرة ، والتمثيليات الفنية والواقعية . ولولا هذا الاتصال لما كان لنا اليوم مسرحيات توفيق الحكيم ، وأقاصيص محمود تيمور ، والنقد الذي خلص من قيود التقريظ الفارغ والتدجيل العقيم .

ولا يزال الانصباب على الترجمة على أشدّه . وفي اعتقادي ان الترجمة ضرورية للادب العربي ، لان المترجمين لم ينتهوا من نقل الآثار العالمية التي تفتخر بها الانسانية في كل عصر . ويجب ان نشجع هذه الحركة ... ولكن اكثر ما يبعث على الخوف ان تجاراً امتهنوا الادب ينقلون عن الآداب الغربية ـ الصالح ، وغير الصالح ـ لا يريدون وجه الادب ، ولا نفعه . ومثل هذا سيترك أثره السيّء في المطالعة والمطالعين .

هذا ولن ننسى ـ بهـــذه المناسبة ـ الدور الخطير الذي قامت به مجلات مختلفة نذرت نفسها للادب . ومن هذه المجلات مجلة « الميزان » لصاحبها المرحوم احمد شاكر الكرمي . صدرت في دمشق واسمها يدل على ما كان يريد صاحبها منها ، وهو نفس ما اراده اصحاب الديوان في مصر : من عرض للادب الصحيح ، وقضاء على مهرجي الادب ! ومجلة « الرسالة » واختها « الرواية » اللتان تركتا أثراً محموداً في الادب العربي . وقد مرّ يوم كانت « الرسالة » فيه سيدة الموقف

في آدابنا ، لانها كانت منبر كبار الكتاب . يلتقي فيها مترجم كتاب « النفس والرقص » طه حسين ، وصاحب مقالات وحي القلم الرافعي والعقاد والمازني واحمد امين والحكيم ... فهي ـ بحق ـ مدرسة جيل كامل ، والسفيرة المجتهدة بين الادب العربي والادب المنقول .

كما ان الامانة تقضي علينا بالتنويه بجهود مجـــلة عاشت طويلاً ، وثبتت ـ برغم قلة المساعد ـ وهي مجلة « الحديث » التي وقفت من الحركات الادبيـة الاضطهادية بمصر موقفاً مجيداً . وكانت رسولة لافكار الادباء المصريين في سوريا ، ممن نالهم اضطهاد المجتمع كطه حسين ... وفي اعداد سنواتها الاولى شاهد حق على هذا الجهاد الادبي الذي استجاب بامانة وحمية للحركات الادبية البعيدة . ولولا جلد صاحبها لأمسى حديثه قديماً مطوياً... وهنالك المجلات الكبرى القوية التي نشأت ولا تزال تقوم برسالتها كالاديب والكتاب ، او نشأت وزالت كمجلة الكاتب المصري والمكشوف .

أما عن الحركة الادبيـــة في سوريا فلا استطيع ان اجعل منها حركة مستقلة ، لانها كانت اكثر ما كانت تابعة للحركات الادبية الخارجية . وكثيرون من ادبائها في بـلاد بعيدة كأدباء المهجر . والذين هم فيها : فمنهم من شغلته الحركة الوطنية ، وفني أدبه فيها . ومنهم من لا يستطيع أن ينشر أدبه وطريقتـــه داخل بـــلاده لاعتبارات مادية فكان يستعير منابر المجلات المصرية التي أغرقت كثيراً بالادب السوري . وبرغم المحاولات المتعددة التي قام بها شيوخ الادب وفتيانه فانهم لم يوفقوا في خلق توجيه أدبي سوري . وليس معنى ذلك أن الادباء السوريين لم يساروا النهضة الادبية . فان منهم من تضافرت جهودهم مع أدباء الاقطار العربية ، وكانت لهم آفاقهم المستقلة الرحيبة .

هـــذه هي الخطوط الرئيسية التي استطعت ان أرسمها للحركات الادبية النثرية في عصرنا الحاضر . وهذا الحاضر اذا القينا عليه نظرة المتأمل رأيناه مشبعاً بكل عناصر الحياة والاضطراب . وقد آن لنا أن نلخص ما جاءنا به هذا الادب : عامتنا هذا الادب : أن ليس هنالك مدرسة أدبيـة ثابتة ، إذ لكل فرد

عالمه الخاص . واذا كان الفرد نفسه عرضة للتقلب المستمر ، فكيف يكون حال الجماعة ؟ فكل أديب انما يكتشف نفسه ، ويتبع الطريقة التي تألفها نفسه .

وعلمنا هذا الادب : أن النقد العلمي فاشل في تحليل الاديب كما تحلل الشجرة أو الساقية ، وأن النقد المستند الى المؤثرات والانفعالات الشخصية هو الذي انتصر .

وعلمنا هذا الادب : أن محاولة اخضاع الاذواق لشكل واحد من الحقيقة محاولة خائبة . « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » . أما الذي يبقى فهو حقائق مختلفة ، حيث كل حقيقة تدعو الى مذهبها بحرية وجرأة .

وأرانا هذا الادب : أنه حطم القيود التي كانت تحول بينه وبين المجتمع... فالاديب لم يعد يحيا حياة انطوائية. ولم يعد يكتفي بنفسه وعواطفه مادة لأدبه... وفي هذا المجال يعيش الادب القومي والادب الاجتماعي ... والى هذا العالم يخرج الاديب من عالمه المغلق ليلتقط من الحياة اليومية الف مشهد ، ويتحرى في هذا المشهد عن الغرائز والاهواء التي تمثل الرواية الانسانية : وما كانت الحياة الحقيقية يوماً بحياة صفوة مختارة من الناس قد تكون كاذبة مراثية . وانما الحياة في وصف حياة الاكثرية ، حياة الشعب الصادقة . والفن قد يكون في تصوير هذه الحياة . وأديبنا في كل يوم يرحل خطوة عن عالم نفسه ليختلط بهذه المجموعة من الناس .

ولكن ما ينتظر أدبنا في المستقبل لا يزال اعظم مما رأيناه ... فهل نال أدبنا من الناحية الاجتماعية ما يجب أن ينال ؟ وهل تحسس بالعاطفة الانسانية التي تجعله انسانياً ؟ وهل أدى واجبه من الناحية القومية كما يجب ان يؤدى ؟ وهل وجد شخصيته بعدما أضاعها في التيارات الادبية الاجنبية ؟

على أني لا اريد الاجابة على هذه الاسئلة ، ولا يهمني أمرها ان كان الجواب سلباً أو ايجاباً ... وانما كل ما يهمني أنني متفائل جداً في هذه الاضطرابات الفكرية والأدبية ، وأريد أن تبقى لانها علامة الحياة والانطلاق نحو أدب يرفع الانسان الى أعلى من الانسان ، ويستبدل هذا المجتمع بمجتمع أفضل منه ... ومتى اعتنق الادب مثل هذه الرسالة أصبح في طريق الكمال . وإن كان لا يزال على الطريق...

المحاضرة الثالثة

نحن في المعترك

غسان التويني

رئيس تحرير جريدة «النهار»

= القيت بتاريخ ١٤ آذار ١٩٥٢ =

نحن في المعترك !

وكيف لا نكون ، والعالم بأسره قد انقسم الى قوى متعاركة ، تحتم على الانسان ، وتفرض عليه فرضاً ، هذا الصراع الذي فيه تستميت من أجل السيطرة على العالم وعلى عقل الانسان ، ومن أجل بناء ما تسميه ، هذه القوى وتلك ، وما تظنه ، عالماً أفضل ، يعيش فيه انسان أفضل !

كيف لا نكون في المعترك ، وكل امة تجد نفسها في عراك مع نفسها، من أجل ان تختار لنفسها ، لا سياسةً ـ والسياسات عابرة ـ بل تخطيطاً لمستقبل أفضل ، في عصرٍ ، سرعة التطور فيه تصرع المخططين ، ولا يكاد الحاضر يوفر مجال التطلع الى المستقبل ، حتى يكون المستقبل قد صار حاضراً ، وليس من تأهب له بعد ...

ثم كيف لا نكون ، نحن ، في المعترك ، وهذه الارض التي عليها نعيش قد كانت ، وقد لا تزال ، بل وقد تظل ، ملتقى الجحافل، وساحة اصطراع الشرق مع الغرب ... يفاخر بعض اهلها ، فيما به يفاخرون ، بأنها كانت كذلك ، وأنها وصلت العوالم ببعضها ، ووفرت للحضارات مجال الالتقاء والمفاضلة والالتحام . .

كيف لا نكون ، نحن ، في المعترك ، وما أن تمزقت غشاوات الاجيال من أمام عيوننا ومن حول عقولنا ، حتى بدأت قوى العالم المتصارعة تشدّنا من هنا وهناك وهنالك ... ونحن نتطلع ، وتاريخنا حمل على اكتافنا ، وقلوبنا مثقلة باحلامنا ـ نتطلع حيارى الى هنا وهناك وهنالك ، ثم نتطلع الى الماضي لنستمد منه قوى الحياة ، والقدرة على ارادة الحياة الفضلى ، نتوسط به ، بمفاخره وبمثله وببقاياه ، لبناء الصرح الذي فيه تحيي أحلامنا !

نحن في المعترك !

ولكن هل يعارك الحاضر والمستقبل بالماضي ؟ وهل يقاتل الحي بالميت ؟ وهل تشاد حضارة جديدة من آثار الحضارات الغابرة ؟ وهل يعيد الحضارات من دفنوا طموحهم ، كل طموحهم ، في اكتفائهم بأنّ ابطالاً من امتهم كانوا أبطالاً ، وما تمنطقوا بغير التلذذ بذكرى الابطال ؟ .

هل تبنى الحياة الفضلى من فتات الحيوات المندثرة ، مهما كانت جميلة في حينها ، ومهما عظم اثرها ؟ وهل يحرر النـاس اناس رهنوا حريتهم ثمن لوحات رخامية على قبور ، وإن قبور الاحرار ؟

سيداتي سادتي ، من حقكم عليّ وموضوعنا الليلة هذا نطاق اتساعه ـ من حقكم عليّ أن نسعى هنا معاً لتحديد بعض التعابير والمفاهيم التي تتوارد في حديثنا ، لعل ذلك يساعدنا في تفهم ما نشير اليه من اوضاع ووقائع وحقائق .

وحسبنا أن نعرف ، قبل كل شيء ، ما هو هذا المعترك ، من يعارك فيه ، وماذا يعارك ، وكيف يعارك ، ومن أجل ماذا يعارك المعاركون ، ونحن منهم ... ثم أن نعرف نحن ، من نحن ؟

اما المعترك هـذا ، فهو التاريخ ، والتاريخ ليس سجل ما حدث ويحدث ، انما هو عراك بين مجموعات انسانية تحشد كل ما في وسعها من قدر حتى لا يحدث غير ما تريد هي أن يحدث ، وحتى لا تكون الاحداث سوى تجسيد الكمال الاقصى الذي تطمح اليه وحتى تعم العالم المثالية التي تحمل هي رسالتها ، فيطبع عقل الانسان في كل عصر ، بما تخلفه هي لتراث الانسان الحضري .

والتاريخ هو ، خلال ذلك ، صراع بين الامم حاملة رسالات الحضارة ، من اجل اقرار حقها بالحياة ، واحقاق مصالحها التي بدونها لا يكون لها وجود ذاتي . من اجل بناء هياكلها القومية التي منها تنطلق في رسالتها الى العالم .

والتاريخ هو ، من اجل ذلك ، مدىً حيوي للرجال الافذاذ ، الابطال الذين تحبل بهم بطون الامم المتأججة بارادة التفوق ، العالقة الذين يطلون من الماضي على المستقبل ، فتبصر الامة باعينهم النور الذي يبصرون ، وبوشائج الايمان يشدون بني قومهم في طريق الرسالة التي عليها يسيرون ، من اجل ان يكون لهم ما يجب ان يكون !

واما نحن ، فأمة ابتليت بجهلها لذاتها ، ولو عرفت قبل اليوم من كانت ، ومن هي ، لكان لها قبل اليوم ، المجد الذي بدأت تبني .

ومن يدري ، فقد يكون منطق التاريخ ، في ظلمه ، قد اراد لنا ان ننام تحت ركام الماضي ، وفي في الاستعمار ، هذه الاجيال الطويلة ، فلا نتململ الا والعالم في زحمة الرسالات الكونية ، وقد ضاق بمن عليه ، وضاق الوقت به والانسان قد اكتشف آلة الافناء التي يستحيل معها الاطمئنان الى غدٍ قد تطلع فيه الشمس فلا تجد عيناً تنظر نورها ؟

أزحمة اخصامٍ كلها ، هذه القوى التي تتجاذبنا وهي تتقاسم العالم ، وبوحي اي ايمانٍ نعارك اذا نحن عرفنا من نحن ، ودخلنا هذا المعترك ؟

سيداتي سادتي ، يتميز وجه العالم اليوم بظاهرتين اساسيتين . اما الظاهرة الاولى فهي انقسامه ـ اذا جاز لنا اعتبار الاتفاقات السياسية والقربى العقائدية مقياساً ـ الى معسكرين اثنين : المعسكر الشيوعي السوفياتي القائم على ركنين لعلهما يؤلفان اكبر مجموعتين بشريتين : روسيا والصين ، يدور في فلكهما عدد من الدول المتشيّعة التي تشدها صلة مباشرة الى الادارة الشيوعية العالمية المركزية . ثم معسكر الديموقراطيات القومية : ويضم اميركا المتطـــرفة في

وأسماليتها ، وبريطانيا العظمى التي كانت قد بدأت تميل الى الاشتراكية ، تدور في فلكهما او تتعاون واياهما ، الدول المرتبطة بهما او باحداهما ، قومياً او استعمارياً او اقتصادياً .

واما الظاهرة الثانيـــة ، فهي ان العالم هو العالم ، والمرة الاولى منذ ان صار للعالم تاريخ ، عالم واحد من حيث تحسّر الجزء بالكل ومعرفته به ، وان مفهوم الكون والكونية اصبح ، بفضل التطور المادي ، حقيقة ملموسة ، وأضحت النزعة الكونية ذات حظ بان تحقق نفسها ، بعد ان كانت الكونيـــة مفهوماً نسبياً ، وكان الطموح الى نظام كوني حلماً تحد مجالاته حدودٌ للعالم ليست هي حدود . ويكرس هذه « الكونية » في ايامنا ، تنظيم دولي يشمل الكون باجمعه كما تكرسها محاولات تطمح فعلاً الى تأمين سيطرة كونية حقيقية ، مداها المجموعة الانسانية بكاملها .

وانقسام العالم الى حركات تطمح الى السيطرة الكونية ليس بالظاهرة الجديدة ، فقد كان العالم دائماً مسرح انقسامات كهذه الانقسامات ، ولا يتغير مع التاريخ سوى نطاق الانقسام وموضوع صراع القوى المقتسمة العالم ، والجوهر او العقيدة التي يقوم من اجلها هـــذا الصراع . بقي ان نتساءل مع المتسائلين القلقين على مصيرهم المريدين السلم الدائم ، عما إذا كان الصراع من اجل الاستئثار بتقرير مصير الانسان ، سيكون حتماً صراعاً حربياً ، ام ان السيطرة الكونية يمكن ان تتم ، كما يمكن حسم النزاع العقائدي الذي يتبطن به السعي اليها ، دون اللجوء الى الحرب ؟

والواقع ان ليس في التاريخ مثال واحد لحرب نشبت لمجرد الحرب وحباً بها ، حتى ولا بين القبائل الهمجية . فثمة غاية سامية يرفق بها كل محتل احتلاله ويبرر بها كل حرب ، ألا وهي إحقاق حق او نشر حقيقة . فالحرب تبـــدو لنا في تشعّب العوامل الدافعة اليها ، اقتصادية وسياسية واجتماعية ، بل واستراتيجية ، انها يبدو لنا ظاهرةً حضرية ، بمعنى الحضارة ، او الثقافة ، الشامل لجميع نواحي النشاط الانساني . إنْ هي الا نتيجة تضخم القوة الحضرية في مجتمع معين ، وبلوغ

هذه القوة في جوهرها العقائدي الثقافي ومتطلباتها الاقتصادية والاجتماعيـــة والسياسية ، حدّ اضطرار المجتمع هذا الى التوسع ، وهي تحصل عند اصطدام القوى المتوسعة بقوة المجتمع الذي تتوسع على حسابه ، اذا كانت لا تزال تتوفر في هذا المجتمع مقومات الحياة والحضارة ، مقومات الاستمرار التاريخي . وفي منطق تطور الحضارات أن كل واحدة منها تهدف ، ايماناً منها بحقيقتها وتفوقها ، لان تعم الكون ، أو ما هو معروف عنه ، فالامة التي تحتل ارض امـة اخرى ، وتستعمر شعبها ، انما تعتقد انها ، اذا احتلت واستعمرت ، فليس لمصلحتها هي وحدها ، بل لمصلحة الارض التي تحتل والشعب الذي تستعمر . من هنـا ان المناعة الوحيـدة القمينـة بدفع الاستعمار هي الرقي ، هي الحيوية الحضرية ، هي توفر وسائل استثمار الموارد والدفاع عنهـــا ، وتوفر الايمان بضرورة الدفاع ، وهي ، فوق ذلك توفر الوعي المجتمعي الخلاق الذي يدفع بالامة قدماً ، والذي منه تتغذى عقول بناة الامة وبه تتقوى سواعدهم .

ومن هنا كذلك ، أنّ كل حرب تهدف في النهـاية الى اقرار السلم ... لا حالة السلم السلبية التي هي مجرد انعدام النزاع ، او انتظـــار النزاع أو التحفز له ـ وقد لا تكون ، ثمة فريسة اسوغ للاستعمار من الامم التي تقنع بهـــذه الحالة السلبية حياة لها ومطمحاً ـ انما السلم الحقيقي ، الذي هو يناع الحضـارة التي من اجلها كان النزاع ، ومن اجلها كان الطموح الى السلم .

فهل هذا السلم ممكن ، وما هو ثمنه ، اذا كان لا بد من الحرب ، باردة او ساخنة ، سبيلاً له ؟ أم أن العالم الواحد قد يتمكن من تحقيق اعجوبة التـاريخ : سلم يتمرد على الوحدانية ، مفسحاً لأكثر من حضارة واحدة في مجال التعايش ، تنمو كل واحدة في نطاقها ، ولا ترجو من الاخرى ان تنسجم معها في اكثر من التسليم بامكان وجود الاختلاف والتنوع .

سيداتي سادتي ، لو كان هذا الموضوع بالذات موضوع حديثنا الليلة لتوقفنا كثيراً عند هذه الامكانية ، ولتساءلنا الى أي حد يمكننا ان نأمل ، واقعيـــاً ، استمرار تعايش النظامين ، بل الحضارتين ، اللتين تتقاسمان العالم ـ والنظامان من

طبيعتهما أنهما تياران حيـان متطوران متوسعان ، يسعى واحدهما الى ثورة عالميـة تحقق سعادة الانسان عند انتهائها الى ما يسميه كارل ماركس تلاشي الدولة بزوال الوضع الطبقي الذي يبرر وجودها ـ زوال هذا الوضع من العـالم بأسره ، طبعاً ـ بينما يسعى النظام الآخر الى ما يعتبره ضمان الحريات عن طريق انتظام الدول القومية السيدة المحبة للسلام في منظمة تحترم حق كل امة في تقرير مصيرها ، وتحول بالتالي دون اعتداء أية امة على الاخرى لاغتصاب هذا الحق ...

وكنا نشير الى مفارقات تعايش النظامين أو التيـارين : وجود الاتحـاد السوفياتي وسائر الدول المتشيعة في صميم منظمة أممية مؤسسة على مبادىء ؛ يعتبرها التراث الشيوعي برجوازية بالية محكوم عليها بالزوال وواجب زوالهـا ، ثم ، على صعيد آخر ، وجود احزاب شيوعيـة في داخل الدول الديمقراطية القوميـة البرجوازية ، تفيد من تركيب هذه الدول لنشر ايمانها الصريح بضرورة قلب هذه الدول ، لكي تسعد شعوبها ويسلم العالم !

ولكنا اخيراً دخلنا في تحليل ما يعود اليه هذا النظام وذاك من جذور ، وما ينطلق منه هذا التيار وذاك من اصول ، ثم ما يختلفان عليه وما يمكن أن يلتقيا عنده ... غير أني لا إخال أحداً بيننا الا ويعرف عن هذه المسائل ما يكفينا لمعالجة ما نعالج الليلة . وحسبنا ، من ذلك ، أن نوضح كيف أنّ النظامـين أو التيارين ينبثقان من ثورة العقل ، التي بها كان العصر الحديث ، وبالتالي من الثورة على العقل التي أنجبتها ثورة العقل من ذاتها... مأساة العقل هي ، هاتان الثورتان... واذا كانت القرون الوسطى عصر الله ومجده على الارض ، فان القرون التي انقضت بين انهيار عمارة الحضارة المتوسطية وقيام عالم القرن العشرين يملؤها سعي العقل لبناء حضارة انسانية منطقية ، لها من نفسها مقومات البقاء والتقـدم ، ولا تعتمد حافزاً للاستمرار أية قوى أو عوامل لا انسانية ، لا طبيعية ، من شأنها ان تقلل ثقة الانسان بذاته أو أن تفسد عليه قدرته المطلقة على ذاته والطبيعة . وقـد اجتاز العقل ، في سعيه هذا ، مراحل مرت به من فرحته لاكتشاف قدرته ، الى جهده للتحرر من التراث وإن عقلياً ، الى ثورته على كل يقين موروث وجنونه على كل ما

لم يبنه العقل المجرد المتحرر ـ حتى انتهت به ، وقد شك ونقد وقيّم ما حققه وما في وسعه تحقيقه ، الى التفتيش عن أسس جديدة لليقين العقلي الجديد . والمأساة في أنّ العقل ، وقد تمرد على كل ما هو غيبي لا انساني ، لا طبيعي ، وجد نفسه والايمانات الجديدة التي لا تتجوهر بغير العقل : تتجوهر بالمادة أو المنفعة ، قيمة مطلقة ، يدركها العقل ، ولكنها مستقلة الوجود ؛ أو تتجوهر بالطبائع الانسانية ، بالقلب والنفس ، عناصر انسانية تتحكم بالعقل ولا تخضع لسننه ومفاهيمه. وتكتمل المأساة في أنّ العقل نفسه ، وقد أنجبت ثورته على الايمان هذه الايمانات اللاعقلية التي تتجاذبه اليوم ـ أنّ العقل نفسه يبرر شرعية القوة في تقرير مصير الكيانات الايمانية ، وبالتالي تقرير مصير الايمان نفسه ومصير العقل ! ومن أجل تقرير هذا المصير ، العالم اليوم في انقسامه وعراكه ...

قد يقال أنّ هذا التحليل ليس سوى فلسفة لوقائع لا يحتاج فهمها الى كل هذا التفلسف ، وأنّ العالم اليوم منقسم الى شرق وغرب يتسابقان بغية جعل العالم كله شرقاً أو كله غرباً... والحقيقة ان العالم كان دائماً ينقسم الى «شرق» و «غرب» يتسابقان ويتنافسان ... وكان « الغرب » دائماً تمثله القوى البحرية ، والشرق تمثله القوى البرية ؛ مثال تنافس الشرق والغرب في العالم القديم ، في حروب الفرس ، الدولة البرية ، مع الاغريق ، الدولة البحرية . ألم يحلم اباطرة فارس بنشر ملكهم على الكون وبتوحيد شعوب العالم كله في ظل تاجهم ؟ والذي يلاحظ تاريخ النزاعات الكونية يرى ان القوى البحرية كانت دائماً تمثل الانفتاح والترقي والتحرر والعقل ، والخطيئة باسم التحرر والعقل احياناً ، وذلك بفضل وضعها والعوامل الاقتصادية الملازمة لوجودها ، بينما كانت القوى البرية تمثل النزعة المحافظة وثقل التقاليد والرجعية احياناً ، واحياناً السلطة المطلقة المركزة على ايمان الشرق بالغيبيات الى حد السحر ! ويلاحظ من دراسة التاريخ كذلك ان البحر السوري او ما يسمى البحر المتوسط او بحر الروم ، الذي عرف ببحيرة الحضارة في العالم القديم ، كان حوض النزاع بين الشرق والغرب لنشوء القوى الغربية على ضفافه وبنائها مدائنها ومدنياتها من حوله . وكأني بنقطة الثقل قد انتقلت اليوم الى

المحيط الاطلسي ، هذا « البحر المتوسط » الحديث الضخم بنسبة تضخم القوى البحرية وتوسع افق العالم المعروف ...

وبمقدار ما تؤثر البيئة والموقع الجغرافي على طبائع الامم ، وبالتالي على ما تدين به وما تبشّر تختلف حضارة الغرب عن حضارة الشرق ، وتختلف عقائد الشرق عن عقائد الغرب ، على ان هذا الاختلاف لا يُبطل وحدة الانسان والحضارة الانسانية الجامعة للشرق والغرب . فليس هنالك شرقٌ وغرب لا يلتقيان ، بل شرق يتفاعل مع الغرب ، وغرب يستمد من الشرق ، في التقاء مستمر ...

سيداتي سادتي ، ويشاء بعض كبار المفكرين من اهل بلادنا ان يجعل من هذا الالتقاء في ارضنا اقصى ما نطمع اليه وجلّ ما نفاخر به ... يعتزون بأننا الجسر الذي عبر عليه الشرق الى الغرب والغرب الى الشرق ، ويرتاحون لأن ما يعتبرونه تراثنا القومي هو بقايا جحافل الشرق والغرب في كرّها وفرها على شواطئنا وبين جبالنا وفي سهولنا ؟

وقد ذهب مفكر لبناني كبير له علينا فضل في المعرفة الى حد اعتبار مبرر وجود لبنان أنه « ليس البوتقة التي سيصهر فيها الشرق والغرب فيخرج من هذا الصهر مركّب جديد فوق الشرق والغرب » بل « لقيا الشرق والغرب باعمق واقدس ما فيهما على قدم المساواة في الحرية والكرامة .

قد يكون هذا المفكر على حق ، من حيث مركز هذه البلاد الجغرافي التاريخي . ولكن موقفه ، اذا أخذ على إطلاقه ، يساوي انتحاراً حضارياً لانه تنازل عن كل خلق وكل مساهمة فذة ، وبالتالي عن كل شخصية للامة تتميز بها وبها تطبع تاريخها . وليس ما يمنع التقاء الشرق والغرب عندنا ، متى نكون نحن لا مجرّد « صعيد » يلتقيان عليه ، بل كياناً حضارياً ننظر من ضمنه الى الشرق والى الغرب ، ونقتبس ، في نطاقه ، من الشرق ومن الغرب ما يأتلف مع نفسيتنا الاصيلة وما يقبله عقلنا وما يجاوب احتياجاتنا ، ومتى يكون همنا ، لا مجرد توفير

مجال الاجتماع للشرق والغرب ، من اجل الشرق او من اجل الغـــرب ، بل الافادة في بناء نفسنا وانماء كياننا ، واذا ما اخترنا رأي هذا المفكر الكبير لنتوقف عنده في هذا الحديث ، فليس لأن رأيه شاذ يتفرد هو فيه ، انما لعظمة الاحترام الذي اكنّه ، ويكنه كثيرون سواي ، لعقله وجهوده وفضله ، ولانه ، في موقفه ، يمثل ، على الصعيد الفلسفي ، اكمل تمثيل ، وضعاً عاماً قد لا يعي كل الناس اسسه الفلسفية . وهذا الوضع العام يتجلى ، على مرتبة دون الفلسفة ، في علاقاتنا السياسية الخارجية مع العالم . وقد شئنا ، او ارتضينا ، ان نكون مجرد موضوع علاقات دول العالم الكبرى ببعضها ، شرقاً وغرباً ، ومسرح تنافسها ، بدلاً من ان نكون نحن عنصراً فاعلاً فعالاً ، له علاقاته الخاصة مع دول العالم ، مع الشرق او الغرب ، على اساس مصالحه وبوحي اهدافه .

علاقاتنا بالغرب وبالشرق هي علاقات الغرب بالشرق فيما يتعلق بنا وبتقرير مصيرنا ؛ فنحن بالنسبة لهذا وذاك ارض وموارد ومواني ، لسنا شعباً ، ولا دولةً ، وليس لنا ، وبالتالي ان نقرر وان نختار وان نسار ! وقد شئنا ، او ارتضينا ، ان نكون كذلك : موضوع ارادات ، لا ارادةً فاعلة !

ولست اغالي اذا قلت ان السبب في أننا ما سجلنا بعدُ ، منذ ان استفقنا على العالم من جديد ، سوى الهزائم او « الانتصارات السلبية » ـ السبب هو هذا التنازل عن ذاتنا وارادتنا ، هو جهلنا لذاتنا ولا مبالاتنا بمعرفة من نكون ، نحن ، ولماذا نكون ، ومن اجل ماذا نكون ... هو استسلامنا لحتمية هذه الارض الموهومة ، التي اذا جعلتها الجغرافية جسراً ، فانها لم تفرض على سكانها ولا يسعها ان تفرض عليهم ان يطأطئوا ظهورهم ويهللوا ويكبروا لكل من يريد اجتياز الجسر !

سيداتي سادتي ، معاذ الله ان نبخس ، نحن ابناء الجيل الجديد الطالع . الجيل الذي سبقنا الى الجهاد ، حقاً . فنحن نعرف ما لهم ، بقـــدر ما نعرف ما عليهم ، واكثر ... ولهم علينا ، قبل كل شيء ، حقّ احترام ثورتهم ، ولم يعلمهم اسلافهم الثورة . واذا كانت ظهور ابناء هذه الامة ما تزال ، اكثرها ،

مطأطأة ، فليس لان الجيل الحاكم لم يرد تقويمها ، بل لانه لم يعرف كيف يقومها ، ولعله لم يعرف ان بوسعه تقويمها . وقد ثار هذا الجيل ، وعرف كيف يفيد من الظروف الدولية الى حـــد لا يستهان به ، فحقق لنا الاستقلال ، ولو قانونياً ، وبنى لنا دولاً سيدة على نفسها ، حرة ولو نظرياً في تقرير مصيرها .

ولكن الجيل الحاكم فشل في حكم هـذه الدول المستقلة ، وفي قيادتها نحو خيرها وتوفير ما يضمن استقلالها وما يؤمن لها ، في حلبة التاريخ المكانة المؤهلة لها . من هنا اننا نعيش اليوم واوضاع الحكم عندنا قلقة متوترة مضطربة ، بين الشعب والحاكمين هوة سحيقة ، وفي الشعب نفسية ثورية تزداد كل يوم احتقاناً . ومن هنا هذا النزاع بين الجيل الحاكم والجيل الطالع الجديد ، فكأننا بالجيل الحاكم ، وقد ادى رسالته ، يريد ، ساعـــة احتضاره ، ألا يموت إلا منتحراً ، مختنقاً ، وان ينحر معه هذا الكائن الحي الذي منه ولد : الجيل الطالع العامر صدره بالطموح ، التواق الى ممارسة كل حق له ، المصمم على انتزاع زمام التطور والفعالية انتزاعاً ، وإن كان الثمن انتزاع الحياة من صدر الحاكمين ! والتحليل المنطقي الواقعي يقودنا الى اسباب رئيسية ثلاثة جعلت اوضاعنا اليوم اوضاعاً قلقة ، وكياننا مترجرج البنيان ، وسيادتنا واهية الاسس ، بحيث بات النزاع بين الجيلين واجباً تاريخياً .

اما السبب الاول ، فهو ان اكثر الذين ثاروا باسم القومية ومن اجل تحقيق سيادة الامة من نفسها ، لم يعرفوا بالضبط ماهية الامة ، ولا هم ادركوا حدود امتهم وشخصيتها . فقد كانت الامة في جهادهم مثالاً اكثر منها واقعاً . وخيالاً اكثر منها حقيقة ، وقد فات هذا الجيل ان السيادة القوميـة ليست ان لا يحكم الامة مستعمر ، بل ان تحكم بوحي تراثها وأن يستمد حاكموها سياستهم من شخصيتها ، وان يسخّروا الحكم من أجل بلورة هذه الشخصية وجوهرتها بالمثل الحية . بحيث تقدر الامة ان تتحصن بالطاقة لدفع استعمار سلاحه تفوّق المستعمر في مضمار الحضارة وما يتفرّع منها ، وقدرة على استثمار مرافق الامـة المتأخرة ، ونحن جسم الامة غير الملتحمة ، غير الواعية معالم شخصيتها .

واما السبب الثاني ، فهو أن الذين ثاروا وحقّقوا الاستقلال و « السيادة القومية » وأقاموا « الحكم الوطني » انما ثاروا باسم الشعب ومن أجل الشعب ، وقادوا الشعب في ثورتهم ، ولكنهم لم ينبثقوا من الشعب ، ولم يستمدوا منه مثاليتهم ، ولا كان جهادهم يتغذى بآماله ويتقدم بنبضات الامة ... كانوا ينوون انتزاع الحكم من المستعمر ، فلما وجدوا أنفسهم في الحكم باسم الوطن والحق القومي ، وجدوا ان الشعب الذي فرح لانتصارهم وهلّل ، لا يرتاح الى حكمهم ، ولا يرى نفسه حاكماً نفسه من خلالهم . فاضطروا ، تغطية ، وتبريراً ، لاسترضاء الجماهير وتعزيز الشارع على الشعب يطمئن اليهم ويثق بهم ويساندهم ولا يضيّع عليهم ، وعلى نفسه الحكم الوطني والسيادة القومية .

وأما السبب الثالث ، فهو ان الجيل الحاكم ثار للتحرر من المستعمرين ، ولكنه لم يعرف من أجل ماذا يريد التحرر . أي انه كان سلبياً في تحرريته ، يعتبر الاستقلال غاية بحد ذاته وقد فاته ان الاستقلال ، وبالتالي الحكم المستقل ، ليس سوى وسيلة لتحقيق ما هو أسمى من الاستقلال وأهم من الحكم : لتحقيق التقدم والرقي ، ولانماء الثقافة القومية خيراً وحقاً وجمالاً .

فات الجيل الحاكم أنّ وصوله الى الحكم ليس كل ما كان يطمح اليه الشعب عندما ثار وراءه ، وان اعتزاز الشعب بان الذين يحكمونه من جنسه ، ومن لحمه ودمه ، يبطل ولا يبقى اعتزازاً عندما لا يلمس الشعب ان بين هذا الحكم وذاك ، بين الحكم الوطني وحكم المستعمر ، فرقاً في غير الاسم والشكل . فالاستقلال الحقيقي أن تشعر الامة بأنها تحكم بارادتها ـ وارادة الامة ليست ارادة الافراد ولا هي ملك الحاكمين ، تتجلى في رغباتهم ومطامحهم وسيادتهم ، إن هي الا شعور كل فرد من افراد الشعب بأنه ، وهو يطيع الشرائع ، لا يطيع غير نفسه ، وأن ما يبغيه من الحياة لا يتحقق من غير طريق الحكم الذي به يساس ؛ ومن ثم شعور الشعب ، كمجموعة ، شعور الامة ، بان هذا الحكم هو ما كان يسوقها اليه تاريخها ، وأنه اداة قيادتها الى تحقيق رسالتها وجوهرة كيانها بمجد جديد .

سيداتي سادتي ، كأننا بالجيل الحاكم لهذه الاسباب الثلاثة ، يتخبط في فراغ الحكم الذي أشاد ، ومن حول هذا الفراغ ارادة الشعب ، الارادة القومية الحية ، ارادة الجيل الجديد ، تريد أن تنفذ الى الحكم لتقول المتربعين فيه أنهم يفسدون على انفسهم الرسالة التي من أجلها ثاروا وبها عملوا عبر سني الجهاد الطوال.

ولكن ، من هو هذا الجيل الجديد ، وبماذا يختلف عن الجيل الحاكم ؟ ما هي أسس الايمان التي عليها يبني نقده للجيل الحاكم ومنها ينطلق في رسالته ؟ ثم ما هي هذه الرسالة ؟

رجال الجيل الجديد هم هؤلاء الذين أفادوا من اختبار الجيل الحاكم فقدّروا ما حققه وأدركوا أسباب عجزه عن تحقيق ما لم يحقق . وسواء عندنا ان يكون هؤلاء من الذين يتساوون بالسن مع قادة الجيل الحاكم أو يكونوا دونهم سناً ، فالسن لا تمنع بعض الشباب من ان يكونوا حلفاء الجيل الحاكم في ذهنيتهم ونفسيتهم ، وفي فهمهم أو قلة فهمهم ، للمصلحة القومية العليا . ونعني ، فوق ذلك، بافادة الجيل الجديد من اختبار الحاكم المحتضر ، أن تكون الافادة لا نظرية بل عملية فعالة ، اي أن هؤلاء الذين نسميهم الجيل الجديد هم الذين يستحيل وعيهم نشاطاً وادراكهم إصلاحاً .

خير تصنيف لايمانهم إذن هو أن نحلل موقفهم بالنسبة للاسباب التي رددنا اليها تقصير الجيل الحاكم .

فلئن يكن الجيل الحاكم قد قصر في ثورة قوميـــة لم تتأسس على مفهوم للامة صريح ، ولم تستوح جهادها من معالم شخصية أو شخصيات قومية معينة ، فان الجيل الجديد يعالج أول ما يعالج قضية الامة معالجة عالمية ، فيبدأ بتعيين حدودهـا ونطاقها ، وبتوضيح معالم شخصيتها في التاريخ ، هـذه الشخصية المتجليـة في تراث حي لكل امة ، وفي مؤسسات وتقاليد وآداب شعبية تعبر عن روح الامـة وتتجلى فيها ارادتها . والجيل الجديد يستوحي هذه الارادة في جهاده ومن التراث القومي يستمد مثاليته ، وفي سبيل بلورة شخصية الامة وانماء كيانها وتحقيق مصلحتهـا العليا يريد الحكم ، آلة الارادة القومية ووسيلتها في الحياة .

ثم أن الجيل الجديد ، وقد وعى شخصيته القومية ، لا يجاهد باسم الشعب ، بل هو الشعب الذي يجاهد ، جيلاً جديداً ومدرسة في الجهاد جديدة . فالطبقة الحاكمة هي مجموعة افراد أهّلتهم مزاياهم وظروفهم الخاصة للقيادة السياسية فناضلوا وجاهدوا باسم الامة والشعب ، وقادوا الشعب في نضالهم وجهادهم ، ولكنهم لم يكونوا مرتبطين بوشائج المسؤلية ، ولا شدتهم اليه وشدته اليهم شراكة في الحياة وفي المثل . لقد كانوا ، أشبه ما يكونون ، بشركة سياسية مغفلة منعزلة ، قد تصيب في الرأي والعمل وقد تضل ، لا يردعها رادع خارج عنها ولا يملي عليها تصرفها غير حدسها وتقديرها . اما الجيل الجديد ، فانه يؤمن بالجهاز الشعبي اداة جهاد وبوثقة الاماني الشعبية ، تتجسد فيه الارادة القومية عقيدة ومنهجاً ، وتنتظم فيه القوى الشعبية الواعية ، جنوداً وقواداً . وبديهي أن يستغني قواد الجيل الجديد عن الشارع وعن الغوغائية التي يصبغ بها الشارع كل سياسة تقوم على مسايرته . فالجيل الجديد ، في ايمانه ، لا يحتاج الى استرضاء الجماهير لانه منبثق منها ، يعمل على اقرار السيادة القومية سيادةً شعبية : شعبية في منشأ القيادة ومعدنها ، ومن ثمّ في منشأ الحكم ومعدنه ، وشعبية في مثاليتها وما ترمي الى تحقيقه . فالشعب يطمئن لا الى الحاكم الذي يسترضيه او يسترضي الجماهيريين منه ، بل الى الحاكم الذي يريد له الرقي والرغد . والجيل الجديد يرى ان في تحقيق العدالة الاجتماعية بتوزيع الثروة على اساس الانتاج السبيل الوحيد للحكم الشعبي الصحيح .

يسوقنا ذلك الى النقطة الثالثة والاخيرة التي يفترق عندها الجيل الجديد عن الجيل الحاكم ، ألا وهي فلسفة الحكم . فالجيل الحاكم ، كما قلنا ، قصد من جهاده تحريرنا من سيادة المستعمر ، فلما وصل الحكم وحقق الاستقلال ، ظنّ انه بلغ الهدف ، وان الحكم الوطني غاية بحد ذاته ، فلم يطل به الأمد حتى فسدت بيده آلة الحكم لجهله ما يصنع بها ، ولعدم توفر فلسفة للدولة لديه يحكم بموجبها ، ومن أجل الايمان الذي تنبثق منه يسخّر الحكم وسيلة . اما الجيل الجديد فانه ايجابيٌ في ارادته ، ايجابي في تفكيره ، ايجابي في عمله . لقد خطا التاريخ بالجيل الجديد ، وليس هو الجيل الجديد الذي خطا بنفسه ، الى ما بعد السلبية المجردة : الى ما بعد ارادة التحرر من المستعمر حاكماً ، والى ما بعد فهم الحكم حكماً

وطنياً وحسب ، والى ما بعد العمل من اجل مجرد الوصول الى الحكم وممارسته . الجيل الجديد يريد من الحكم غاية تتعداه ، ويفهم الحكم وسيلة لتنظيم المجتمع والتقـــدم بالانسان ، ويعمل ، في الحكم ، لا من اجل الحفاظ على الحكم ولو وهمياً ، بل من اجل جعل الحكم الوطني واجب الوجود ، في نظر الشعب اولاً ، وبالنسبة الى النظام الدولي ذاته ثانياً ، بحيث لا تقـــوى المصالح الاستعمارية على تقويضه .

هذه هي الظواهر الثلاث التي بها يتميز الجيل الجديد ، وعندها يفترق عن الجيل الحاكم . واذا قيل ان هذه الظواهر ، بمجموعها ، لا تكوّن قضية ، ولا يصح اعتبارها رسالة ، كان جوابنا أنها ، على صعيد النزاع بين الجيلين ، هي الحد الفاصل بين السلبية والايجابية ، وأنها ، بالتالي ، المرحلة الاولى التي لا بدّ منها من اجل تأمين انتقال السياسة والحياة العامة عندنا من الطور السلبي الذي كان طريقاً لغاية اولية تحققت ، الى الطور الايجابي الذي تتطلبه هـــذه الغاية ، مجالاً لنموها واستحالتها ما هو بعدها وما هي طريق اليه . فالغاية الاولية هذه هي الاستقلال ، على ان الاستقلال في عرفنا ليس كياناً له وجود ايجابي ، إن هو إلا حالة سلبية بحد ذاتها ، والجوهر الذي يجعل لها قيمتها الايجابية هو الحرية ، متى فهمنا الحرية على حقيقتها : بناءاً لشخصية الجماعـــة ، ومدىً حيوياً لتحقيق امكانيات الافراد .

بقي ان نتساءل ، ما هي هذه الحرية ومن الذي يحققها ، وكيف تحقق !

ان تحقيق هذه الحرية ، وبالتالي بناء صرح حضارة هذه الامـــة ، ليس عمليـــة اصطناعية تجري بالتجربة والاختبار ، ولا هي مسألة سياسة واشخاص . هذه الحرية ، سيحققها الذين ينتصرون في صراع الجماعات العقائدية التي بدأت ، خلال صراعها على الحكم ، تطمح لان تحمّل هذه الامة رسالة ما تؤمن هي به ، وما تريده اساساً للحكم ومبرراً لوجوده ومثالاً يهتدى به .

وعندنا ان المنتصر حتماً في هذا الصراع هي تلك الجماعة التي تنسجم عقيدتها مع منطق تاريخنا وتنبثق من واقعه ، فتوفر الاسس الفضلى لمعالجة المشاكل

التي خلفها لنا الجيل المحتضر ، وتتوفر فيها مقومات البقاء ، وطاقة خلق تراث حي تستقي منه الامـــة ، جيلاً بعد جيل ، ومنه تستمد غذاءها وعليه تبني ، فلا تشعر ، كما شعر الجيل الذي سبقنا ونشعر نحن بواجب الثورة على ما قبل ، وسيلة لا وسيلة سواها للتقدم ، وطريقاً لا طريق سواه للحياة .

سيداتي سادتي

في هذا المعترك نحن ... وأراني في موقف حكيم الاغريق سقراط عندما دعا الى معرفة تبدأ ، لكي تستقيم ، بمعرفة الذات : من أنا ، من نحن ؟

في زحمـــة العقائد التي تتجاذبنا ساعية للسيطرة على العالم وتقرير مصير الانسان ، لن يكون لنا نصيب في تقرير مصيرنا اذا لم نعرف من نحن وماذا نريد ، واذا لم نستمد من وعينا لشخصيتنا القومية ، ومن تراث امتنا ، ارادة الحياة ومقومات العراك . عندئذ ، وعندئذ فقط ، يكون لنا الماضي وأمجاده ذخراً لبناء المستقبل ، لا وزراً يثقل حمله على طريق الحياة الطويلة .

ولنا من تراثنا الحي ، ومن نفسية امتنا المتجلية في هذا التراث ، مقياس معرفة موقعنا في الصراع العالمي . ولنا من الدولة القومية الفضلى التي نريد ان نقيمها لهذه الامة ، هيكلاً منوراً بالمثل ، مجال تحضرنا ونقطة انطلاقنا في رسالتنا. ولنا من هذه الدولة وحدها الحصن المنيع الذي لا تقدر حتمية الارض على تقويضه، ولا يقوى الشرق ولا الغرب على اجتيازه جسراً من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق ، بل هو الذي يقرر على ضوء مصالحه ، وبوحي تركيبه وقوته ، ان يقف مع الشرق أو مع الغرب .

واذا لم يكن لنا ان نقيم السلم في العـــالم بنشر حضارتنا على الكون ، فسيكون ولا ريب ، في سلم يفسح مجال التنوع للحضارات القوية، موضعاً لحضارتنا اذا توفرت فيها القيم التي تضمن لها الصمود في صراع الحضارات ... ثم ماذا يمنع ان نحمل ، نحن ، رسالة حضارتنا الى العالم ، وقد سبق لهذه الامة ان حضّرت العالم المعروف ؟

نحن في المعترك من أجل أنفسنا ، ومن أجل الانسان الذي نبني له مجداً في بلادنا ... والمعترك هذا ، يبدأ في نفس كل فرد منا ، في عراكه مع نفسه ليتفوق على نفسه من أجل ان تكون الامة، أن نكون، نحن، أنفسنا، ثم أن نكون أفضل ما نحن ، وأفضل ما يمكن ان نكون ...

المحاضرة الرابعة

العلم يسير بخطوات المارد

وجيه السمان
عميد كلية الهندسة سابقاً

= القيت بتاريخ ٢٨ آذار ١٩٥٢ =

لم يعد حديث العلم ، كما كان في السابق ، مقصوراً على خاصة قليلة من العلماء ، اذا خاضوا في محاوراتهم لا يستطيع السامع الذي اوتي من العلم نصيباً قليلاً ، ان يفهم من محاوراتهم كثيراً ولا قليلاً . بل صار حديث العلم يدور ، ولو الى حد بسيط في كل نادٍ ومجتمع وفي كل بيت ، ويظهر على صفحات الجرائد اليومية وعلى لوحات السينما وفي المجتمعات العامة . وغزت المصطلحات العلمية اللغات الدارجة ، حتى لغتنا المفتقرة الى هذه المصطلحات .

وسبب ذلك ان العلم كالمخلوق الحي من نبات أو حيوان ، قد مر ببعض الاطوار التي تمر بها هذه المخلوقات ، ويظهر انه ماض في تطوره ليمر بالاطوار الباقية عليه .

ولد العلم مع العقل ونما بنموه ، ولكن دور طفولته كان طويلاً جداً ، إذ بدأ قبل التاريخ ولم ينته الا منذ قرن ونصف ، أي في نهاية القرن الثامن عشر .

وانتقل العلم في القرن التاسع عشر من طور الطفولة الى طور الحداثة والصبا ، ودام هذا الدور قرناً كاملاً ، هو على طوله ، قصير جداً بالنسبة الى دور الطفولة الذي دام اكثر من اربعين قرناً .

وفي اوائل القرن العشرين دخل العلم في دور الفتوة فلم يمكث فيه الا اربعين عاماً ، ثم دخل في دور الشباب يوم اطلاق القدرة الذرية ، فاذا تابع سيره بهذه الخطة المتسارعة ، فان شبابه لن يدوم طويلاً ، وسيدخل قريباً في دور الكهولة ، ثم الشيخوخة ويقضي على الانسانية بانقضائه .

كلما تقدم العلم في السن زاد عمقاً واتساعاً ، وازداد سلطانه على حياة البشر وانتقلت مملكته من صفحات الكتب ومقاعد الدرس وقاعات المختبرات الى الدنيا والاشياء ، فدخل في لب الحياة . فكأنما هو قدر ، كما قدمنا ، بالاطوار التي يمر بها الانسان . فالطفل تبدأ معلوماته بالحس والادراك والتجربة اليومية . ثم يبدأ تعلمه في المدرسة ويتنقل في مملكة العلم مدى عشرين عاماً حتى يخرج الى الحياة ليطبق فيها ما تعلمه في المدارس طول حداثته وشبابه .

لكي نعلم مبلغ تدخل العلم في حياتنا ، يكفينا ان نقارن بين ما كانت تنشره الصحف قبل عشرة اعوام وبين ما تنشره اليوم من اخبار عن العلم وتطبيقاته العديدة ، سواء أكان ذلك في فن الحرب أم في فنون السلم : اخبار عن الذرة والطيران والصواريخ والغواصات والمدرعات ، وعن الكهرباء وتطبيقاتها العديدة ، والراديو والتلفزة ووسائل المراسلة والتخاطب والنقل ، والأجهزة البيتية وعجائب الكيمياء التي تطلع علينا كل يوم بمركب جديد واسلوب مبتكر ، والعلاجات الجديدة التي قلبت الطب والتداوي والأشعة وأجهزتها واستعمالاتها .

لقد كانت هذه الاشياء كلها في داخل المختبرات في دور التجريب قبل خمسة عشر عاماً مضت ، وها هي قد برزت الى العيان في هذه السنين الاخيرة ، وستتلوها مستحدثات كثيرة غيرها . وهذه الحركة آخذة في التضخم يوماً فيوماً .

فرض العلم نفسه على السواد الاعظم من الناس ، بعد ان كان مقصوراً على خاصة ضئيلة ، وما ذلك الا بفضل خروجه من المدرسة والمختبر الى ميدان الصناعة والتطبيق ، ومن حيز التجرد الى حيز الحس واللمس والمشاهدة .

وأهم ما في الامر هو ان نهضة العلم لا تسير بسرعة ثابتة ، بل هي كما قدمنا تسير سيراً متسارعاً اذ تقطع الآن في اليوم الواحد ، ما لم تستطع قطع مثله في قرن من اول التاريخ ، وسيظل هذا التسارع قائماً ما دامت المدنية قائمة ، وما دام هذا السباق بين الامم يلهب العقول والارادات .

ما هي اسباب هذا السير الحثيث الذي تزداد سرعته كل يوم عن اليوم الذي سبقه ، وما هي المراحل التي حققها العلم في دور سنيه العشر الاخيرة ، والى اين تذهب الانسانية مدفوعة به ومحمولة بتياره الجارف ، او بالأحرى ما هو الاتجاه الذي نحن سائرون فيه ؟ هذا هو الموضوع الذي أنوي معالجته الآن بالقدر الذي تسمح به ظروف المحاضرة .

اعتقد ان السبب الاول في ترقي العلم ، هو روح هذه المدنية التي نعيش في احضانها ، فالعلم قد انتقل مع الزمن ، من الطور النظري والفلسفي الى الطور العملي ، وامكن الاستفادة منه في كافة نواحي الحياة . فكان مبعث الصناعة الحديثة التي تستند على العلم في كل دقيقة من دقائقها . ومدنية اليوم قائمة على الصناعة ، فهي بالتالي قائمة على العلم .

ليس ثمة دليل على ذلك أقوى من دليل ولادة طائفة من العلماء العمليين عددهم آخذ بالازدياد بنسبة كبيرة جداً ، وهم المهندسون . فهذه طائفة من العلماء لم يكن لها اثر في العصور الماضية ، في حين ان عدد افرادها قد بلغ اليوم رقماً كبيراً جداً ، وهو آخذ في الازدياد بصورة تسترعي الانتباه ، فاذا كان عددهم في سوريا لا يزال يعد قليلاً ، فينبغي ان لا تتخذ سوريا مثالاً ، على انني اعتقد ان نسبة المهندسين في سوريا ستزداد ازدياداً كبيراً في السنين المقبلة .

تقدر عدد المهندسين في العالم اليوم بحوالي مليون ونصف من الاشخاص يشتغلون في مختلف فروع الصناعة الكهربائية والميكانيكية والكيماوية والبناء والاشغال العامة . وقد اقتضى تكاثر انواع الصناعات ان يكثر الاختصاص ويضيق نطاقه ، ولا حاجة هنا لتعداد هذه الاختصاصات ، فقد ذكرتها قدماً في

حديث نشرته في الاذاعة ، ويكفي على سبيل المثال ان آخذ فرعاً واحداً نموذجياً من فروع الصناعة ، وهو الكهرباء ، فأذكر فيه من انواع الاختصاص التي يشغل كل واحد منها حياة المهندس وفعاليته كاملة .

توليد الكهرباء وصناعة المنوبات والمولدات ـ نقل الكهرباء بالتوتر العالي ـ توزيع الكهرباء بالتوتر المنخفض ـ استعمال الكهرباء في المحركات ـ آلات القياس المختلفة ولوحاتها ـ تحويل القدرة الكهربائية الى اشكالها المختلفة ـ التركيب والتمديد ـ الانارة الكهربائية بالتوهج ـ الانارة بالتفريغ الكهربي ـ الجر بالكهرباء (وله فروع مختلفة) ـ الصناعات الكيماوية الكهربائية (وهي كثيرة ومتنوعة جداً) ـ اللحام الكهربائي وصناعة الاقطاب ـ صناعة المدخرات والابيال الكهربائية ـ الهاتف بانواعه ـ شبكات الهاتف ـ البرق ـ البرق اللاسلكي ـ الاذاعة ـ التلفزة ـ الرادار ووسائل الكشف والقيادة الكهربائية الاثيرية ـ الاجهزة الكهربية (الالكترونية) وصناعة مصابيح الراديو وما شابهها ـ اجهزة التداوي بالاشعة السينية والاشعة فوق البنفسجية وبالامواج الكهربية ـ الصناعة الذرية وفروعها المتعددة التي لا نعلم عنها إلا الشيء اليسير .

الى غير ذلك من شعب الاختصاص في الكهرباء التي يحتاج تعدادها واحصاؤها الى صفحات متعددة .

هذا وان طائفة المهندسين التي سميتها بطائفة العلماء العمليين قد شاركت العلماء في اعمالها ، حتى في مختبرات التحري . ويرجع ذلك الى سببين : اولهما ان العلوم اصبحت من التعمق والتقيد بحيث تحتاج الى آلات دقيقة صعبة الصنع والتشغيل ، فصار العالم بحاجة الى المهندس ليساعده في صنع آلاته وفي تشغيلها ، والسبب الثاني هو ان التحري العلمي والصناعي الذي تقوم به اكثر الشركات الصناعية الكبرى في العالم ، يقوم على المهندسين .

اكتشف الانسان من العلم في الاول قوانينه البسيطة ، وفي ظاهرها غير المعقد بل السطحي منها ، ثم صار يتوغل في الصعب منها بالتدريج ، وكلما توغل زاد استطلاع هذه القوانين صعوبة .

لنصور قرية بنيت في الاصل على ضفة نهر ، فلا بد ان الذين بنـــوها اختاروا لذلك اسهل مكان وأبسطه وأقربه وصولاً الى الماء ، ثم كلما زاد عدد الأبنية اضطر البانون الى التشييد في امكنة اصعب ، الى ان يأتي حين تصعد فيه الأبنية والاحياء على الجبال وتبعد عن مركز القرية التي تنقلب الى مدينة ويصير الوصول اليها صعباً جداً .

كذلك البحث العلمي ، قد بدأ بالمشاهدات السهلة وتدرج في الصعوبات ، فلنأخذ كمثال لنا انتقال الحرارة وانتشارها ، فالانتشار يحدث بطرق ثلاث : وهي الناقلية ، والاشعاع والحمل . والفعل الاول هو اسهلها مشاهدة ولذلك بدأ العلماء بدراسته قبل عهد نيوتون ، والفعل الثاني اصعب من الاول ويتطلب معلومات رياضية لم تكن موجودة في القديم . فلم تتهيأ دراسته إلا في اواسط القرن التاسع عشر عندما ارتقت الرياضيات وظهر علم التفاضل والتكامل وارتقت معلومات البشر عن حوادث الاشعاع الضوئي . واما الحادث الثالث ، وهو اشد الثلاثة تعقيداً ، فلم تتهيأ دراسته إلا في القرن العشرين ولما تنته بعد .

وثبت العلوم العملية وثبة كبرى منذ اليوم الذي بدأت فيه الشركات الصناعية تهتم بالتحري والتجريب ، وقد بدأ هذا العهد في الربع الاخير من القرن التاسع عشر وبلغ في ايامنا هـــذه شأناً لا يتصوره العقل . ان من يطالع حياة كبار المخترعين من امثال اديسون وماركوني يدهش للاساليب العلمية التي اتبعوها . ويستغرب ان تقوم الشركة الواحدة بالتحريات والابحاث العلمية ، في حين ان مثل هذه الاعمال كان من شأن الجامعات ومختبرات التحري . والحقيقة ان بعض الشركات الكبيرة ، في الولايات المتحدة خاصة ، لها من عظم امرها وكبر صناعتها ما يسمح لها بان تنفرد بتحرياتها وتنفق عليها مبالغ طائلة رامية من وراء ذلك ، فيما ترمي اليه ، الى الانتفاع بنتائج هذه التحريات ، مما يجعل مصنوعاتها تفوق مصنوعات مثيلاتها من الشركات .

نذكر بين هذه الشركات ، وعلى سبيل المثال فقط ، شركتي زايس وليتز الالمانيتين اللتين اختصتا بصنع زجاج العدسات وكانتا سبب الرقي المدهش الذي

عرفته هـــذه الصناعة ؛ وتقابلهما في اميركا شركة كوداك . وكذلك شركات جنرال الكتريك ، ووستنغهوس وديبون دونمور ، لها مختبراتها الخاصة تعمل فيها مئات المهندسين والعلماء وتقوم بالابحاث الاساسية وتنشر هذه الابحاث بصورة عامة . وان هذه الشركات تفخر دوماً بمختبراتها وتشيد بالقسط الذي تساهم به في ترقية العلم والصناعة .

لا يقتصر هذا الامر على الشركات الكبيرة ، بل ان كثيراً من البيوت الصناعيـــة المتوسطة او الصغيرة تنفق غالباً ما يعادل ١٠ ٪ من ارباحها في التحريات العلمية .

على هذا الاساس ، بلغت نفقات التحري في الامم الصناعية مبالغ طائلة ، ففي الولايات المتحدة تبلغ حوالي ٣٠٠ مليون دولار في السنة ، ما بين رواتب للموظفين ونفقات عامة للمختبرات والبناء . وعلى سبيل المثال نذكر ان المختبر الجديد لشركة الهاتف (بل) يضم بين جدرانه ما يقارب ٥ آلاف مهندس وعالم ومساعد فني .

ان هذا الازدهار العلمي في الولايات المتحدة اليوم يدهش الاوربيين الذين كانوا الى امد قريب اساتذة الاميركيين . وقد قصّ احد العلماء الفرنسيين ، على اثر جولة علمية قام بها في امريكا عقب الحرب الاخـيرة القصة التالية التي يؤكد صحتها :

« يهتم مدير احدى الشركات الصناعية ، اهتماماً كبيراً بالرقي العلمي ، ويطالع بامعان كل ما ينشر عنه من مقالات مبسطة . وكلما اطلع على وصف لجهاز جـــديد ، يرسل كتاباً لمدير المختبر يسأله فيه هل في حوزة الشركة مثل ذلك الجهاز ام لا . ولماذا ؟

ووقع يوماً على وصف الجهاز الرحوي الشهير Cyclotron ، وهو جهاز غالٍ جداً وكبير الحجم ولا يوجد إلا في مختبرات الفيزياء الكبيرة ، وغايته

دراسة نواة الجواهر الفردة للعناصر ، فارسل كعادته ، كتاباً الى رئيس المختبر فاجاب هذا بقوله : ليس لدينا مثل هذا الجهاز للاسباب الآتية :

١ ـ لأنه يكلف مليوناً من الدولارات .

٢ ـ لأنه يحتاج الى عدد من الموظفين المطلعين لتشغيله وصيانته .

٣ ـ لا ارى ثمة مسألة من المسائل التي تهم مشروعنا ، تستطيع هذه الآلة ان تفيدنا فيها .

فكان جواب المدير على ذلك :

١ ـ ان شركتنا من الغنى بحيث يمكنها ان تنفق مليوناً من الدولارات لجهاز بهذه الاهمية .

٢ ـ يوجد في الولايات المتحدة من البحاثين العدد الكافي الذي يسمح لنا بأخذ الموظفين اللازمين .

٣ ـ أما فائدة هذا الجهاز لنا ، فانك تتقاضى اجورك لكي تجد لنا مثل هذه الفوائد .

ومغزى هذه الحكاية هو ان الصناعيين في امريكا انما ينفقون على مختبرات التحري بسخاء لأنهم يعلمون ان الزمن كفيل بجعل هذه المختبرات تؤتي اكلها . ولذلك فهم يغرسون فيها بانتظار الثمر .

نرى اذاً ان رقي الصناعة قد سبب للعلم خطوات واسعة جداً لم يكن ليخطوها في قرون عديدة لو بقي قابعاً في قاعات التدريس ومختبرات الجامعات .

هذا هو السبب الأول والأهم في الرقي السريع الذي ناله العلم .

والاسباب الاخرى هي : روح النهضة التي هبت على العالم اجمع وخلقت المنافسة بين الامم في حالتي السلم والحرب ، وازدياد عدد البشر ازدياداً مضطرداً

جعل سكان الارض في هذه الايام يعادل ضعف ما كان عليه منذ قرن . وارتفاع مستوى التعليم في كافة الامم ، ثم ظهور دول عظيمة جديدة احتلت مكانة رفيعة جداً في العلم والصناعة ، لم تكن تحتلها منذ نصف قرن . واخيراً لأن رقي العلم هو نتيجة طبيعية للتطور البشري .

فروح المنافسة ذات اثر عظيم جداً في ترقي العلم ، والمنافسة في الأصل هي من أهم الاسباب والبواعث على التعلم والاختراع وعلى الاتقان ، سواء أكان مفعولها في المدرسة أم في الحياة ، وقد اخذت المنافسة احياناً صوراً تشبه التطاحن والعراك لكسب الاسواق التجارية وإعلاء اسم ماركة من الماركات على غيرها .

وقد أدت المنافسة بين الشركات الى التجسس على بعضها بعضاً ، وسرقة مكتشفاتها للاستفادة منها ، هذا في صناعات السلم ، فكيف في خلال الحرب. ومن ذلك نشأت فكرة حماية الاختراع لحفظ حقوق المخترعين ، بعد ان نشبت خلافات لا تعد ولا تحصى بين مخترع ومقلد وسارق ، أو بين مخترعين وصلا الى عين النتيجة في مدة واحدة وفي قطرين مختلفين .

نذكر بهذه المناسبة ما يرويه الفرنسيون من انهم كانوا يجربون في خلال عام ١٩٣٣ شكلاً خاصاً لمقدمات السفن ، يختلف عن الشكل الكلاسيكي ويجعل السفينة المجهزة به تلاقي مقاومة من الماء أقل بكثير مما تلاقيه الاشكال العادية الدارجة . واضطروا الى اجراء التجريب على نماذج مصغرة في مختبر كبير في المانيا مختص بهذا النوع من التجارب ، وكان الالمان حينئذ يصنعون باخرة كبيرة جداً هي بريمن للسير بين المانيا والولايات المتحدة ، فاطلعوا بالطبع على هذه التجارب وسارعوا للاستفادة منها ، فأعادوا صنع مقدمة السفينة بريمن وغيّروه حسب الشكل الذي برهن بالتجربة على أحسن النتائج ، فاستطاعوا بذلك ان يفوزوا بالشريط الازرق وهو علامة السبق في قطع المحيط الاطلسي .

وأما في خلال الحرب ، فان المنافسة تتخذ اشكالاً عنيفة وخفية ، ولا تزال ماثلة في الاذهان قصص التجسس على صناعة القنابل الذرية والرادار والصواريخ

والطائرات النافورية ومثل ذلك من المخترعات . وما هذا التجسس الا دليل على الرغبة القوية الموجودة لدى كل دولة في تحسين مصنوعاتها الحربية لتكسب لنفسها بذلك حصناً جديداً وغلبة على الخصم . وان هذا التنافس في ايام الحرب وبعد الحرب ، قد جعل الصناعة تخطو خطوات واسعة جداً إذ ان ضرورات الحرب لا تعبأ بالنفقات ولا بالخسارة فما كانت الحرب في يوم من الايام عملية رابحة لأحد الخصمين ، ولكن الخبرة التي تكتسبها الصناعة منها لا يتهيأ لها مثلها ايام السلم . فلنذكر على سبيل المثال التسابق في سرعة الطائرات ، مما جعل هذه السرعة تفوق اليوم ضعف قيمتها في بدء الحرب . فالطائرات التجارية العادية كانت سرعتها في عام ١٩٣٩ حوالي ٢٠٠ كيلومتر في الساعة فبلغت الآن على وجه الوسط ٤٥٠ كيلومتراً ، وطائرات المطاردة كانت أقصى سرعة لها قبيل الحرب ٧٠٠ كيلومتر في الساعة فبلغت الآن ١٢٠٠ كيلومتر بل وتجاوزته، وتحيط الدول ارقام السرعة لطائراتها الحربية الحديثة بكثير من الكتمان . ولكن مما لا شك فيه ان كثيراً من النماذج التي تجرب الآن قد تجاوزت سرعتها ١٤٠٠ كيلومتر ، واخترقت بذلك جدار الصوت، وهو العقبة الكبرى التي كان يخشى ان تقف حائلاً في وجه السرعة.

تبلغ سرعة الصوت في الهواء البارد حوالي ٣٣٠ متراً في الثانية ، أي ما يعادل ١٢٠٠ كيلو متر في الساعة ، وقد كانت هذه السرعة تعد كحد أقصى لا تستطيع الطائرات الوصول اليه ، على ان قذائف المدافع البعيدة المرمى تجاوزته منذ زمن بعيد .

وقد كان العامل الاول في زيادة سرعة الطائرات هو العدول عن المحرك الانفجاري واستعمال المحرك النافوري الذي يجعل الطيارة تطير بقوة الاندفاع كالصاروخ . فأمكن بفضل هذا المحرك زيادة السرعة الى هذه القيم التي ذكرناها، بدون زيادة مفرطة في الوقود .

كان الانكليز السابقين الى استعمال المحرك النافوري في الطائرات التجارية بعد الحرب فصنعوا طائرات ركاب ، يشتغل بعضها الآن على خط لندن القاهرة ، بسرعة تجارية قدرها ٨٠٠ كيلومتر في الساعة ، على ان السرعة العظمى لهذه

الطائرات تبلغ ١٠٠٠ كيلومتر في الساعة ، ولا يبعد ان تصبح هـذه السرعة سرعتها التجارية في المستقبل القريب .

بهذه السرعة ، تستطيع الطائرة اذا سارت على خط العرض ٥٠ ان تدور حول العالم ، أي أن تقطع دائرة العرض تلك وطولها ٢٤ الفاً من الكيلومترات في ٢٤ ساعة ، وان هـذا وان كان الآن متعذراً لأن هـذه الطائرة لا تستطيع مواصلة السير طول هذه المدة بدون توقف لاحتياج رحلتها هـذه الى كمية كبرى من الوقود تعجز الطائرة عن حملها . على انه بامكانها بعد بضع سنين ان تحل هذه المشكلة وعندئذ نرى الانسان يقوم في يومه باعمال تدعونا الآن الى الاستغراب .

عندما تسير هذه الطائرات بانتظام بين لندن ونيويورك ستقطع هذه المسافة في خمس ساعات ، والمعلوم انه يوجـد بين توقيتي هاتين المدينتين فرق قدره خمس ساعات سببه اختلاف الطول الجغرافي بينهما بقدر ٧٠ درجة . ولما كانت مدينـة لندن تسبق في التوقيت مدينة نيويورك لوقوعها في شرقها ، فان التاجر الانكليزي الذي يسافر الى نيويورك يستقل الطائرة في الساعة الثانيـة بعد الظهر مثلاً بعـد قيامه بعمله في الصباح وتناوله طعام الغداء ، فيصل الى نيويورك بعد خمس ساعات ، ولكنه لسيره نحو الغرب ٧٠ درجة يكسب خمس ساعات ايضاً فيكون وصوله في الساعة الثانية بعد الظهر بتوقيت نيويورك ، ويبقى الوقت جامدا طول سفره ، وتبقى الشمس في مكانها من السماء بالنسبة اليـه ، فيجد مجال العمل بعـد الظهر مفسوحاً أمامه تماماً كأنما لم يتحرك من مدينتـــه . أما عند العودة ، فانه سيخسر الساعات الخمس التي كسبها في الذهاب . فاذا استقل الطائرة في الساعة الثامنـة صباحاً فان وصوله الى لندن سيستغرق اولاً اكثر من خمس ساعات بسبب الرياح القوية المعاكسة ، ولو اننا أهملنا فعل هذه الرياح ، فان سبق لندن في التوقيت لنيويورك بخمس ساعات سيجعل التاجر يصل اليها بعد عشر ساعات أي في الثامنة عشرة مساء بعد انقضاء النهار .

وان من الدعابة في هذه القضية هو ان سرعة الطيران الآخذة في الازدياد ، اذا سمحت في المستقبل بقطع المسافة بين لندن ونيويورك في اربع ساعات ، فان

المسافر من لندن في الساعـــة الثانية بعد الظهر سيصل الى نيويورك في الساعة الواحدة من نفس النهار بعد ان يكون قد سبق الشمس في طيرانه وشاهدها تسير من الغرب الى الشرق .

ان ازدياد سكان الارض وارتفاع مستوى التعليم في كافة الامم قد دفع بالعلم الى الامام دفعات قوية جداً . فلنرجع بالنظر الى ما كانت عليه سوريا منذ ثلاثين عاماً نجد ان عدد المهندسين فيها كان ضئيلاً جداً لا يتعدى عشرين مهندساً، اما الآن فقد بلغ عددهم على قلته مائتين تقريباً ، اي انه ازداد الى عشرة امثال ما كان عليه في ثلاثين عاماً . وهذه النسبة ليست صحيحة بالطبع في بلاد الغرب ، ولكن نشوء الصناعات الجديدة قد تطلب وجود مهندسين مختصين جدد ، بحيث نستطيع ان نقول بان هذا العدد في اوربا واميركا قد زاد الى اربعة امثاله فقط .

الآن بعد ان ذكرنا عوامل رقي العلم ، كل واحد منها بمفرده ، فلننظر كيف اثرت هـــذه العوامل مجتمعة : ان القوانين الطبيعية الرياضية التي تحتوي على عدة عوامل تؤثر كلها في اتجاه واحد تدلنا على انه عندما تؤثر هذه العوامل مجتمعة فان الناتج يتغير تغيراً قوياً جداً . فلنأخذ مثالاً بسيطاً على ذلك هو مثال وعاء موشوري الشكل فيه مادة سائلة ، فوزن هذه المادة يتعلق بأربعة عوامل وهي طول الوعاء وعرضه وارتفاعه والثقل النوعي للسائل . فلو ان الطول وحده نما الى الضعف لتضاعف الحجم والوزن ، وكذلك لو تضاعف العرض او تضاعف الارتفاع او لو ابدل السائل بسائل آخر كثافته ضعف كثافة الاول . فلنفرض الآن اننا ضاعفنا في حين واحد الطول والعرض والارتفاع والكثافة ، فان ثقل السائل الذي يمـــلأ الوعاء الجديد يكون اكبر من ثقل الاول بـ ١٦ مرة .

كذلك ، اذا كان رقي العلم يسير باطراد بنسبة ازدياد سكان الارض ، فان تضاعف عدد السكان يجعل الحركة العلمية تتضاعف في نفس المدة بسبب هذا العامل وحده ، وان العوامل التي ذكرناها كثيرة ، فتأثيرها المشترك يكون

من نتيجته ان سرعة رقي العلوم تتضاعف في مدة وجيزة جداً وان هذه السرعة تأخذ دوماً بالازدياد .

لنبحث الآن عن المراحل التي حققها العلم منذ عام ١٩٤٠ : لا شك في ان الحرب الماضية كان لها اثر كبير جداً في رقي العلم والصناعة ، وان العـــداء المميت الذي قام بين الجبهتين المتقاتلتين ، والذي استحال الى طور جديد في ايام السلم ، قد شحذ همم الطرفين للتسابق في تحسين أجهزة القتال والدفاع والكشف والتداوي . فكان نتيجة ذلك ما عرفناه من ظهور الانواع المختلفة لأسلحة الموت في الجو والارض والبحر . ولما اعلنت الولايات المتحدة في برنامج تسلحها عام ١٩٤٢ انها ستصنع مائة الف طائرة في السنة سخر الالمان من ذلك في دعايتهم وعدوه كلاماً فارغاً . ثم لما غزت سماءهم اسراب مؤلفة من الف راجمة في غارة واحدة ايقن الذين ذاقوا وابلها من صدق ذلك الوعد .

لما كانت هذه الفـترة موسومة بسمة الحرب ، فان الحرب كان لها اثر عميق جداً في تقدم الصناعة والعلم في كثير من نواحيها ، وبالرغم من ان كل فرد منا يمقت الحرب ويكرهها بكل قواه ، فلا يسعه مع ذلك إلا ان يعترف بان الامم الكبيرة تبذل في ايام الحرب الملايين والمليارات رخيصة مع الارواح والدماء لكي تفوز بالنصر ، ويستفيد العلم من ذلك فائدة كبيرة .

من الصعب الخوض في تفاصيل التقدم العلمي في هذه الحقبة . على انه يمكن ذكر خطوطه الرئيسية وكلها من نتائج حمى الحرب التي كانت الدافع القوي لوثوب كثير من الصناعات ولحصول عدد كبير جداً من الاكتشافات العلمية ، التي استثمر بعضها لغايات السلم في السنين التي اعقبت الحرب .

وأهم ناحية علمية نالها نصيب كبير من التقدم هي ناحية الابحاث الذرية ، فقد اشتعلت نار الحرب ، ولا تزال قضية الانفاق التسلسلي لجواهر الاورانيوم من مشاهدات المختبر الحديثة العهد جداً ، وقد شوهدت في المانيا وفرنسا فقط ،

غير انها اعطت البرهان الحسي على امكانية انفجار هذا العنصر ، من تلقاء نفسه ، انفجاراً يرافقه انتشار كمية هائلة من القدرة .

في ذلك الحين ، هاجر الى اميركا عدد كبير من العلماء الفرنسيين والطليان والدانمركيين والانكليز ، فأحدثوا في الولايات المتحدة ضغطاً كبيراً في حيز الاعمال الذرية ، وأيقنت الولايات المتحدة بان فرصة عظيمة جداً قد سنحت لها لتكون اول من يفوز بثمرات هذا الاكتشاف ، واتصل العلماء الذريون بالعالم انشتين وهو الذي تنبأ بهذه الاشياء قبل ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ فطلبوا وساطته لدى رئيس الولايات المتحدة فكتب اليه كتابه المشهور يوصيه فيه بالاهتمام بصورة جدية بهذه القدرة الهائلة المحفوظة في قلب عنصر الاورانيوم كما حفظت عفاريت سليمان في قماقمها ، وكان ذلك نقطة ابتداء لمساع جبارة كلفت مليارين من الدولارات وما لا يوصف من الجهود وانتهت بعد ستة اعوام بتفجير اول قنبلة للاورانيوم في صحراء نيو مكسيكو .

لا تزال قصة هيروشيما وناغازاكي ماثلة في الاذهان ، ونذكر جميعاً العهد الجديد الذي افتتح بتفجير القنبلة الذرية فسمي هذا العصر بعصر الذرة دخلت فيه الانسانية عام ١٩٤٥ .

وفي السنين الست التي أعقبت عام ١٩٤٥ خطت الابحاث الذرية خطوات سريعة جداً وشرعت بقية الامم ذات الصناعة الراقية ، تعمل لتلحق بالولايات المتحدة ، فكانت روسيا هي السابقة في هذا المضمار ، إذ فجّرت اول قنبلة لها في صيف ١٩٤٩ ، ومنذ ذلك الحين يصح ان يقال ان امريكا دخلت في عهد الذعر من الذرة .

ومما يجدر بالذكر ان ابحاث الذرة ، التي تشغل كثيراً من العلماء والمهندسين في اكثر الامم الكبيرة (٥ ٪ من مجموع المهندسين والعلماء في الولايات المتحدة) لا تقتصر على تحضير قنابل الاورانيوم والبلوتونيوم وقنبلة الهدروجين التي يسميها الامريكيون بقنبلة جهنم ، بل تسعى في دراسة كثير من التطبيقات الصناعية

والحربية لها ، كالمدفعية الذرية والصواريخ ، وفي الاستفادة منها في توليد الكهرباء وتحريك السفن والطائرات ، وقد اعلن اكثر من مرة ، وبصورة شبه رسمية ، ان تحقيق هذه المصنوعات سيجري في غضون السنوات الخمس المقبلة .

الى جانب رقي الفيزياء الذرية ، نذكر ما شابهها من صناعات الحرب كالطيران والصواريخ ، وقد بلغت الصواريخ التي جربت اخيراً في امريكا ، ارتفاعاً يفوق ١٥٠ كيلومتراً في الجو ، حيث يصبح ضغط الهواء جزئياً لا يذكر ، ويتعلق مستقبل الصواريخ على تسهيل استعمال القدرة الذرية لتحريكها .

ومن جملة الصناعات التي ارتقت جداً بعد الحرب صناعة التلفزة ، فقد لقيت في الولايات المتحدة انتشاراً منقطع النظير ، ويقدر عدد آلات الالتقاط المصنوعة فيها حتى الآن بحوالي عشرة ملايين ، ويقدر المطلعون بأن تعمّ التلفزة هنالك ويبلغ عدد الأجهزة في الولايات المتحدة وحدها ٢٥ مليون جهاز في نهاية عام ١٩٥٣ .

ويمكن في الجملة ان نقول بأن الصناعات الكهربية قد لاقت في هذه الحقبة تطبيقات عديدة لا تحصى ، وانها ولدت فروعاً كثيرة ، نكتفي منها بالاشارة الى الآلات الحاسة الكهربائية التي تزداد دقة وتعقيداً في كل يوم ، والتي تعتمد عليها الدوائر العلمية في حل أعوص المسائل وأدقها وأطولها حلاً ، مما قد يمضي الحاسبون السنين الطويلة في حسابه لولاها ، وهي تعطي النتيجة المضبوطة في برهة وجيزة جداً .

وقد أدت صناعة هذه الآلات التي تسمى بالدماغ الكهربي ، الى حصول تقارب في الدراسة بينها وبين الدماغ الانساني ، فكان من نتيجة ذلك ان ولد علم جديد يسمى Cybernétique وهو يهتم بالقضايا التي تربط ما بين خلايا الدماغ وبين الخلايا الكهربية الضوئية والتي تشبه الدماغ في كثير من صفاتها .

نكتفي بهذه الأمثلة التي تدل دلالة واضحة على الخطوات الواسعة التي يخطوها العلم في هذه الايام ، تاركين مكتشفات الكيمياء والطب وغيرها لخروجها عن نطاق بحثنا هذا .

الى أين يسير العلم ؟ والى أين تسير الانسانية وهي مندفعة بوثبته وسائرة في موكبه ؟ هذا هو السؤال الذي يختلف العلماء في الجواب عليـــه باختلاف مشاربهم وأمزجتهم ، فالمتشائمون منهم يقطبون جبينهم لأن التفكير فيه يقلق بالهم ويقض مضاجعهم ، والمتفائلون يرون ان الانسانيـة تسير نحو الرفاه والكمال وان العصر الذهبي لم يقبل بعد . والحقيقة ان التكهن بالمستقبل صعب جداً ، فالعلم الذي خدم الانسانية باكتشافاته الطبية الرائعـة وقضى على كثير من الأوباء وقدم للبشر اساليب الراحة والتنعم والرفاهية مما لا يستطيع الفرد المتمدن اليوم ان يستغني عنه ، هذا العلم قد كدس للبشرية أسلحة فتاكة مبيدة وامكانيات لتوليـد الأوبئة ونشر الغازات السامة والمشعة القاتلة ووسائل التدمير والهلاك كافة .

هل ربحت الانسانية من العلم وهل أفادت منـه ؟ أم هل يجدر بهـا ان تأسف على عصور الظلام حينما كان الجهـــل خير درع للبشر من الاخطار التي جندها عليه العلم اليوم ؟

هل تحققت اسطورة تلميـــذ الساحر الذي سرق سر السحر من معلمه فسخر لنفسه الجوامد لتخدمه وتكنس وترش وتنقل الماء بدلاً منه ، ثم جهل سر ايقافها عند حدها عندما تنتهي مهمتها ، فكان نتيجة ذلك ان اهلكته غرقاً ؟

قرأت في الصيف الماضي مقالة في مجـلة علمية عنوانها : انشتين خائف ، والعالم انشتين لا يحتاج الى تعريف ، وهو بزعم بعضهم نبي العلم في هذا العصر ، او فلنقل نذير خرابه ، تصور هذه المقالة حالة الذعر في الولايات المتحدة وفعلها المنعكس في نفس انشتين . قال :

« ليست اقوال انشتين بالـكلام العادي ، لأن عبقريته قد رفعته الى سوية شاهقة لا مثيل لها في التاريخ ، فعلا بعلمه فوق العلماء كافة . فاذا عراه الخوف فان سائر العلماء يخافون كما يخاف ركاب الطائرة المشرفة على الخطر عندما يرون اشارة ذعر تبدو من السائق .

« لقد اعتكف البير انشتين منـذ اشهر عدة في بيته في برنستون تاركاً البيانو والقيثارة ، وراغباً حتى عن النزهات التي كانت محببة اليه . فعاش فيه كالناسك ليتأمل وينظر في المرحلة التي قطعت .

« والغريب في الأمر ، بل والمؤثر حقاً ، هو انه عاد ففتح كتب الاساطير الجرمنية القديمة ، تلك الكتب التي هدهدت اقاصيصها ليالي سنيه الاولى . ولا يستطيع الانسان ان يتصور فاجعة اشد تأثيراً من فاجعة هذا الرجل الذي يحمل سيماء العبقرية ، والذي تكلل بالغار وبلغ ذروة المجد والشرف ، فتراه في آخر حياته يطرق باب اشباح صباه ليسألها عن مصـــير عالم كان هو المشيد لجزء كبير منه .

« لقد راعته القوى التي اطلقها من عقالها ، فافلتت من ارادته وطاعته ، ولذلك فانه يريد ان يتذكر الكلمات السحرية التي نسيها تلميذ الساحر .

« كان انشتين فخوراً بصرحه العلمي ، يشيد دوماً بعظم اكتشافاته ، وقد نشر في نهاية عام ١٩٤٩ ملخصاً لترجمة حياته بقلمه كله تمجيد لرجل العلم الذي تحرر من كل اعتبار عاطفي وسار طوع العقل المحض . فذكر في هـذه الترجمة كيف انه لما بلغ الثانية عشرة لم يعد يؤمن باجداده ، وضحى بكتاب العهد القديم في سبيل كتاب الهندسة .

كيف لا يدهش الانسان اليوم عندما يراه يعود الى منبع شكوكه ؟ ان اساطير الأولين قد ثأرت فيه لنفسها على محاكمات العقل المحض .

وعلى كل حال ، فان انشتين لا يكتم مخاوفه ، بل هو قد صرح بها في العام الماضي عندما سمع بان صنع قنبلة الهدروجين قد ابتدأ .

ان انشتين خائف ، وامريكا كلها خائفـــة معه ، لقد هيأت الحكومة لكالفورنيا خطة ترمي الى ترحيل عشرة ملايين من السكان وتقضي بجمع اللاجئين في معسكرات نيفادا واريزونا بعيداً عن المحيط الهادئ الذي يمكن

ان تأتي منه السحابة الاشعاعية . وقد اتخذت تسعة وثلاثون ولاية تدابيرها لتأمين الدفاع المدني لمراكز الدراسة الذرية ولحظت طرق الترحيل وبنت ملاجىء ذرية .

وقد اذاعت مديرية الدفاع المدني في نيويورك برنامجاً لاخلاء المدينة قاطبة على ثلاث مراحل : الامهات والاطفال والمرضى ، ثم بقية السكان المدنيين ، واخيراً الاخلاء التام بعد الغارة الذرية .

وتلقى كل فرد من سكان نيويورك ، منذ تشرين الاول ١٩٥٠ تعليمات دقيقة بشأن هذا الاخلاء الثلاثي . وقد احصي ما في البلاد من مغاور وكهوف من المحيط الاطلسي الى المحيط الهادي ، وتقرر ان كهف الماموث الشهير الواقع في مقاطعة الكنتكي سيؤوي المستشفيات والمستودعات الذرية والمعامل ، وذلك على مسافة تحت الارض طولها ١٦٠ كيلو متراً .

هذه هي ، بعد هيروشيما بسبع سنين ، الحالة النفسية والمعنوية للشعب الامريكي الذي انتصر في ثلاثة حروب متوالية ، والذي يظن الانسان ان تفوقه العظيم في النطاق الذري كان كفيلاً بتطمينه .

غير ان انشتين ينظر الى ما هو أبعد من هذه المخاطر المادية . يرى ان استعباد العبقريات قد صار محتوماً وانه قد قام الى جانبي الستار الحديدي . وقد كتب في رسالة له قائلاً :

ان العلماء قد اخترعوا اليوم أجهزة لتخريب البشرية بكاملها ، ولكن هذه الحالة المفجعة ليست من جريمة العلماء انفسهم . لانهم لا يبحثون إلا عن الحقيقة الصافية .

وان العالم ليرى بوضوح ان الحكومات التي جمعت في ايديها كافة السلطات ستؤدي الى ابادة البشرية تماماً . وهو يعلم بانه لا يزال بالامكان انقاذ الانسانية ، لا بالقوة الغاشمة ، ولكن بسلطة أعلى من السلطة الوطنية لكل دولة ، أي

بحكومة دولية كهيئة الامم المتحدة. وعلى شرط ان تكون في يدها السلطة الكلية . ولكن يخشى ان يأتي عملها السلمي بعد فوات الفرصة .

ما هي هذه المخاطر التي يشير اليها انشتين والتي تهددنا جميعاً ؟ ان عبارة الابادة التامة لم تأت جزافاً من قبل عالم اعتاد على الدقة العلمية . وان القنبلة الذرية مهما كانت مبيدة فانها لن تفني البشرية ، بل تبقى بعدها عواصم وشعوب تقوم بحمل مشعل العلم . لماذا يتكلم انشتين اذاً عن البشر كأنه جماعة نمل في وكر يقترب منه شخص يحمل وعاء من النفط ؟

ارى لهذا الامر سببين ، وربما كان له اسباب اخرى ـ ولكل من هذه الاسباب اسم ذري ، وهما : سحابة الكوبالت ، وعدوى انفلاق العناصر الخفيفة التي تؤلف قنبلة الهدروجين .

بعد تجربتي بكيني المشهورتين اللتين جرتا في صيف ١٩٤٦ ، تشكلت في السماء سحابة جبارة مشعة مميتة ، استطاعت الطائرات ان تتبعها وهي مدفوعة بالريح الى ان بلغت الشواطئ الامريكية ، وقد كشفت بعض بقاياها فوق سماء فرنسا .

من الممكن اليوم ، بفضل قنابل خاصة ، توليد سحب اقوى واشد من هذه ، باستطاعتها ان تبيد كل ما تجده في طريقها من اثر للحياة ، ويقال بان تجارب ناجحة من هذا النوع قد اجريت في الصحارى المتجمدة الكندية . ولذلك فان الخطر ، في نظر الامريكيين قد انقلب الى كابوس . فهم يتصورون اسطولاً من الغواصات المعادية يبرز فجأة حذاء شواطئهم الغربية الباسفيكية في يوم شديد الرياح المتجهة نحو الشواطئ وترسل هذه الغواصات قنابلها المدخنة المرعبة . فلا تمضي ٤٨ ساعة إلا وتكون هذه السحابة قد نظفت كل الاراضي الامريكية دون ان تترك فيها ورقة من العشب .

يقول احد المسئولين في الحكومة الامريكية : لا ريب انه سيكون بوسعنا ان نؤوي اركان جيشنا ودوائرنا الرسمية ومراكز الهاتف تحت الارض .

ولكنه لا بد من الصعود الى ظهرها في يوم من الايام ، فبأية حالة سنجد مزارعنا ومواشينا ومدننا ، وكل ما هو لازم للحياة ؟

وقد جاء في الاخبار الاخيرة انه يكفي ان يمزج بالمواد المتفجرة ، التي تؤلف القنبلة كمية ضئيلة من احد املاح الكوبالت لكي يصير مفعول السحابة فتاكاً الى الحد الاقصى ، واذا وضع فيها بضعة كيلويات من الكوبالت لأمكن تنظيف الارض من كل اثر حي .

والفرضية الثانيـــة افظع من الاولى : من المعلوم ان الانفجار الذري للاورانيوم او البلوتونيوم او التوريوم لا ينتقل بالعدوى الى الصخور التي تؤلف القشرة الارضية ، وان الاورانيوم ٢٣٨ مثلاً ، وهو الاورانيوم الطبيعي ، لا يمكن ان يحصل فيه حادث الانفلاق المتسلسل كما يحدث في نظيره ذي الرتبة ٢٣٥.

غير ان شأن العناصر الخفيفة على عكس ذلك ، وهي الهدروجين بانواعه والهليوم والليثيوم ، وغيرها ، والقشرة الارضية تحتوي في تركيبها على قسم كبير من هذه العناصر ، تسبب استحالتها انتشار قدرة حرارية واشعاعية هائلة . ولذلك فان الكرة الارضية ليست ثابتة من الوجهة الذرية بالمعنى الذي يقصده الكيماويون ، وليس من الجنون ان يتصـــور الانسان ويخشى ان تحيلها بعض التجارب المتهورة الى اتون متأجج كالشمس . ففي ذلك اليوم ينتهي كل شيء ويزول من هذه الارض كل ما فيها من بشرية ومدنية ومجـد وافراح وآلام ، وتصبح نجماً صغيراً تسطع انواره فجأة في الفضاء ، فيدهش لها فلكيو المريخ ويستغربون ان تصبح الارض من هذه النجوم التي تتألق فجأة وتسمى بالنوفا .

فى مستقبل العلم نقطة استفهام غامضة جداً ، هي قضية حياة او موت ويتعلق عليها مصير هذه الانسانية ، فعسى ان تصدق احلام المتفائلين ، ويكون مستقبل العلم لخير الانسانية وسعادتها ورفاهيتها .

المحاضرة الخامسة

نمو الاقتصاد العربي وتوجيهه للصمود في وجه اسرائيل

محمد سعيد الزعيم
نائب رئيس غرفة تجارة حلب

= القيت بتاريخ ٢٢ نيسان ١٩٥٢ =

القسم الاول

نشوء الاقتصاد العربي

توطئة :

نما الاقتصاد العربي في غضون ثلث قرن ، لا سيما بعد تحرره من الامتيازات الأجنبية ، التي كانت سائدة ايام الحكم العثماني ، وفي بعض عهود الانتداب او الحماية او الاستعمار . نمواً سريعاً في مختلف ديار العرب ، بالرغم عن ان النضال السياسي لم يكن من شأنه ان ييسر الاستقرار اللازم للنشاط الاقتصادي، هذا النمو تشهد به معالم الازدهار والعمران والتقدم ، البادية في كل صوب ومكان، في حقول الزراعة وميادين الصناعة ومرافق التجارة . كما ارتفع في وسطه مستوى المعيشة عما كان عليه من قبل ، وان لم يبلغ من الكمال الدرجة ، التي يجب ان تتوفر في محيط واسع الجنبات، غني الموارد، كثير الامكانيات ، وفي زمن تطورت فيه الحياة العامة والمبادئ الاجتماعية والروح والمادة تطوراً قلب نظام العالم والفكر، وغيَّر كثيراً من عادات الانسان .

لقد خُلق الاقتصاد العربي يوم بعثت الحكومات العربية ، بعد هجعة امتدت خمسة قرون ، حيث لم يكن للعرب قبل الحرب العالمية الاولى شأن ولا كيان ، ولكن ما كادت تلك الحرب تضع اوزارها ، وتبرم معاهدة لوزان ، حتى قامت

الدويلات العربية ، ما استقل منها وما وضع تحت الانتداب ، وما زالت عنه الحماية، تنشىء اقتصادياتها متأثرة بالروح التي سيطرت عليها ، وبالزمن الذي نشأت فيه . فمصر بعد أن ظلت قرابة سبعين عاماً تطبق في الرسوم الجمركية فئة واحدة قيمية هي ثمانية بالمائة ، حيث كانت مقيدة بمعاهدات تجارية مع الدول الأجنبية ، عملت مصر عام ١٩٣٠ لتعديل النظام الجمركي ، مستهدفة من رسومه استقلالها الاقتصادي لجانب الاستقلال السياسي ، وزيادة موارد الدولة وحماية الصناعات بتخفيض الرسوم عن المواد الأولية والوقود ، وصيانة الثروة القومية بزيادتها على مستلزمات الترف، وخدمة المجتمع المصري بالاعتدال في تقدير الرسوم على الاصناف التي يستهلكها السواد الاعظم ، وتقرير الرسوم الاضافية بالنسبة لبعض الاصناف التي تتمتع في محال تصديرها باعانة التصدير .

وأما العراق ، فكان همّ حكوماته بعث الزراعة وترقية وسائلها وتوسيع شبكات ريه وإسقائه ، وبناء أسس اقتصادية بسيطة في أول الأمر حرة، ثم تحورت مستهدفة ايضاً سياسة التصنيع ، الى جانب حماية المنتجات المحلية ، وإنشاء مرافق جديدة ، وتجديد الصناعات القديمة وآلاتها .

وقد اعتمد في تكوين اقتصادياته على عوامل فعالة عديدة كتعدد انواع الزراعات المختلفة التي تلائم البلاد ، وعلى استثمار النفط في كركوك ، ومد انابيب شركة النفط العراقية الى البحر الابيض المتوسط ، وعلى تنفيذ برامج تتوسع تدريجياً وتعتمد على موارد البترول وحصة الحكومة من عائداته . وعلى الثروة الطبيعية في شماله وشماله الشرقي المتمثلة في شلالات مائية يمكن الاستفادة منها لتوليد قوة كهربائية بثمن بخس لادارة المعامل . ومن هذه الشلالات شلال السيبه في عفرة ، والسولاف في العمادية ، وشلالات السليمانية وراواندوز .

وأما في سوريا ولبنان ، فقد قامت نهضة اقتصادية مباركة تعيد للبلاد ماضيها التجاري الزاهر ايام كانت همزة وصل بين الشرق والغرب والغرب والشرق ، وترتكز على امكانية السوري واللبناني ومقدرتهما على الانتاج وتفننهما في عالم التجارة،

وعلى طبيعة سوريا ولبنان الغنيـــة واستثمار خيراتها . فكانتا أول بلد عربي أخذ بسياسة التصنيع لجانب التجارة والزراعة . وسارتا ـ بالرغم عن سياسة الانتداب التي ما كانت تواتي خير البلدين وازدهارهما الاقتصادي ـ في طريق الانشاء بقدم ثابتة ، تتعثر آناً وتمشي أحياناً ، وترتد الى الخلف زماناً ، ثم تعود الى الأمام .

وجاءتهما الحرب الأخيرة فكانت مناسبة لاكتشاف مرافق جديدة للاقتصاد تغذت بما تدفق عليهما من نفقات الجيوش المحتلة وأموال المغتربين وموارد البـلاد المتعددة . وعقب تلك الحرب قامت الصناعات الجديدة العديدة في البلدين، وتوسعت حقول الزراعة وازدادت حركتهما التجـارية زيادة بارزة ساعدت على توسع في الانشاء والعمران وسبل المواصلات . كما ساعدت حرية سوريا ولبنـان وتحررهما من سلطان الاجنبي عام ١٩٤٥ على بنـــاء الاسس الثابتة للاستقلال الاقتصادي المرغوب بعد اسار دام ربع قرن .

كما ان البلاد العربية الاخرى أخذت في طريق العمران والتقدم والانشاء والتطور ، كل منها حسب امكانياته وبيئته وتكوينه الطبيعي . وها اني افصل هـذا النمو الاقتصادي في كل بلد عربي لأعطي صورة واضحة عن التقدم الذي صارت اليه البلاد العربية ، رغم الصعوبات والعقبات التي اعترضتهـا ، حتى اذا ما انتهيت من عرض هذه الصورة أتيت على ذكر واجب البلدان العربية في التماسك والتوجيـه للصمود في وجه اسرائيل لغايتين اثنتين : سياسية واقتصادية ، وخاصـة فيما يتعلق بالوطن العربي السليب .

* * *

عندما أتت الحرب الثانية كان هدف الاقتصاد العالمي الاستفادة من جميع موارد البلاد في انتاج السلع وتهيئة السبل الضرورية للسير في الحرب الى النصر ، إذ كان همّ الدول المحاربة كلها انتاج أقصى ما يمكن انتاجه من المواد الحربيـة . وقد أسفر هذا الهدف العام عن تغييرات شاملة لنشاط الامم الاقتصادي كافة ومن الجملة الامم العربية . كما ان الحاجة التي رافقت سني الحرب كانت عاملاً لخلق مرافق

انتاج جديدة للعالم العربي . والتغييرات التي طرأت على نظام الانتاج الغربي حولت جهود العمل الى انتاج المواد الحربية فقلت السلع التي يحتاج اليها الجمهور في الأزمان العادية ، وهذا ما ساعد على خلق صناعات حديثة في الشرق العربي . ولما كان من غير المستطاع ان تعود التجارة الخارجية العالمية الى ما كانت عليه قبل الحرب دون ان ترتطم بتلك الحواجز والقيود التي خلقتها الحرب في النظم التجارية للامم ، فقد ساعدت ايضاً هذه الحواجز العالمية على انتعاش موقت للصناعات العربية . كما ان حاجة العالم للانتاج الزراعي من مواد غذائية وأولية للصناعة قد عملت في نشاط الزراعة في البلاد العربية وإحياء موات الارض ، واستثمار مجاري المياه والأقنية ، فكشف الزمن صفحة جديدة في سجل الانتاج الزراعي في هذا الشرق الادنى . ورقي الصناعة والزراعة عاملان اساسيان في نشاط التجارة وحركة العمران والتقدم الاجتماعي ورفع مستوى المعيشة .

في سوريا ولبنان

تدرجت تجارة لبنان وسوريا الخارجية بالليرات السورية كما يلي :

العام	الواردات	الصادرات
١٩٢٦	٦٣ ٣٥٧ ٠٥٠	١٩ ٤٢٥ ٦٩٩
١٩٣٣	٤٥ ١٧٦ ١٥٠	١٧ ٣٨٣ ٣٠٠
١٩٣٨	٧٠ ٨١١ ٠٠٠	٢٩ ٢٧٨ ٠٠٠
١٩٤٥	١٣٠ ٦٢٤ ٠٠٠	٤٣ ١٩٥ ٠٠٠
١٩٤٦	٢٦٠ ٨٦٢ ٠٠٠	٨٥ ٥٦٤ ٠٠٠
١٩٤٩	٥١٧ ٤٦٢ ٠٠٠	١١٢ ٠٠٠ ٠٠٠

كما تدرج النقد المتداول في البلدين كما يلي بالليرات السورية وذلك عدا النقد الذهبي المتداول :

العام	ليرة سورية
١٩٢٦	٩ ٧٧٥ ٠٠٠
١٩٣٩	٥٠ ٧٣٦ ٠٠٠
١٩٤٠	٨٣ ٩٥٧ ٠٠٠
١٩٤١	١٠٨ ٥٢٠ ٠٠٠
١٩٤٢	١٩٧ ٧٧٢ ٠٠٠
١٩٤٣	٢٧٩ ٨٧٤ ٠٠٠
١٩٤٤	٣٥٠ ٣٤٦ ٠٠٠
١٩٤٩	٤١٣ ٢٦٢ ٠٠٠

وقدرت الثروة في سوريا ولبنان في عام ١٩١٤ حسبما جاء في تقدير جمعية الاقتصاد السياسي اللبنانية بنحو من خمسة عشر مليون ليرة ذهبية . النصف نقود والآخر بضائع . وفي عام ١٩٤٦ تصاعدت الى (٤٢) مليوناً منها (١٤) نقود ومعادن ثمينة ومثلها اوراق نقد متداول وودائع مصرفية وسندات محلية ، ومنها (١٢) مليوناً سندات اجنبية وأموال في الخارج ومنها (٢) مليون بضائع .

وتدرج استيرادهما من الآلات الصناعية المختلفة ، كما يلي بالاطنان وكما ورد في النظام الاقتصادي للاستاذ سعيد حمادة :

العام	الكمية
١٩٢٥	١ ٤٢٠
١٩٣٠	٣ ١٥٩
١٩٣٢	١٩ ٨٦٣
١٩٣٣	٤٤ ١٠٧

وفي ما تلا الحرب الاخيرة اضطرد تضخم أرقام استيراد الآلات الصناعية والزراعية والمحركات . وسجلت سوريا في اعوام ١٩٤٩-١٩٥١ استيراداً للآلة المختلفة منقطع النظير .

ولنأت على ايضاح نمو سوريا ونمو لبنان الاقتصادي منفردين :

سوريا

يصح ان نرجع الى الماضي لنتبين الفارق في الطابع الاقتصادي بين اليوم والأمس البعيد . ويذكرني هذا بما كتبه قنصل فرنسا في حلب عام ١٨٥٠ عن ميدان العمل والكسب في الشهباء منذ قرن مضى . حيث يقول ان حياة الأهلين اليومية على نمط واحد اليوم شبيه بالبارحة . والغد يشبه اليوم . الا عند حلول العيدين وذهاب الحجاج الى مكة ورجوعهم منها . ان اصحاب المهن يبدأون بالعمل صباحاً . والذين يعيشون من وارداتهم يقضون اكثر اوقاتهم على مضاجعهم ، والذين ليس لديهم عمل ، أو وارد يقضون ساعاتهم في المقاهي في انتظار فرصة لكسب بضعة قروش لقوت يومهم .

هذا ما كتب عن حلب قبل مائة عام . فلو بعث هذا القنصل حياً وشاهد بام عينه ميادين العمل والانتاج المختلفة اليوم فما تراه يكتب ؟ ان تقرير الكسندر جيب عن سوريا يفيد انه تمكن زيادة الاراضي الزراعية (٩٠) في المائة . وقد باشرت سوريا تدريجاً تحقيق نبوءة الكسندر جيب فتحيي الارض . وها ان زراعة القطن وحركة تصديره تسجل التقدم التالي :

العام	المساحة بالهكتار	الانتاج بالاطنان
١٩٢٣	٨٥٠٠	٢٥٠٠
١٩٤٦	١٩٨٣٧	٤٧٨٤
١٩٤٩	٢٥٢٠٦	١٣٣٢٣
١٩٥٠	٧٧٩٦١	٣٥٠٠٠
١٩٥١	١٥٠٠٠٠	٤٥٠٠٠

ولقد أمكن لسوريا ان تمسح من اراضيها حتى عام ١٩٥٠ ما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف من الهكتارات أي (٤٠) في المائة من الاراضي الملحوظ

مسحها . وتقدر مساحة سوريا بثمانية عشر مليون هكتار ، منها (٩) ملايين قابلة للزراعة ، المزروع منها النصف ، ويسقى منها (٩٠) في المائة من مياه الامطار وما تبقى أي (٣٠٠) الف هكتار يسقى بمياه الأنهر والينابيع . وتتمثل مشاريع الري في سوريا ما تحقق منها وما هو منوي التحقيق في المشاريع التالية التي وصفها الاستاذ كاظم الجزار بما خلاصته :

١ ـ ري حمص وحماة : وقد روى (٢٢) الف هكتار . ويستمد هذا المشروع مياهه من بحيرة قطينة التي تستطيع خزن (٢٠٠) مليون متر مكعب بواسطة سدها.

٢ ـ مشروع ري الخابور : ويروي (٩) آلاف هكتار على الضفة اليسرى من النهر مابين تل مغاص والحسكة وستنجز اعماله في السنة القادمة.

٣ ـ مشروع المضخ : الذي يستثمر مياه الفيضان ويمكن ان يتناول هذا المشروع من الاراضي «١٦» الف هكتار .

٤ ـ مشروع السن : وهو معد لارواء خمسة آلاف هكتار والمأمول ان ينجز في العام القادم . وتفقاته تبلغ (٤) ملايين ليرة سورية وسيقدم المشروع الطاقة الكهربائية لتنوير بانياس.

٥ ـ مشروع الروج : ويتناول إنشاء نفق لتصريف مياه مستنقع الروج الى وادي العاصي ويمكن ان يحيي من الاراضي ويروي مساحة (٣٥٠٠) هكتار عدا استثمار قوى كهربائية بقوة الفي كيلوات .

٦ ـ مشروع المزيريب : ويروي ثلاثة آلاف هكتار .

مشروع الغاب : الذي يرمي الى تجفيف مستنقع الغاب وإرواء مساحة (٣٥) الف هكتار والمأمول ان يباشر به قريباً . وقد

نشرت الصحف اخيراً نبأ توقيع اتفاقية مع شركة هولندية لاعداد الدراسات اللازمة لتجفيف المستنقعات في حدود ٨٤٠ ٠٠٠ ليرة سورية أكلاف هذه الدراسات.

وهناك مشاريع اخرى صغيرة خاصة على ضفاف العاصي والخابور والفرات قلبت معالم الأرض وحوّلتها الى جنة خضراء غناء. هذا عدا عن توسع في الاراضي الزراعية البعلية. فقد مشت زراعة القمح بالتقدم كما يلي حسبما بينته نشرات دوائر الاحصاء السورية:

العام	المساحة بالهكتار	المحصول بالطن
٩٤٠/٩٣٩	٤٠٥ ٢٥٠	
٩٤٦/٩٤٥	٧٥٠ ١٤٠	
٩٤٧/٩٤٦	٨٤٣ ٤٧٢	٤٠٣ ٨٦٢
٩٤٨/٩٤٧	٧٨٨ ١٠٨	٦٥٦ ٧٢٨
٩٤٩/٩٤٨	٧٤٤ ٨٠٢	٨٨٩ ٣٢٢
٩٥١/٩٥٠	٩٩٢ ٠٠٠	٤٦٤ ٠٠٠

كما مشت الزراعة السورية بوجه عام بتقدم يذكر. فقد كانت المساحات الزراعية عام ٩٣١ نحواً من (١ ٣٥٠ ٠٠٠) هكتاراً. وفي عام ٩٣٩ نحواً من (١ ٩٠٠ ٠٠٠) هكتار. وبلغت عام ٩٥٠ نحواً من (٢ ٥٠٠ ٠٠٠) هكتار. وتأتى نقص المواسم عام ٩٥١/٩٥٠ بسبب الجفاف النادر المثال الذي حل بسوريا مما ألحق بمرافقها الزراعيـــة نقصاً بالغ الأثر. كما ان دودة القطن ذهبت بنصف الموسم المأمول من الاقطان كما هو معلوم.

وفي النواحي المالية والاجتماعية نرى ان عدد السكان قد ازداد في سوريا كما يلي:

العام	العدد
١٩٣١	١ ٨٣٥ ٠٠٠
١٩٣٧	٢ ٣٦٧ ٧٣٤
١٩٥١	٣ ٣٠٣ ٨٥٢

كما ان موازنة الحكومة السورية قد تدرجت تدرجاً يدل على مبلغ تقدم البلاد :

عام	مبلغ الموازنة باللبرات السورية	
١٩٣٩	١١ ٣٥٢ ٤٢٠	
١٩٤١	١٣ ٦٠٣ ٠٠٠	هذه الموازنات غير شاملة لموازنة المفوضية العليا للمصالح المشتركة بين سوريا ولبنان
١٩٤٢	٢٢ ٥٠٠ ٠٠٠	
١٩٤٣	٣٦ ٦٨٠ ٥٠٠	
١٩٤٤	٤٩ ٨٩٥ ٠٠٠	
١٩٤٥	١٠٣ ٦٧٨ ٠٠٠	
١٩٤٦	١٢٩ ٧٠٤ ٠٠٠	
١٩٤٧	١٢٥ ٨٢١ ٠٠٠	
١٩٤٩	١٦٠ ٠٠٠ ٠٠٠	
سنة ٣ / ٩٥٠/٩٥٢	٤٨٠ ٧٢٠ ٠٠٠	

وفي ميدان الانشاء والعمران تصف دوائر الاحصاء السورية ان المساحة الاجمالية للبناء في العاصمة السورية بالأمتار المربعة للطوابق قد اتسعت من (٦٠ ٣٠٠) متر عام ٩٣٩ الى (١٦٥ ٧٥٩) عام ٩٤٩ . وفي ميدان التربية والتعليم نجد ان عدد الحاصلين على شهادة الدراسة الثانوية قد ارتفع من (٢٤) من الذكور عام ١٩٢٨ الى (٢٣٦) من الاناث و(٧٨٢) من الذكور عام ١٩٥٠. وعلى شهادة الدراسة المتوسطة من (٥٥٦) ذكوراً واناثاً عام ٩٤٣ الى (٢٤٠٨) عام ٩٥٠ . والحاصلين على الشهادة الابتدائية ارتفع من (٦٢٤) ذكوراً واناثاً عام ١٩٢٨ الى (١٤ ٩٤٥) عام ١٩٥٠،

كما نجد ان عدد طلاب الجامعات والمدارس السورية اخيراً بلغ (٢٠٦ ٢٩٨) طالباً وان ميزانية الحكومة للمعارف تبلغ (٠٠٠ ٢٦٠ ٣٢) ليرة سورية او ما يوازي ١٨ بالمئة من الموازنة العامة .

اما من ناحية استثمار القوى المائية لتوليد القوى الكهربائية ، فقد انيرت حمص وحماه بواسطة سد حر بنفسه على العاصي . كما انيرت معظم المدن والقصبات والنواحي في سوريا بمحركات مختلفة . وهناك مشروع لتوليد الطاقة عن طريق سد يقام على نهر الفرات تتراوح طاقته بين (٥٠) الفاً و (٩٠) الف كيلوات تمكن من استعمال الآلات الناضحة لارواء مساحة تقدر بتسعماية الف هكتار على ضفتي الفرات . ونرجو ان يكون هذا المشروع قريب التحقيق ان شاء الله .

وإذا رجعنا الى الماضي للقوى الكهربائية لمؤسسة الكهرباء في حلب نجد ان طاقتها الانتاجية العمومية السنوية عام ١٩٣٣ لم تتعد (٤٤٣ ٠٧٢ ٣) كيلوات، وفي عام ١٩٣٦ نحواً من (١٩٦ ٩٧٦ ٨) كيلوات بينما نراها عام ١٩٥١ نحواً من (٩٣٢ ٣٦٢ ٣٦) .

وتبلغ مجموع القوى الكهربائية العمومية اي غير الخاصة في سوريا عام ١٩٥٠ نحواً من (٠٠٠ ٢٧٩ ٨١) كيلوات .

وفي ناحية الصحة العامة لا نكران في التقـــدم الذي لقيته الصحة في سوريا ، وهي ما تزال في سبيل النشاط سواء في المدن او الأرياف . إلا انها بحاجة لتقدم أسرع يساير الحاجة والزمن والواجب ، فالصحة العامة في كل بلد عنوان تقدمه ورفاهيته وفلاحه .

وفي وسط العيش نرى ان سوريا قد أغدقت على اهلها وسكانها خيرات مختلفة متنوعة تمناها بلاد كثيرة . ونظرة واحدة الى الاستهلاك في مواد الغـذاء والكساء تعطينا الدليل على مستقبل احسن من الماضي لتحقيق أمنية غالية هي التوفق في محاربة الفقر والجهل وفي احلال العدالة الاجتماعية .

لقد سجلت الاحصائيات عدد الذبحيات من الحيوانات في سوريا عام ٩٤١ بـ (٤٩٢٠٦٩) رأساً عـدا الذبحيات الخفيـة . بينما بلغت عام ١٩٥١ نحواً من (٦٠٦٢٠٠) رأس . وبهذه المناسبة اذكر ان مجموع تعداد المواشي لعام ١٩٥٢ ، بلغ قرابة ست ملايين رأس ، وقد زادت النسبة حوالي المليون ونصف المليون رأس عن العام الماضي .

أما نشاط سوريا الصناعي فيتمثل بالصناعات التالية المبين انتاجها التقريبي في العام الواحد :

الصناعـــة	عـــدد المعامل او الآلات	الانتاج السنوي
الاسمنت	٢	١٥٠ الف طن او تزيد
غزول القطن	٦٥ الف مغزل	١٠ آلاف طن
» الفيبران	١٢ » »	
صناعة النسيج الحريري الآلية	٣٥٠٠ نول	٤٥٠٠ ـ ٥٠٠٠ طن
المحبكات (التريكوتاج)		٤٧٧ الف قطعة
الجرابات		٢٦٤ الف دستة وكانت عام ١٩٣٢ (٤٦) الفاً
المحفوظات الغذائية	٣ معامل	٩٨٤ طناً
الزجاج	١ »	٢٠ الف طناً
السكر من الشمندر والتكرير	١ »	٢٠ » »
شوكولاته وسكاكر ومربيات		٦٦٣١ طناً
معكرونة		١١٠٠ »
زيوت نباتية	١٠ معامل	١٥٠٠٠ طن
صابون		٥٢٢٣ »

ورق السكاير	١٦٤ مليون دفتر سيكارة
مناشف واغطية مناضد وبشاكير	٢٣٨ ٦٠٠ قطعة
عبـــاءة	١٦٤ ٢٢٠ »
السوائل الكحولية	٧٥١ طناً
السكاير	٢٠٢٥ »

عدا صناعات اخرى راقية نذكر في طليعتها مصابغ الاقمشة وتحضيرها وطبعها ومعامل البلاط ومحالج الأقطان . وفي حلب وحدها ١٠٩٦ دولاب حلج من نوع بلات و٤٧ دولاباً منشارياً ، كما ان في المحافظة ايضاً ٣٣٤ دولاب حلج بلات متفرقة في الاقضيـة ، ومقاشر ارز . وللتدليل على نمو سوريا الصناعي اقول ان عدد انوال النسيج الميكانيكي التي كانت موجودة بحلب عام ١٩٣٤ هو (١٣٤)، بينما انها تحوي اليوم للحرير فقط (٢٥٠٠) نول تقريباً . وكان انتاج حلب من الحرير الاصطناعي ١٩٣٥ نحواً من (١٤٠ ٠٠٠) الف متر بينما ان انتاجها اليوم يبلغ نحواً من ثمانيـة عشر مليون متراً تنتجها الانوال الآلية فقط عـــدا الانوال اليدوية .

ولا نكران ان بعض الصناعات الناشئة لم يقدر لها النجاح المرسوم ، وما ذلك إلا بسبب نقص في الدراسات ، وأخطاء في التقدير ، وصعوبات في التنفيذ ، وعقبات في الاستثمار ، والزمان كفيل باصلاح الاخطاء بتعاون مشترك بين الحكومة والاهلين ورجال تلك الصناعات العاملين .

أما في الميدان التجاري ، فقد سجل ميزان سوريا التجاري الخارجي لأول مرة في تاريخ البلاد الحديث ، زيادة في الصادرات عن الواردات عام ١٩٥٠ بمبلغ (١٠ ٢٦٦ ٤٥٨) ليرة سورية . ولولا نقص المواسم الزراعية عام ٩٥١ كما اسلفت لسجلت سوريا ايضاً وفراً ضخماً في ميزانها التجاري بدل النقص الذي اصيب به والبالغ حسب الاحصائيات الجمركية (٢٧ ٨٧٧ ٨٩٠) ليرة سورية . ولكن مع هذا فانه مما لا شك فيه ان مـــيزان المدفوعات السورية قد نما وازدهر بتوسع

التجارة الخارجية واذكر على سبيل المثال ان التجارة السورية البريطانية قد نمت خلال الاربع سنوات الاخيرة كما يلي :

العـــام	المبلغ بالليرات الاسترلينية
١٩٤٧	٢٥٣ ٠٠٠ جنيه
١٩٤٨	٢٩٧ ٠٠٠ »
١٩٤٩	٩٤٠ ٠٠٠ »
١٩٥٠	٢ ٠١٥ ٠٠٠ »

وفي خلال الربع الاول من عام ١٩٥٢ بلغت الصادرات السورية الى بريطانيا (٢٨٨ ٩٥٢ ٥) جنيهاً يقابلها في مثل المدة لعام ١٩٥١ مبلغ (٧٧٩ ٦٠٥ ٢) جنيها وبلغت الصادرات البريطانية الى سوريا في الربع الاول من عام ١٩٥٢ مبلغ (١٤٦ ٣٢٢ ١) جنيهاً ، وهـذا ما يدل على ان هذا الميزان هو لمصلحة التجارة السورية ، كما ان تجارة سوريا مع الولايات المتحدة في التسعة اشهر الاولى لعام ١٩٥١ قد زادت ثلاثة اضعاف تقريباً عما كانت عليه خلال المدة نفسها من عـام ١٩٥٠ صادراً وارداً ، حيث بلغت مستوردات سوريا من اميركا في الاولى نحواً من (٥٠٧ ٠٣٧ ١٨) دولارات، وفي الثانية (٨٢٨ ٨٧٢ ٥) دولاراً ، بينما بلغت الصادرات السورية الى اميركا في الفترة الاولى (٩٨٢ ٠٧٩ ٢١) دولاراً وفي الثانية (٥٥٥ ٧٣٨ ٧) دولاراً. وهذا لأول مرة في تاريخ التجارة الاميركية السورية تزيد فيه الصادرات السورية زيادة تتميز فيها باعتراف الدوائر الاميركيـة ميزة لا تدعيها الا بلدان قليـلة تعد على الاصابع .ويقول المراقبون الاقتصاديون ان سوريا آخذة بانتاج سلع وبضائع اكثر للتصدير،ومقابل هذا احتاجت الى بضائع مستوردة اكثر . كما ان الصحف الفرنسية اخيراً نشرت ان صناعياً فرنسياً كبيراً سيقدم الى سوريا لمباحثة ولاة الأمر في سبيل انشاء مصنع في الشرق للادوات المنزلية والمحركات الكهربائية . ويقول هذا الفرنسي في اجتماع صحفي ان من بين الأسباب التي دعته لاختيار سوريا لتوسع صناعته . ان اقتصادها يؤدي الى جعلها تكفي نفسها بنفسها وبذلك يتسنى لها تحسين احوال سكانها .

وقد نشرت بعض الدوائر الاقتصادية ارقاماً للدخل الفردي لمختلف المهن والفئات كالمزارعين وتجار الماشية والتجار واليد العاملة واصحاب السيارات ووسائط النقل وريع الاراضي الزراعية والعقارات ورواتب موظفي الدولة وموارد الانشاءات والمقاهي والملاهي والسياحة والترانزيت وغيرها ، فقدرتها بمبلغ (١٢٥٠) مليون ليرة سورية ، وان منها عشرة في المئة ارباح للايدي العاملة .

وفي اعتقادي ان هذا الرقم الاساسي مبالغ فيه . وقد استهدف الحكم الحالي في سوريا تنظيماً جديداً في الحياة القومية والاقتصادية والاجتماعية والضرائبية مستوحى من التقدمية التي تضمنها الدستور السوري ، مماشاة لروح العصر ، نرجو ان يكون مواتياً لمصالح البلاد الحقيقية ، وان يسيره دوماً الحرص على تنمية موارد الانتاج والثروة وتنشيط العمل الفردي والجماعي .

لبنان

يكاد يكون لبنان بين البلاد العربية ، البلد الأول الذي ضرب رقماً قياسياً في التقدم الاجتماعي والعمراني ، فقد ملك ناصية التجارة كما استثمر ارضه الضيقة خير استثمار ، ولجأ الى حركة التصنيع ينمي بوساطتها موارد دخله القومي . وهو بحكم موقعه الطبيعي وما خصه الله من مزايا وما انتشر من بنيه في مشارق الارض ومغاربها يحاول دوماً ان يستبق الزمن . والمطلع على ميزانه التجاري الخارجي يتوجس خيفة من عجزه الظاهر ، ولكنه يطمئن على نظامه الاقتصادي من الواردات الاخرى التي تسد هـذا العجز . وقد اثبت ذلك وزير المالية في جلسة مجلسه النيابي في ٢٠ كانون الاول ١٩٥١ ، عندما قال : ان اول ما يسترعي الانتباه في لبنان تزايد نشاطه سنة بعد سنة في جميع مظاهر الحياة العامة والخاصة . وان هذا البلد الضيق المساحة ، الكثيف السكان ، الشحيح الموارد الطبيعية ، الذي لا توازي صادراته خمس مستوردانه يحيا نسبياً حياة هادئة هانئة ، وينمو ويتقدم في معارج الثروة والفلاح . ولقد اتفق الخبراء من وطنيين واجانب على القول بان لهذا البـلد موارد غير منظورة يستقيم معها ميزان حساباته على النحو التالي :

الجانب المدين بالملايين من الليرات السورية		الجانب الدائن	
٤٠٥	مستوردات من الخارج	٩٤	صادرات
١٧	سياحة ونفقات لبنانية في الخارج	٦٥	اعادة التصدير وارباح على المستوردات
١٨	هجرة لبنانية وارباح محولة للخارج	٤٩	سياحة واصطياف ومرافق عامة
٤٤٠			

	٨	السلك الخارجي في لبنان
	٥٠	ارساليات المغتربين
	٥	أسهم واملاك في الخارج
	١	عائدات البترول
	٣٩	معونة دولية الى اللاجئين
	٢٥	رساميل اجنبية موظفة
	٤٩	مصدرات الذهب والباقي من المستورد
	٢٠	ارباح تجارة دولية
	٣٥	صادرات مختلفة وغير رسمية
	٤٤٠	

وإذا تطلعنا الى نقد لبنان المتداول البالغ في آخر ايلول ٩٥١ مبلغ (٢١٠) ملايين ليرة لبنانية ، وكان في عام ٩٣٩ فقط (٢٨٩٩٣٠٠٠) ليرة ، نجد ان نسبة تغطيته في ايلول المذكور هي (٤٢٫٩٦) في المئة من الذهب و(٧٫٠٤) من العملات الاجنبية أي خمسين في المئة ، حسبما ذكرتها منشورات مديرية الاقتصاد اللبنانية .

ويهمنا ان نطلع ايضاً على تدوج الموازنة اللبنانية في الثماني سنوات الاخيرة فنجدهـــا كما يلي عدا عن اعتمادات خاصة بلغت في بحر السنين المذكورة (١٠٦ ٧٢٩ ٩٩٢) ليرة .

السنة	مقدار الموازنة بالليرات اللبنانية
١٩٤٤	٣٤ ٠٢٤ ٠٠٠
١٩٤٥	٤٣ ٧٦٤ ٥٠٠
١٩٤٦	٦٠ ٠٤٦ ٠٠٠
١٩٤٧	٥٨ ٩٠٠ ٠٠٠
١٩٤٨	٦٧ ٠٠٠ ٠٠٠
١٩٤٩	٧٥ ٠٠٠ ٠٠٠
١٩٥٠	٨٥ ٠٠٠ ٠٠٠
١٩٥١	٨٩ ٤٥٠ ٠٠٠

وقد ابتدأت حركة التصنيع عام ٩٣٠/٩٣١ واستمرت بتقدم حتى عام ٩٣٩ وفي عام ١٩٤٤/١٩٤٥ توصلت الصناعات اللبنانية الى انتاج جميع اصناف بضائع الاستهلاك الأساسية . وفي اعوام ٩٤٥/٩٤٩ شهدت المصانع اللبنانية حركة تجديد وتجهيز يندر مثلها في تاريخ بلد صغير الرقعة كلبنان . ومن احصاء نشرته مصلحة الاحصاء العام اللبنانية يتبين لنا عدد المؤسسات الصناعيـة عام ٩٥٠ ومقدار رأس المـال المستثمر بها ، وهو كما يلي وقد قدر بمبلغ ١٠٠ مليون ليرة لبنانية يعمل بها ٢٥ الف عامل .

عدد المؤسسات	رأس المال المستثمر
٢٤٩	من ٥ آلاف الى أقل من ١٠ آلاف ليرة لبنانية
٣٨١	« ١٠ « « « « ٢٥ الفاً « «
١٦٥	« ٢٥ الفاً « « « ٥٠ « « «

١٣٠	«	٥٠	«	«	«	«	١٠٠	الف	«	«
٤٥	«	٢٥٠	«	«	«	«	٥٠٠	«	«	«
٢٩	«	٥٠٠	الف	«	«	«	مليون	«	«	
٢٥	«	مليون ليرة فما فوق								

ليرة لبنانيـة

وهذه الصناعات هي المأكولات وعدد مؤسساتها (٤٠١) ورأسمالها ٢٤ ٧٥٤ ٠٠٠

المشروبات	«	(١٢٢)	«	١٠ ٦٥٠ ٠٠٠
المنسوجات	«	(٦٠)	«	٣٢ ٥٨٧ ٠٠٠
الجلد عدا الأحذية	«	(٦٠)	«	٤ ٥٣٦ ٠٠٠
مستخرجات مناجم غير معدنية		(٩٧)	«	٥٣ ٤١٢ ٠٠٠
الصناعات الكيماوية		(٥٥)	«	٥ ٨٩٩ ٠٠٠
« المعدنية والكهربائية		(٦٠)	«	٧ ٤٣٥ ٠٠٠

وفي نواحي الحياة العملية والعامـة واستثمار المرافق الطبيعية ، نرى ان المشاريع المائية الكهربائية في لبنان مدروسة دراسة عميقة. ويقول الاستاذ جوزيف نجار ان نفقاتها لا تتجاوز (١٤٠) مليون ليرة ، وانه من جراء حصر مياه الامطار على نهر الليطاني في سدين عظيمين يستطاع توليد قوة كهربائية لا تقل عن (١٦٠) الف حصان تروي عشرة آلاف هكتار من اراضي لبنـان الجنوبي . ونرى ان رخص البناء الممنوحة في العاصمة اللبنانية عام ١٩٤٥ تتناول مساحة اجمالية قدرها (١٠٧ ٢٤٦) متراً مربعاً وانها بلغت عام ٩٥٠ مساحة (٢٦٨ ٩٥٣) متراً مربعاً . وسجلت مسالخ لبنان من الذبحيـات عام ١٩٤٠ ما عدده (٣٤٧ ٣٥٣) . وفي عام ١٩٥٠ لم يكن العدد الا مساوياً تقريبـاً ، فقد بلغ (٣٤٧٨٣٢) مما يدل على سير العيش في البلد الشقيق على نمط واحد .

وفي الناحية الزراعية ، مشى لبنان في استثمار جروده وجبـاله بخطى تثير الاعجاب . فهو منتج للفواكه والخضار المختلفة وبعض اصناف الحبوب ، مما لا مجال للتوسع في بيانه .

مصر

ان تدرج عـــدد سكان القطر المصري ينبئ عن سيره في مدارج التقدم القومي والاقتصادي . وهذه الأرقام تسفر عن تلك المدارج بوضوح :

العـام	عـدد السكان
١٨٨٢	٦ ٨٠٤ ٠٢١
١٩٠٠	٩ ٧٣٤ ٠٠٠
١٩١٧	١٢ ٧٥٠ ٩١٨
١٩٢٧	١٤ ١٦٨ ٧٥٦
١٩٣٨	١٦ ٤١٥ ٠٠٠
١٩٥٠	٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ تقريباً

كما ان ميزانية الحكومة المصرية قد نمت وعظمت في غضون أربعة عشر عاماً نمواً يذكر ، والجدول التالي يوضح لنا هذا النمو المضطرد :

السنـة	الايرادات	المصروفات
٩٣٨ – ٩٣٩	٤٤ ٢٠٧ ٠٠٠	٤٧ ٨٨٩ ٠٠٠
٩٤٢ – ٩٤٣	٦٧ ١٤١ ٠٠٠	٥٦ ٥٥٣ ٠٠٠
٩٤٤ – ٩٤٥	٨٧ ٧٣١ ٠٠٠	٨٢ ٠٩٧ ٠٠٠
٩٤٦ – ٩٤٧	١١٢ ٧٩٣ ٠٠٠	١٠٢ ٤٩١ ٠٠٠
٩٤٩ – ٩٥٠	١٧٣ ٥٩٣ ٠٠٠	١٦٣ ٨٠٩ ٠٠٠
٩٥١ – ٩٥٢	٢٣١ ١٠٠ ٠٠٠	٢١٢ ٠٠٠ ٠٠٠

والنقود المتداولة في مصر ما عدا حساب الودائع والعملة المعاونة ازدادت كما يلي كما وردت في نشريات البنك الأهلي الاقتصادية القيمة التي استمد منها كثير من الأرقام :

السنة	بنكنوت مصري
١٩٣٣	١٨ ٤٧٢ ٠٠٠
١٩٤٧	١٤١ ٠٠٠ ٠٠٠
١٩٥٠	١٨٩ ٠٠٠ ٠٠٠
١٩٥١	٢٠١ ٠٠٠ ٠٠٠

وتغطيته من الذهب هي ٦٠ ٥٥٢ ٦٠٦ جنيهات

وتجارة مصر الخارجية سجلت في الأعوام الأخيرة الأرقام التاليـــة في الواردات والصادرات :

السنة	الواردات	الصادرات بالجنيه المصري
١٩١٣	٢٧ ٨٦٥ ١٩٥	٣١ ٦٧٢ ٠٦٥
١٩٢٥	٥٨ ٢٢٥ ٠٠٠	٥٩ ١٩٩ ٠٠٠
١٩٣٢	٣١ ٥٢٨ ١٦٧	٢٨ ٠٧٣ ٦٣٠
١٩٤٥	٦٠ ٤٧٥ ٨٠٠	٤١ ٦٣٠ ٠٠٠
١٩٥٠	٢١٢ ٦٨٢ ٢٠٦	١٧٢ ٩٥٩ ٠١١
١٩٥١	٢٤٢ ٠٠٠ ٠٠٠	١٩٤ ٠٠٠ ٠٠٠

أي ان هناك من العجز في العام الأخير نحواً من (٤٨) مليون جنيه . ولكنه من الثابت ان تجارة مصر الخارجية نمت حتى اصبحت نحو أربعة أمثـال ما كانت عليه قبل الحرب العالمية الأخيرة .

ولا يتسع المجال لتبيان نشاط مصر الزراعي ، فذلك معروف ، ومصر هي اولى وأقدم البلاد العربية في الناحية الزراعية . وتقدر الاراضي الزراعية المزروعة فيها عام ٩٤٩ بنحو (٦ ٩٤٨ ١٣٤) فداناً والفدان ٤ ٢٠١ متراً مربعاً . وكانت عام ٩٣٩ (٥ ٨٢٢ ٠٠٠) فدان وعام ٩٢٦ كانت (٣ ٨٨٢ ٣٧٠) فداناً . وقـدر

الدخل الزراعي عام ٩٤٦/٩٤٥ بنحو (١٤٩ ٢٣١ ٠٦٣) جنيهـــاً . وقدر انتاج القطر من الاقطان عام ٩٤٩ بـ (٨ ١٩٦ ٠٠٠) قنطار . وعام ٩٥٠ بثمانية ملايين و (٢٢٠) الف قنطار مصري (ماية ليبرة) او ٤٤٩ كيلو . وعام ٩٥١ نقص الموسم ٨٠٠ الف قنطار عن ذلك برغم عدم زرع المساحات المزروعة . وحيث ان الزراعة الأرز في مصر كل الشأن فاني اذكر متوسط الانتـاج والصادر في غضون ثلاثين عاماً . معتمداً على نشرة البنك الاهلي المصري ونشرات غرف التجارة المصرية في الاسكندرية والقاهرة :

السنة	انتاج من شعير الارز بالاردب ٩٤٥ ك والرشيدي ١/٢ ٢٩٠ك	قيمة الصادر من الأرز بالجنيه
متوسط اعوام ٩٢٤/٩٢٠	٢٣٢ ٠٠٠	٣٥١ ٢٧٠
« « ٩٢٩/٩٢٥	٣٧٦ ٠٠٠	٥٢١ ٣٢٦
« « ٩٣٩/٩٣٥	٧٢٤ ٠٠٠	١٠ ٠٢٦ ٨٢٤
« « ١٩٤٥	٩١٧ ٠٠٠	٤ ٠٥٦ ٤٦٩
« « ١٩٤٧	١ ٣٥١ ٠٠٠	٦ ١١٣ ١١٣
« « ١٩٤٨	١ ٣٨٤ ٠٠٠	١٦ ٠٦٣ ٦٣٠
« « ١٩٥٠		٠٧ ٣٦٠ ٠٠٠

واذا أردنا التطلع الى النواحي الاخرى الاجتماعية والاقتصادية والضرائبية في مصر ، نجد انه لم يكن لها حق في جباية الضرائب من كافة سكانها حتى عام ٩٣٨ حيث وضعت التشريعات الضرائبية الاولى . وعنـدما مشت مصر في طريق التصنيع ، أوجدت لنفسها مرفقاً ثانياً هاماً كثير المنافع ، زاد دخله على دخـــل الزراعة وقد قدرت الرساميل الصناعية عام ٩٤٨ بمبلغ (٦٩ ٩٠٨ ١٧١) جنيهـاً مصرياً، وبلغت قيمة المنتجات عمومـاً (٢٠٨ ٧٧٢ ٤٤٣) جنيهاً . فصناعة الغزل برزت بقوة عام ٩٣٧ وسارت في سبيل الارتقـاء فبلغت عام ٩٤٦ قرابة (٣٣٠) الف مغزل ، وفي عام ١٩٥٠ نصف مليون ، بمجموع انتاجها من الغزول (٤٩) الف

طن تصدر منها للخارج (٢٦٣ ٥) ويستهلك الباقي في الصناعات المحلية التي تحوي من الانوال اليدوية خمسين الف نول . ومن الانوال الميكانيكية (١٥٨٠٠) . وكان عدد الاولى عام ٩٤٩ أربعة وثلاثين الف فقط . وبواسطة حركة هذه الانوال أمكن لمصر أن تقل من الوارد الاجنبي من الغزول والاقمشة القطنية تدريجياً حتى أصبح الاستيراد هيناً كما يأتي :

العام	الواردات بالاطنان
٩١٠ - ٩١٤	٣١ ٢٠٠
٩٢٠ - ٩٢٤	٣٥ ٤٠٠
٩٣٠ - ٩٣٤	٢٧ ٢٠٠
٩٣٥ - ٩٣٩	٢١ ٣٠٠
٩٤٦ - ٩٥٠	٤ ٥٠٠

أي ان وارد النسيج الى مصر انخفض من (٥٠) مليون ياردة عام ٩٣٨ الى مليونين ونصف فقط عام ٩٥٠ . ولقد قدّر رأسمال صناعة المنسوجات القطنية أخيراً بخمسة وعشرين مليون جنيه . وقد بلغ استهلاك مصانع الغزل من القطن المصري ما يلي :

السنة	مقدار الاستهلاك بالقنطار المصري
١٩٠٠ - ١٩٠٤	٢٠٤ ٠٠٠
١٩١٥ - ١٩١٩	٥٤٤ ٠٠٠
١٩٣٠ - ١٩٣٤	١ ٧٦٨ ٠٠٠
١٩٣٥ - ١٩٣٩	٥ ١٣٤ ٠٠٠
١٩٤٠ - ١٩٤٤	٨ ٦٨٠ ٠٠٠
١٩٤٥ - ١٩٤٩	١١ ٧١٠ ٠٠٠

واذا استعرضنا تدرج استيراد آلات النسيج بمصر منذ عام ١٩٤٠ لوجدناه ١١٦٨ طناً ، و١٧٨٣ عام ٩٤٢ و٨٨٧ ١٣ عام ١٩٤٧ و ١٧٩٦٠ طناً عام ٩٤٨. وبلغ الانتاج المحلي من المنسوجات الحريرية عام ٩٤٩ نحواً من (١٨ ٤٢٧ ٩٠٣) متراً.

ومن الصناعات المذكورة في مصر صناعة السكر المستخرج من قصب السكر . وساعدت هذه الصناعة المحليـة ايضاً على زيادة الاستهلاك الذي كان عام ٩٤٥/٩٤٦ نحواً من (١٥٨) الف طن والانتاج المحلي (١٦٧) الف طن ، فارتفع عام ٩٤٩/٩٥٠ الى (٢٦٢ ٧٨٥) طناً استهلاكاً و (١٨٥) الف طن انتاجاً .

ثم صناعة استخراج الزيوت النباتية التي ارتفعت من عصير مليوني اردب من البذرة (الاردب ٢٫٧٠ ك) قبل الحرب الاخيرة الى خمسة ملايين عام ٩٤٩ . وفي مقدور المعاصر المصرية انتاج عصير سبعة ملايين اردب من بذرة القطن .

ثم صناعة حلج الاقطان وهي من أقدم الصناعات المصرية وتحوي (١١٦) محلجاً تضم نيفاً وستة آلاف أردب دولاب حلج ، تحلج زيادة عن ثمانيـة ملايين قنطار مصري أو نحواً من (٣٧٢) ما ثمنه (١٤٩ ٧٥٦ ٠٠٠) جنيه مصري. ومن الغزول ما ثمنه (٢٣٤٢ ٠٠٠) جنيه . وهذان الصادران يشكلان (٨٦٫٧) بالمئـة من مجموع صادرات مصر البالغة (١٧٣) مليون جنيه .

وصناعة الاسمنت وبلغ انتاجها عام ٩٤٩ ما زنته (٨٨٠) الف طن، وصناعة الاسمدة ، وقد انشىء مصنع للاسمدة الآزوتية في السويس وقدرته الانتاجية (٢٠٠) الف طن في السنة . كما بلغ انتاج سماد سوبرفوسفات الجير سنة (١٩٥٠) نحواً من (٦٩٣) الف طن ، وينتظر انشاء مصنع آخر للاسمدة الكيماوية بعد كهربة خزان اسوان لانتاج (٤٣٥) الف طن . وصناعة انتاج البترول وقد ارتفعت من (١٧١) الف طن عام ٩٣٧ الى اربعـــة ملايين طن عام ٩٤٩ . وصناعة المستحضرات الصيدلانية وقد بلغ انتاجها عام ٩٤٩ عشرة أمثال ما كان عليه عام ٩٢٩ . وصناعة المحفوظات التي بلغت قدرتها الانتاجية ثلاثة آلاف طن من عصير البندورة وخمسة آلاف طن من الخضر والفواكه ، وستـة آلاف من البصل المجفف والثوم والفين

من الطحوم ، وللدلالة على تقدم صناعة المعلبات في مصر اقول ان وارد البندورة المحفوظة الذي كان عام ٩٣٨ نحواً من (٥٠٧ ٤٣٦) كيلوات قد تنازل عام ٩٤٨ الى (٤٠٦ ٥٤) كيلوات فقط بسبب قيام الصناعات المحلية .

واذا استعرضنا القوى الكهربائية العامة في القاهرة والاسكندرية لوجدناها في الاولى (ادارة الغاز والكهرباء) عام ٩٣٩ بمقدار (٩٩٧ ٩٢٤ ٤٨) كيلوات . وقد ارتفعت عام ٩٥٠ الى (٤٣٠ ٤٧٧ ١٤٤) كيلوات . ونجدها في الثانية (شركة ليبون) (٠٠٠ ٩٩٤ ٢٦) عام ٩٣٩ وقد ارتفعت عام ٩٥٠ الى (٨٦١ ٩٤٠ ١٤٩) كيلوات . كما نجد ان المصانع التي ليس لديهـــا قوى خاصة محركة في القاهرة والاسكندرية قـد ارتفع استهلاكها من (٧١٥ ٦٣٥ ٦٦) كيلوات عام ٩٣٩ الى (٥١٣ ٠٧٠ ٢١٦) عام ٩٥٠.

وهذه الارقام مأخوذة عن مجلة الغرفة التجارية المصرية بالاسكندرية ويعتبر مشروع كهربة خزان اسوان اعظم مشروع صناعي حكومي في مصر ، وسيوفر للمصريين عند الانتهاء منه الاستفادة من (١٥٠٠) مليون كيلوات من الكهرباء سنوياً وستساعد هذه القوة الكهربائية على انتاج (٤٠٠) الف طن من السماد الكيماوي ، و(٠٠٠ ٩٢) طن من الفولاذ ويستخدم ما تبقى من هذه القوة في مشاريع الري والمواصلات ووجوه التوسع الاقتصادي الاخرى .

العراق

يحاول العراق إحياء ماضيه الاقتصادي الزاهر ، يوم كان ما بين النهرين أهراء العالم القديم المعروف . وتضاعف سكانه اليوم عما كان عليه عام ١٩١٩ يدلنا دلالة صريحة على مبلغ نمو اقتصادياته .

واما تدرج ازدياد السكان فتدل عليه الارقام التالية :

إحصاء عام	نسمة
١٩١٩	٢ ٨٤٩ ٢٧٢
١٩٣٥	٣ ٢١٤ ١٧٣
١٩٣٨	٤ ٥٠٠ ٠٠٠
١٩٤٩	٥ ٥٠٠ ٠٠٠

كما ان تجارته الخارجية كما جاء في أبحاث مجلة غرفة تجارة بغداد القيمة تدرجت في مضمار التقدم ، حيث بلغت عام ٩٢٠ اربعة أضعاف ما كانت عليه عام ١٩١٢ . وفي عام ١٩٢٥-١٩٢٦ بلغت قيمة البضاعة المصدرة من الانتاج المحلي (٣ ٧٧٢ ٠٣٤) ديناراً . وفي عام ٩٤٢-٩٤٣ بلغت (٤ ٤٧٩ ٨٧١) وفي عام ٩٤٨ (١٠ ٠٠٠ ٠٠٠) دينار . بينما بلغت قيمة البضائع المستوردة في الاعوام المذكورة (٧ ٤٩٤ ٦٩٧) و(١٢ ١٢١ ٧٠٥) و(٣٦ ٠٠٠ ٠٠٠) دينار . ومن أهم صادراته التمور التي زادت اخيراً على (١٠٠) الف طن ، والحبوب على اختلافها والجلود وكذلك الاقطان والصوف وقد بلغ انتاجه عام ٩٥١ نحواً من (١٣٦٠٨) اطنان يقابلها في سوريا (٦٨٠٤) . وفي مصر (٢٩٩٣) . وهـذا ما يدل على الثروة الحيوانية التي يملكها العراق ومنها الاغنام في الدرجة الاولى ، حيث تعد عشرة ملايين رأس ، والماعز تعد ٢٫٥ مليون رأس . وقد تدرج تصدير العراق من النوعين من (١٠٦ ٤١٢) رأساً عام ١٩٤٥ الى (١٤٦ ٣٢٤) رأساً عام ١٩٥١ عدا التصدير الخفي .

والعراق كما نعلم غني بامكانياته الزراعية ، وتقدَّر مساحة الاراضي التي يمكن إرواؤها عند إكمال توسيعات الري بأكثر من (١٤) مليوناً (٨) مشارة (والمشارة نحو من خمسة أفدنة) من أصل (٤٨) مليون صالحة للزراعة يزرع منها الآن قرابة عشرة ملايين مشارة . وقد زادت مساحة الاراضي الزراعية في العراق بمعدل (٢٠٠) الف مشارة سنوياً خلال ربع القرن الماضي . ومن السدود للارواء في العراق سد الكوت الذي يؤمن إسقاء اراض تزيد مساحتها على (٧٠٠) الف مشارة كانت سابقاً مهددة بالقحط . كما ان انجاز بقية الاقنية المكملة لهذا المشروع

ستحيي (١ ٢٠٠ ٠٠٠) مشارة وبالاجمال فان مشاريع الري سيحقق إرواء ثمانية ملايين هكتار وهي اليوم لا تتجاوز (٣ ٤٠٠ ٠٠٠) هكتار .

ولقد خطا العراق خطوة ثابتة في بنائه الصناعي قبيل الحرب الثانية ، على اثر تأسيس المصرف الزراعي الصناعي وإقدام بعض المتمولين العراقيين على تأسيس الشركات الخاصة والعامة . ومن هذه الشركات شركة الاسمنت العراقية وشركات محالج الاقطان وشركة استخراج الزيوت النباتية وشركة الصابون . وكان الفضل الاول المغفور له فيصل الاول في تشجيعه للانشاء الصناعي من قبل في عام ٩٢٩/ ٩٣٠ حيث تأسست في عهده شركة تجارة وحلج الاقطان العراقية المحدودة ، كما تأسس معمل للنسيج الصوفي ، ومعامل عـــدة للسكاير والدباغات في الكاظمية والاعظمية ومعامل الآجر . واتبعت وسائل حديثة لترقية صناعة التمور والجلود ، كما قام العراق منذ عام ٩٣٥ بتأسيس صناعة النسيج الحريري ، حيث تنتشر مع الايام وتوفر عليه مالاً كثيراً .

وتحوي شركة الغزل والنسيج في العراق التي تأسست عقب الحرب الثانية (١٥) الف مغزل و(٢٨٤) نولاً حيث تسد حاجته من الغزول . ولهذا فقد منع استيرادها منذ عام ٩٤٩ ، وكان يستورد قبل ذلك سنوياً نحو من أربعة آلاف بالة معدل قيمتها نصف مليون دينار .

ويستعد هذا المعمل لتبلغ مغازله (٢٢ ٠٠٠) مغزلاً و (٥٠٠) نول وبهذا تتمكن الشركة المشار اليها من انتاج (١٥) مليون باردة من الأقمشة أو نحواً من (٦٠-٧٠) بالمئة من الاستيراد السنوي .

وقد كان في العراق عام ١٩٤٨ نحواً من (٥٧) مشروعاً صناعياً رأسمالها (٤ ٥٠٠ ٠٠٠) دينار فارتفعت مشاريعه عام ٩٥٠ الى اكثر من ثمانين مشروعاً ، وبلغ عـدد عمالها (٤٨ ٢٩٦) عاملاً منهم (١٣ ١٣٣) يشتغلون في صناعة النفط و(٨٠٦٤) في المؤسسات الحكومية .

ويقوم العراق الآن بتشييد مصفى للبترول على بعد (١٥) كيلومتراً من بغداد يتسع الى مليون طن . وقد رست مناقصة تشييده على شركة امريكية وقد حصل بموجب اتفاقه الأخير مع شركات النفط على ما يحتاج اليـــه من نفط خام بسعر قدره خمسة شلنات ونصف أي بسعر الكلفة في حين ان سعره (١٢٠) شلناً في البحر الابيض .

وفي حقل التحري عن المعادن ، تقوم تحريات عن مادة الكبريت في بعض الأماكن. وتبلغ ميزانية الحكومة العراقية لعام ١٩٥٢ الحالي (٤٤١ ٠٤٩ ٣٣) ديناراً للنفقات و (٠٠٠ ١٢٦ ٣٦) دينار للواردات .

وتبلغ ميزانية الحكومة العراقية لعام ١٩٥٢ نحواً من (٤٤١ ٠٤٩ ٣٣) ديناراً للنفقات و (٠٠٠ ١٢٦ ٣٦) للواردات . أي بوفر يبلغ (٥٥٩ ٠٧٦ ٣) ديناراً .

ولقد نشر البنك الدولي للانشاء والتعمير في نيويورك نص التوصيات التي وضعتها بعثة البنك التي زارت العراق في شبـــاط ٩٥١ ومنهـا يدرك ان للعراق امكانيات عظيمة تؤهله للتقدم الاقتصادي ، فوفرة أنهاره كافية لري تربته الغنية . وان النمو السريع في انتاج النفط لا يزيد دخل البـــلاد فحسب ، بـل يساعد في الحصول على القوى والمواد الخام اللازمة لتقدم الصناعة والزراعة ووسائل النقل ، وان عـدد سكانه قليل بالنسبة الى موارده وان السبب في انخفاض مستوى المعيشة هو قلة الانتاج ، على ان ذلك لا يمنع من القول ان العراق على عتبة ازدهار عظيم سيشرق نوره قريباً .

في سنة ١٩٥٦ سيرتفع دخل النفط الى (٥٩) مليون دينار سنوياً ، والى مجموع صاف يبلغ ٢١٤ مليون دينار عراقي في السنوات الخمس المقبلة . وانه بالنسبة الى كون ستين بالمئة من السكان يعنون بالزراعة ، وكون الصناعة والتجارة تعتمدان على الفلاحة والزراعة ، فان الاهتمام يوجه الى تحسين الزراعة .

وان البعثة تحبـذ توزيع اراضي الدولة على الفلاحين الذين لا ارض لهم ،

وترتأي ان يدرس نظام التملك للارض أحد الخبراء ، كما توصي اللجنـــة بالتوسع الصناعي ، وفي المقدمة تأسيس مصنع كيماوي قرب كركوك لانتاج نصف مليون طن من سماد كبريت النشادر و(١٠٠) الف طن من الكبريت العنصري ، و «١٠» آلاف طن من الكربون الأسود الناعم و (٣٠٠) الف طن من الاسمنت . كما توصي بتوفير الثقافة للشعب ووقايته من الامراض ، وان نفقات برنامج الاعمار هذه تقدر بـ (١٦٨) مليون دينار لسنين (١٩٥٣-١٩٥٧) .

وبغداد التي كانت قبل ربع قرن مدينة تغزوها رمال الصحراء تحوي الآن اكثر من مئة حديقة عامة . وبلغ عدد الاشجار المغروسة في شوارعها (٥٣ ٩٥٢) شجرة . ويبلغ عـدد سكانها مليون نسمة ، وتحوي (١٥) معملاً للبلاط و (٢١) للثلج و(٢٨) للدقيق و (٨٨) للحلويات و(١٠٨) للنجارة و «٣٤» للنسيج و (٦٩) مطبعة و (٥) للحليب و(٣) للزجاج ، ويبلغ استهلاك السكان للماء في الصيف «١٢» مليون غالون في اليوم الواحد .

الاردن وفلسطين

ليس الكلام عن فلسطين بمجد الآن ، ولكنني اتكلم عن الاردن فأقول ان حاضرته عمان ضربت رقماً قياسياً عالمياً في الانشاء والارتقاء ، فقـد انتقلت من قرية كبيرة الى بلد يزخر بكل معالم التقدم . والاردن تمشي في التجـــارة حسبما تساعد امكانياتها وموقعها الجغرافي بين فلسطين وسوريا . وتتميز تجارتهـــا بوفرة الاستيراد إذ بلغت قيمته عام ٩٤٨ نحواً من (٠٠٠ ٦٠٤ ١٠) دينار . وعام ٩٤٩ نحواً من (٠٠٠ ٧٥٧ ١٢) دينار . وعام ١٩٥٠ نحواً من (٠٠٠ ٧٦٦ ١٠) دينار. بينما لم تبلغ الصادرات الاردنية سوى (٧٢٨) الف دينار عام ٩٤٨ و(٠٠٠ ٠٥٣ ١) عام ٩٤٩ و (٠٠٠ ٥٧٣ ١) عام ٩٥٠ . ومعظم هذه الصادرات هي من الحاصلات الرئيسية والمواد الطبيعية الخام ، وتصدر غالباً الى سوريا ولبنان .

وفي الميدان الصناعي أخذت الاردن بأسباب الصناعة الحديثة ، فهي تنشئ اليوم معملاً للاسمنت ينتج (٢٠٠) طن يومياً . كما تحاول ان تنشئ شركة مساهمة لغزل القطن ونسجه . وقد منحت الحكومة الاردنية الهاشمية كلاً من المشروعين امتياز حصر درء الأخطار المزاحة في بلد صغير ناشئ . وارتقت فيه صناعة الطحن . وفي عمان وحدها ثلاث مطاحن كبرى .

وأما في الميدان الزراعي ، فالاردن منتجة للحبوب والمعروف عن ارضها ان زيادة وسائل الري فيها ممكنة فضلاً عن بقاء كميات عظيمة من مياه الفيضان يمكن استغلالها أحسن استغلال للزراعة والتوسع في الاراضي الزراعية . كما أن جبالها ووهادها قابلة كثيراً للتحريج ، وقد كانت عامرة ايام الرومان وايام الحكم العربي .

الجزيرة العربية

يصعب على المدقق تصوير حقيقة التطور الذي صارت اليه حال الجزيرة العربية في مدى السنوات العشر الاخيرة « من البحر الأحمر الى الخليج الفارسي ومن صحراء الشام الى المحيط الهندي » . فهذا شرقي الجزيرة العربية تتحول صحاريه من مهجورة الى مطروقة ومعمورة تجتازها السيارات والسبل والسكك الحديدية ، وهذه مدن حديثة بنيت على ارضها في مدى أربع سنوات ، الظهران ورأس تنورة والعقيق ورأس المشعاب وكل منها آية في الاتقان والكمال .

والعدوى : كما يقول صاحب جريدة الحياة في وصف رحلته الأخيرة ، تنتقل منها الى الدساكر العربية من بدوية وحضرية فتأخذ بدورها في التحول من اكوام هزيلة من بيوت اللبن والمضارب الى مدن حديثة . وهكذا اصبحت اليوم الدمام والخبر والقطيف والهفوف وغيرها نواة مدن حديثة .. والله يرحمك ايها الفيلسوف العربي امين الريحاني اذ سجل كتابك ملوك العرب حالة الصحراء في

الامس البعيد عام ١٩٢٢ عندما قطعتها على ظهور الابل، وأقمت تحت خيامها تضنيك الحمى ولا تجد لك طبيباً مداوياً . ما أظهر البون الشاسع بين ماضي هذه البـــلاد وحاضرهـــا .

في العام الماضي كانت حصة المملكة السعودية من واردات البترول (٢٠٠) مليون دولار . وهذه الاموال مع ما تولده من ثروة صناعية وتجارية واجتماعيـة تساعد على تطور الحياة في الجزيرة ، مهما ضاع منهـا من حق علم . وها ان عاهل الجزيرة العربية يعمل لانشاء خط حديدي يصل عاصمة الرياض ـ بعد ان وصلت في بحر الخليج الفارسي ـ بالمدينـة المنورة فجدة على البحر الاحمر ، وطوله (١٢٠٠) كيلومتر .

واذا ذكر انتاج البترول العربي فيجب ان نذكر باختصار الانتاج الاخير لعام ٩٥١ فقد انتجت المملكة السعودية (٣٨) مليون طن ، والكويت (٢٩) مليوناً والعراق ثمانية ملايين وتتخذ شركة النفط العراقية عدتها لمضاعفة انتاجها الى (١٥) مليوناً . وقطر وانتاجها مليونان ، والبحرين وانتاجها مليون ونصف من الاطنان. وقد بلغ مجموع الانتاج العام ٩٧ مليوناً ونصفاً ،ولو استفاق العرب لواجبهم الكامل لفعلوا العجائب بهذا الانتاج الضخم ليكونوا أعزاء الجانب أمام الجميع .

ان الزائر لجدة ميناء الحجاز يسجل للمدينة تقدماً بيناً ، فالعمران يتقدم ويضطرد والكهرباء تعمّ المدينة ومياه وادي فاطمة تعقم وتوزع على الاهلين بعد ان كانوا يشربون ماء البحر المقطر والصحة آخذة ايضاً كالمعارف بأسباب التقدم . كما ان مكة المكرمة سيصبح لها قريباً محطة كهربائية حيث تولت احدى الشركات مهمة انشائها بمقاولة بلغت اكلافها (٢٥٠) الف ليرة استرلينية،وقد وقعت الحكومة السعودية اخيراً أربع اتفاقيات للمساعدات الفنية تتلخص باقامة مصنع سماد لتحويل الغاز الطبيعي في حقول الزيت الى سماد وإنشاء معهد زراعي ومحطة تجارب في وادي جيزان ومشروع لتحسين موارد المياه والاراضي بوادي جيزان وتحسين موارد الأسماك في البحر الاحمر لتحسين صناعة صيد السمك . وستقوم الحكومة السعودية

بموجب هذه الاتفاقيات بتمويل هذه المشاريع. ونشرت الصحف اخيراً نبأ اكتشاف مناجم غنية بالحديد والكبريت في المناطق الشمالية الغربية .

وانا لا انكر ان الجزيرة بحاجة ماسة لعدالة اجتماعية ومحاربة للفقر والجهل ليكون هذا التقدم جامعاً شاملاً ولكنني أميل الى التفاؤل فأرجو ان يكفل الزمن ونمو موارد البلاد الطبيعية الاصلاح المنشود الواجب .

ويحدثنا زوار الكويت عن الاصلاحات الاجتماعية التي يقوم بها اميرها حيث ينفق نصف دخله من البترول على البلاد ، كانشاء المستشفيات والمعاهد العلمية والاجتماعيـة والمرافق العامة ، فيفرح كل مخلص لتقدم الجزيرة وللشعور بالواجب العام الذي يجب ان يتحلى به كل حاكم عربي لرفع مستوى الامة العربية ولاحلالها المحل اللائق بها بين الامم ، وقد تخلصت من الجهالة والفاقـة ومشت في قافلة الامم الحيـة والتطور ، واستفادت من وجود العنصر الاساسي الحيوي في الجزيرة وهو البترول الذي كان يمكن ان يكون سلاحاً صارماً يحول دون كارثة فلسطين لم تشهره وعجزت عن الافادة من وجوده ، فعسى ان يقدر لها المستقبل ان تفيد منه ايجابياً فتنفق وارداته في تقوية العرب واستعادة ما فقدوه من ارض وكرامة .

القسم الثاني

موقف العرب اقتصادياً من اسرائيل

تعمل اسرائيل في البقعة التي غزتها من بلاد العرب، على زيادة عـــدد سكانها بالرغم من ان مساحة فلسطين لا يمكنها ان تستوعب غير مليوني نسمة، الا اذا أمكن تحقيق هذه الزيادة على حساب مساحات اخرى تضم من الدول المجاورة. واسرائيل تنوي ان يصعد رقم سكانهـا الى (٣) ملايين نسمة في آخر عام ١٩٥٣ وفيها اليوم مليون ونصف . والى خمســة ملايين عام ١٩٥٧ والى ستة ملايين عام ١٩٦٠. وهي تسخّر العقل والعلم والمعرفة والمال لتنفيذ برنامجها السياسي والاقتصادي وفي سبيل ذلك فهي تطمع في القبض على ناصية اقتصاديات البلاد العربيـة الغزيرة المواد لتقويم دعائم اسرائيـــل ذاتها لأنها لن تتمكن بموارد الارض التي احتلتها وحدها ، وهي محدودة ، من تنفيـذ برنامجها الصناعي للاستيلاء على اسواق الشرق الأوسط الا بالاستعانة بأسواقه والاستيلاء عليها بتأثير نقص المال لديه والخبرة الفنية ولهذا كان من أهم أغراض اسرائيل القضاء على النهضة الصناعية في البلاد العربية وإضعاف اقتصادياتها وغرضها الأول ان تكون فلسطين اليهودية البلاد الصناعيـة الوحيدة المنتجة في هذا الشرق ، وان تبقى البلاد العربية بلاداً زراعية فقط لتموين اسرائيل بما يلزمها من مواد غذائية .

وهذا الهدف قديم عند الصهيونية ، فقد نشرت الكومرس دولوفان في عام ١٩٣٥ مقتطفات من خطاب الدكتور وايزمن رئيس جمهورية اسرائيل اليوم عن الصناعة في فلسطين جاء فيها قوله عن التوسع الصناعي فيها ، ان معرفـة الاسواق المجاورة وتنظيم العمل والمقدرة على المنافسة من أول شروط رقي الصناعـة ، وانه يجب ان يحسب حساب لمنافسة سوريا حيث شروط توسع الصناعة فيها أوفق منها في فلسطين وأهمها رخص اجور اليد العاملة .

ان اسرائيل والدوائر الصهيونية ، في سبيل إدراك غاياتها المشار اليها ، تبذل نشاطاً منقطع النظير للحصول على الاموال. ليس فقط في سبيل إنقاذ اسرائيل من أزمة التضخم الخانقة التي صارت اليها بل لمساعدة الانشاء الصناعي . وهي لهذا تعقد القروض وتستجدي العالم وخاصة امريكا للحصول على المال، وتعمل المستحيل لتحقيق برامجها الانشائية الزراعية والصناعية . فقد نشرت الصحف في ٤ نيسان ٩٥٢ ان اميركا سمحت بصرف مبلغ آخر لمساعدة اسرائيل بمقدار (١٢) مليون دولار . كما اذاع راديو اميركا أخيراً نبأ إقرار قرض جديد لاسرائيل قدره ٢٠ مليون . كما اعلن قبلاً ان اتفاقاً ابرم بين الوكالة اليهودية ومندوبين عن اصحاب رؤوس الاموال في اسوج للحصول على قرض بعشرة ملايين دولار خلال خمس سنوات على ان يخصص لشراء معدات زراعية .

وهذه غولدا مايرسون وزيرة العمل الاسرائيلية التي تقوم بحملة لتشجيع جباية الاموال لمساعدة اسرائيل في امريكا تخطب في ٢٨ آذار الماضي وتقول : « ان اسرائيل لن تستطيع تحقيق استقلالها الاقتصادي الا بعد مدة تتراوح بين أربع وسبع سنوات ، وان المصانع الاسرائيلية تصدر الى اوروبا سيارات وسلعاً ومواد اخرى ، وان هضاباً واراضي وصفت في الماضي بأنها غير صالحة للزراعة ولا تستحق أية نفقة أو جهد لاحيائها ، قد انتعشت الآن في اسرائيل وتحولت الى مناطق زراعية تعطي محصولاً لا يستهان به » . انتهى

والحقيقة ان اسرائيل تحاول استخدام قوى الانسان الكاملة لاستثمار مرافق البلد الذي اغتصبته . فقد وصل الى تل ابيب مؤخراً الاستاذ هاي فانش الخبير في الانتاج الاقتصادي في معهد روزفلت للانتاج في الولايات المتحدة، ليدرس في المعهد الاسرائيلي سنة كاملة الوسائل اللازمة لزيادة الانتاج اليهودي . ومن المعروف لدى الجميع ان عشرين بالمئة من سكان اسرائيل يعملون في الزراعة وفي ميدان المرافق الطبيعية يلوح في الافق إشعاع يقول بامكان وجود البترول في اسرائيل، وها ان المستر فرانك كاستيل رئيس شركة كونتيننتال يصرح بعد عودته من تل

ايب ، ان التنقيب عن البترول سيبدأ على الغالب في هذه السنة ، وأضاف ان التربة في اسرائيل قد تنطوي على كميات من البترول اكثر من الثروة البترولية في العراق.

ثم ان المهندس اسحق شبيك الموظف في المنظمة اليهودية صرح في نيويورك في مؤتمر صحفي ان منطقة النقب التي كان يظن انها خالية من كل المعادن قد اكتشفت فيها معادن مما قد يجعلها أساساً لثورة صناعية قد تبدأ قريباً ومن بين هذه المعادن الفوسفات والكاولين والنحاس وغيره .

فليحذر العرب اذاً المستقبل ولا تغشهم اذاعات السوء عن مستقبل اسرائيل وعليهم ألا يغتروا وألا يطمئنوا ، فالحديد لا يفله الا الحديد ، والعلم لا يحارب بالجهل . والمال يفعل العجائب في عصرنا المطبوع بطابع المادة لا الروح ، لا سيما بعد ان لفظ بن غوريون خطابه الأخير في احدى المستعمرات اليهودية حيث قال : يجب ألا يدخل في اعتقاد احدكم اننا انهينا حسابنا مع الدول العربية والانتصار الأخير هو في المعركة الأخيرة التي لم تحصل بعد .

نعم ان مدير مالية اسرائيل صرح ان ما يجب ان تنفقه اسرائيل للاستيراد هو (١٨٠) مليون جنيه كحد أدنى لحياة الشعب ، وعلق المعلقون على هذا بأن ميزانية الدولة تقوم على قواعد مصطنعة قوامها (١٠٠) مليون جنيه تقدم اعانة من يهود امريكا . ونعلم ايضاً ان العجز التجاري لعام ١٩٥١ بلغ (١٠٦) ملايين جنيه حيث الواردات قد بلغت (١٢٢) مليون والصادرات (١٦) مليون جنيه فقط . كما ان جريدة شيكاغو ديلي تريبيون نشرت بياناً عن سوء الحال عند اليهود بنتيجة المقاطعة العربية والحصار الاقتصادي الذي يضغط على عنق هذه الدولة . ومما قالته ان « دوث جوزيف » وزير الصناعة والتجارة اليهودية قال ان شهر كانون الأول كان أشد قسوة وأسوأ حالاً من ناحية التموين وانه لذلك لم توزع على الناس بطاقات لحم على الاطلاق ، بل عوضت ببطاقات علب السردين ورب البندورة والخضار المحفوظة . وتفاءل ان يكون كانون الثاني خيراً من سابقه بأن يتراخى الحصار فيصدر اليهود الى البلاد العربية ما يستوردون به مواد غذائية .

ولكن كل هذا ايها العرب يجب ألا يكون داعياً لاستكانتكم واطمئنانكم فاسرائيل تسعى بكل جهدها لتخطي صعابها . ولقد كانت هي الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي أفادت كثيراً من مؤتمر موسكو التجاري الأخير وقد انتجت محادثات المؤتمر عن اتفاقها مع السلطات الروسية وبعض الدول التابعة لها على ان تزيد اسرائيل صادراتها من منتجاتها الصناعية لمحاولة التخلص ولو من جزء من المتاعب التي تعانيها .

الحصار الاقتصادي :

يقول وزير خارجية اسرائيل اثناء زيارته لانكلترا اخيراً : « انه لا يمكن ان يكون في اسرائيل مراكز صناعية إن لم توزع انتاجها في الاقطار العربية المجاورة » وتحاول اسرائيل اليوم بوساطة يهود امريكا ومناسبة قرب انتخابات رئاسة الجمهورية الامريكية ، ان تفرض الصلح على العرب . فقد كتب صاحب جريدة الحياة في عدد ٧ نيسان الحالي يقول ان اليهود استثمروا الحملة الانتخابية السابقة في سنة ١٩٤٨ لقيام دولة اسرائيل وتوفقوا في الحصول عليها .

ولكن تجارب السنوات الأربع الاخيرة التي مرت علمتهم ان اسرائيل لا تستطيع ان تعيش على هذا الشكل ، وانها سائرة الى الخراب الاقتصادي ما لم تنته حالة الحرب مع العرب ويقوم صلح دائم يفتح اسواق البلاد العربية للصناعة اليهودية ويحرر الميزانية الاسرائيلية من النفقات العسكرية الضخمة التي تلتهم دخل الدولة والتبرعات الواردة عليها . انهم يريدون الصلح مع العرب وهم يعرفون انهم لا يستطيعون الحصول عليه مباشرة ، لذلك عزموا على استثمار انتخابات الرئاسة الامريكية الآتية في سبيل ذلك . ويهدف اليهود ايضاً من شائعات الصلح مع العرب الى إيهام الامريكيين بأن الصلح واقع حتماً ليسارع المتمولون الى توظيف اموالهم في اسرائيل .

ففي العام الماضي طرحت اسرائيل قرضاً في الولايات المتحدة بقيمة (٥٠٠) مليون دولار ففشل فشلاً ذريعاً . وحتى الآن لم يدفع من السندات المباعة سوى (٤٨) مليوناً وكان هذا الفشل ضربة للاقتصاديات الاسرائيلية ، فانهارت الليرة الاسرائيلية انهياراً فظيعاً ولولا التبرعات لكانت الضربة قاضية. وكان السبب المباشر لفشل هذا القرض خوف المتمولين من وقوع حرب ثانية بين العرب واليهود . ولا شك في ان لحوادث بالحولة في العام الماضي والموقف الذي وقفه الجيش السوري الباسل منهـــا ، كل الفضل في قطع الطرق على القرض ، فهذه الحوادث حرمت اسرائيل من ملايين الدولارات .

وأعود لأمر الصلح الذي تستهدفه اسرائيل فأقول ان « برودي بنيامين » رئيس الهيئة الصهيونية الامريكية قد اقترح ان يقوم الرئيس ترومان بحملة امريكية تدعو الى عقد مؤتمر صلح عربي يهودي في واشنطن يتولى رئاسته الدكتور بانش.

وها ان السيدة روزفلت عقب عودتها من رحلتها الاخيرة الى الشرق تدعو ايضاً الى الصلح بين العرب واليهود وتقول بضرورة تبـــادل البضائع والخدمات والمعرفة الفنية بينهم . وان العرب واليهود يربحان كثيراً اذا ما تمكنت الامم المتحدة من مصالحتهم وايجاد أساس للتفاهم بينهم . كما جاء في البرقيات الاخيرة ان آخر أمل لليهود هو انتخابات الرئاسة الامريكية حيث يعتمدون على نفوذ جالياتهم في الولايات المتحدة لانتخاب مرشحين مضمونين للحصول على مساعدات ماليـة جديدة من امريكا تسمح لاسرائيل بتخطي المرحلة العصيبة التي تجابهها . لا سيما بعد ان اصبح الرأي العام اليهودي يدرك مبلغ خطر الحالة الاقتصادية السيئة التي وصلت اليهـــا اسرائيل ويشعر بان الازمة دخلت مرحلة عصيبة ، وأخـذ الافلاس يهدد الدولة اكثر مما يهددها في أي وقت مضى ، لا سيما بعد اطلاعه على طلب الدكتور وايزمن خمسة ملايين من الاسترليني كقرض من بريطانيا كما يلاحظ المراقبون ان المنهاج الاقتصادي الذي وضعه بن غوريون في شباط الماضي قد فشل فالتضخم في ازدياد في كل شيء .

يؤلف الدخل الوطني وعدالة توزيعه بين الافراد مقياس رقي الامم . وهذا الدخل هو الذي تستمد منه الدولة جميع وارداتها وهو مصدر ايرادات المؤسسات والافراد ، ولهذا فان ضآلة معدل الدخل الوطني للمواطن تشير الى انتشار الفقر والجهل والامراض وبالتالي تدهور البلد اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً . وهذا لا يتأتى الا بسبب قلة الانتاج الوطني وإهمال استثمار الثروات الطبيعية استثماراً جدياً وما وهبته الطبيعة من مواد أولية وموارد حيوانية ونباتية ومعدنية . لهذا كان واجباً على العرب في كل مكان ان يعملوا في سبيل رفع مستوى افراد الشعب على زيادة معدل الدخل الوطني للفرد وعدالة التوزيع بين ابناء الشعب الواحد .

ان الدخل الفردي على اساس الدولار قدرته المصادر الاجنبية كما يلي: في مصر مئة دولار . وفي سوريا (١١٠) . وفي تركيا ولبنان (١٢٥) . وفي العراق (٨٥) . وفي السعودية (٥٠) . وفي اليمن (٤٠) . وفي ليبيا (٢٥) .

ولكن هذه الارقام لا اعتقد ابداً انها قريبة من الحقيقة لضعف مصادر الاحصاء ، وعلى كل اذا ما قايسنا ذلك مع الدخل الفردي في اوروبا وامريكا نجد بوناً شاسعاً بين دخل الفرد في البلاد العربية والدخل في البلاد الاخرى . ولكن هذا المقياس لا يصح بين بلدان ناشئة فقيرة لم يمض على استقلالها اكثر من سنين معدودة ، وبين بلاد عريقة غنية تسيطر على العالم اجمع . واعتقد ان المقايسة يجب ان تجري بيننا وبين البلاد التي سبقتنا بالاستقلال والانتاج ، كبلاد الشرق الاخرى وبلاد شرق اوروبا المنسلخة عن الحكم العثماني منذ قرن وما يليه .

ان أهم العوامل في استقرار مراكز الانتاج الصناعي المواد الاولية للصناعات ومنابع القوى المحركة من نفط وقوى مائية وكثرة الايدي العاملة وقدرتها الفنية وسهولة النقل داخل البلاد وخارجها وقلة اجورها . فعلى العرب ان يحققوا

هذه العوامل وان يتخطوا عقبات الاقتصاد العربي كشح رأس المال والخبرة الفنية والبلبلة السياسية في اكثر الاقطار العربية الناجمة عن التأرجح الخارجي ، وعدم الاستقرار الداخلي بسبب ضعف الحكم وعدم الانسجام بين الحكومات والشعوب، كما يجب عليهم التمسك بأهداب الوعي القومي وسلطان القانون وتوطيد العدل وتشجيع الاعمال الحرة والعمل الاقتصادي الجماعي وتنمية الثروات عن طريق زيادة الانتاج ورفع مستوى العمل ، والحد من المنافسة التجارية الاقليمية فيما بينهم . وحيث ان الدول الاجنبية اتبعت المحافظة على اقتصادياتها سياسة قاتلة بالنسبة للدول التي تتعامل معها فتقيد هذه الدولة تجارتها مع تلك ، وتلك تخفف الاستيراد مع جاراتها ، فان من واجب الاقتصاد العربي ان يتماسك مع بعضه ليصد عنه عادية المزاحمة الاجنبية والمنافسة القتالة . وان يكون له من تجارب الامم الراقية دروساً وعظة .

فهذه بريطانيا تشكل النقطة الرئيسية في سياسة التحول الاقتصادي العالمية فقد خفضت حكومة المحافظين الواردات بنسبة عالية . كما انا نشهد في كل مكان اعترافاً صريحاً بان التجارة الدولية توشك على الانهيار . فما أولى بالعرب ان يكونوا يقظين آخذين بسياسة متحدة اقتصادية شاملة ، لا سيما بعد ان تلقت الدوائر المختصة تقريراً من الجامعة العربية يقول بأن مصلحة الاقتصاد الدولي تدرس موضوع الاتفاقيات التجارية التفضيلية بين الدول العربية ، بعد ان تبين ان مبدأ الدولة الاكثر رعاية لا يكفي لتحقيق التعاون ، وهذا ما اشار اليه مؤتمر الغرف التجارية الصناعية الزراعية العربية ، وما اثبته في محاضرتي التي ألقيتها في هذا المؤتمر في ١٩٥١/١٢/١٧

ان العالم يتطاحن اليوم في صفوف كتلتين غربية رأسمالية تريد استثمار الديموقراطية لمنفعة امريكا وتسخير مرافق العالم لمصلحتها . وشرقية اشتراكية متطرفة تريد استثمار الفرد وجهده وسيطرة مبادئها الديكتاتورية السيطرة الجامحة. وما أظن خير العرب الا بأن يكون سبيلهم وسطياً يوصل الى فلاحهم الاقتصادي موحى به من مصلحتهم وتفكيرهم وحدهم لا من مصلحة الاجنبي وتوجيهه لغايات

مبادئ وعقائد ومناهج لا تنسجم مع البيئة العربية وعقليتها الحاضرة ومبلغ استعدادها لهضم كل تفكير اجنبي .

ثم ان اقتصاديات العالم اليوم تسير على نظريتين مختلفتين الاولى التقشف والحرمان والثانية زيادة الانتاج ، فالتسابق في زيادة برامج التسلح لا يزال بين الدول الكبرى قائماً على قدم وساق ، وقد أدى ذلك الى تحويل جزء كبير من المواد الأولية واليد العاملة الى الانتاج الحربي . ومن ثم الى ارتفاع الاسعار في جميع بلاد العالم ، والى تضخم ميزانيات الحكومات والنقد . ومداواة لذلك عمدت بعض الحكومات الى الأخذ بسياسة التقشف والحرمان ، والبعض الى العمل على زيادة الانتاج . وقد أدت هذه المحاولات الى زيادة الانتاج عن الحاجة ، ولاحت من وراء ذلك ـ كما يقول عبدالمقصود احمد باشا رئيس مجلس ادارة بنك مصر ـ أزمة عاتية اخذت بوادرها تحيط ببعض الصناعات ، واستحكمت حلقاتها بالبعض الآخر ، وبدت البطالة تطل بشبحها المخيف ، وكادت تصبح مشكلة معقدة من جديد ، لا سيما في اوروبا وحتى في اليابان . وان العالم قد بدأ يودع فترة الانتعاش التي بدأت منذ الحرب العالمية الاخيرة ، وصار حتماً عليه ان يعد نفسه لاستقبال فترة من الانكماش بالنسبة لما تعوده من قبل ، وانه من الطبيعي ان تتأثر البلاد العربية بهذه الأحداث العالمية مما يوجب عليها الوعي الصحيح والتمسك بأهداب الحذر واليقظة والرأي السديد .

واخيراً أقول ان للعرب في ميثاق الجامعة العربية كما نصت عليه المادة الثانية من ضرورة إنشاء تعاون وثيق بين الدول الاعضاء في الامور الاقتصادية والمالية بما في ذلك الجمارك والنقد والزراعة والصناعة وفي ميثاق الضمان الجماعي ، خير سبيل لحفظ كيانهم والذود عن اقتصادياتهم الناشئة ، فعليهم ان يتحدوا وان يعملوا وان يضاعفوا من مجهودهم في مقاطعة اسرائيل .

ولي في كلمة الاستاذ اكرم زعيتر القائلة : « ان ممكنات العرب المادية للنهوض والتقوية واستعادة قدس أقداسهم موفورة جداً اذا كانت لهم ارادة واوتوا عزماً وتحلى أولو امرهم بفضيلة ايثار المصلحة العربية الشاملة على الهوى الشخصي والغرض الاقليمي وجنحوا الى تبديل عقلياتهم الفردية الرجعية واستضاءوا بنور الايمان القومي ولاذوا بالنظام » . إن لي بها خير ختام والسلام .

المحاضرة السادسة

التطور الاجتماعي في سوريا

الدكتور عبد الرحمن الكيالي
عضو المجمع العلمي العربي

= القيت بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٥٢ =

ايها السادة :

اسمحوا لي ان اقسم موضوع التطور الاجتماعي في سوريا الى أسئلة لأحدد لكم ما اريد البحث فيه عن هذا الشأن المترامي الاطراف .

ما هو التطور ، وما هو التطور الاجتماعي ؟

هل يتطور الاجتماع كما يتطور الحي ؟

ما هي عوامل التطور الاجتماعي ؟

ما هي المقاييس الدالة على التطور الاجتماعي في نطاق التقدم والرقي ؟

من أي عهد نبدأ البحث عن التطور الاجتماعي ؟

ما هي النواحي الاجتماعية التي يمكن البحث فيها للاستدلال على التطور المطلوب ؟

ماذا يستنتج من بحثنا عن التطور الاجتماعي ؟

كلمة التطور

ان كلمة (التطور) اصطلاح لفظي اضيف الى معجم اللغة العلمية الطبيعية وعلومها كعلم النبات ، والحيوان والارض وطبقات الارض والحياة وغيرها من العلوم . وأول من استعملها في كتبه وتآليفه العالم الطبيعي (دارون) . وفي اللغة العربية يعد مفهومها العلمي حديث العهد ، وأول من استعملها وحدد معناها المرحوم فتحي زغلول في كتابيه (روح الاجتماع وسر تطور الامم) اللذين نقلهما عن الفرنسية لمؤلفهما العلامة (غوستاف لوبون) وترجمها عن اللفظة اللاتينية والانكليزية (Evolution) (١) ثم استعملها الكتاب والادباء والعلماء في بحوثهم عن تطور الاخلاق ، وتطور الافكار ، وتطور العادات ، وتطور النفس وماشابه ذلك من التطورات اللاحقة بالانسان ، والحيوان ، والجماد .

اما الكلمة من حيث هي فمنحوتة من فعل (تطور) المأخوذ من لفظ (طور) ومعناه (الدور والحالة والهيئة والستارة) ثم انتقل اللفظ الى علم الحياة وعلم الطبيعة بمعنى (التحول والتغيير) .

وجاء في تاج العروس للزبيدي (الجزء الثالث ص٣٦١) قوله ومما يستدرك عليه الناس (اطوار) أي اخياف على حالات شتى . وكلمة اخياف معناها مختلفون . يقال (اخوة اخياف) أي امهم واحدة وآباؤهم شتى . وأما قوله تعالى (خلقكم اطوارا) في سورة نوح آية ١٤ فمعناه (ضروبا واحوالا) .

وقال ثعلب أي خلقاً مختلفة كل واحد على حدة . وقال الفراء (نطفة . ثم علقة ثم مضغة ثم عظما) وقال غيره انما اراد اختلاف المناظر والاخلاق وتعدي طوره أي حاله الذي يخصه . والطور الحد بين الشيئين . وطور بمعنى فعل كذا وكذا .

---

(١) نقلا عن كتاب النشوء والارتقاء (لشبلي شميل)

وجاء في تفسير البيضاوي نقلاً عن إمام اللغة الزمخشري (وخلقكم اطوارا) أي تارات ، إذ خلقهم أولاً من عناصر ثم مركبات تغذي الانسان ، ثم اخلاطا ، ثم نطفا (١) ، ثم علقا ، ثم مضغا ، ثم عظاما ، ثم لحوما ، ثم أنشأهم خلقا آخر . وبهذا يدل على انه يمكن ان يعيدهم تارة اخرى .

فمفهوم ما اورده الزمخشري يطابق مفهوم ما بينه الزبيدي وهو عين مفهوم ما اراده (دارون) وما اراده (فتحي زغلول) من كلمة تطور أي تحول من حال الى حال وتغير من شكل الى شكل بدليل ان الانسان كان نطفة ثم غدا علقة ثم صار مضغة ، ثم اصبح عظاما ثم تكامل خلقه فصار انساناً .

معنى كلمة الاجتماع

وكلمة (الاجتماع) (٢) لا يحتاج معناها اللغوي الى تفسير وايضاح واما معناها العلمي فيفيد (تعاون الافراد تعاوناً يؤدي الى ارتباطهم بنظام لمعاشهم ، واعتمالهم في تحصيله من وجوهه واكتساب اسبابه) .

ويعد العلماء اجتماع البشر ضرورياً لأفرادهم والا لم يكتمل وجودهم ولم تتم حياتهم . لأن الفرد مضطر الى دفع الشرور الكثيرة عنه مثل الجوع والعطش والبرد والتعب ، والألم والخوف ، وعدوان بعضه على بعض ، وعدوان الحيوان الآخر عليه ينازعه الحياة ومضطر الى مقاومة قواسر اخرى طبيعية كثيرة ومحتاج كذلك الى مواد وآلات يتقي بها هذه الشرور كالقوت والكساء والمساكن والاسلحة وغيرها مما يقتضي اعمالاً كثيرة فان كان منفرداً فهو لا يستطيع القيام بها جميعاً لان كل عمل منها يستغرق حياة كاملة وقد لا تفي بجزء منه ، فهو لا بد له من الاجتماع وتقاسم الاعمال حتى يتم له التعاون بحيث يكون منه الزارع والصانع والجندي والوازع والمخترع والمهندس لينتظم وجوده ويحسن بقاؤه .

---

(١) النطفة = كظلفة القليل من الماء . - العلقة = هي مني الرجل . - المضغة = هي قطعة من اللحم .

(٢) عن كتاب علم الاجتماع لنيقولا حداد

اسباب تشبيه المجتمع بالجسم الحي

ولهذا شبّه المجتمع بجسم حي كسائر الاجسام الحية ، مركب من اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة هي سلامة الفرد وسلامة المجموع . ووصفه بعضهم وصفاً طبيعياً بقوله انه نظير الجسم بأعضائه ووظائفه .

وتشبيه المجتمع الانساني بالجسم الحي تشبيه قديم أشار اليه ابن خلدون في مقدمتـه وأشار اليه الشيخ الرئيس ابن سينا في كتابه القانون ، وقال به اريسطو وافلاطون وتبعهم فلاسفة القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وبظهور مذهب دارون وتأييـد العلماء له في نظريته (النشوء والارتقاء) اصبح التشبيه أقرب الى الحقيقة وسهل علينا فهم العوامل التي تحرك فعاليـــة المجتمع والنوازع التي تهدم تلك الفعالية .

ما هي عوامل التطور الاجتماعي ؟

ان الوراثة ، والتغذية والانتخاب الطبيعي ، والمحيط ، وتنازع البقاء والعقل الاجتماعي هي التي تعمل في تطور المجتمع وتميز هذه الظاهرة الانسانية عن الظاهرة الحيوانية التي تخلو من عامل العقل الاجتماعي . وكما كان الفرد غير مجهز بالوسائل الدفاعية التي يملكها الحيوان فان العقل البشري الذي يملكه الفرد يمثل العقول المتفاعلة في اصطناع سلسلة الأنظمة الاجتماعيـة ويحدد الغايات والاهداف ويوجد الشعور ويشرك القوى الفكرية بالتطور والارتقاء .

والنسبة بين العقل الاجتماعي والعقل الفردي كنسبة الجسم الحيواني والخلايا التي يتألف منها . فالخلية كائن حي قائم بنفسه ، والجسم الحيواني ليس حياة واحدة بل مجموعة حيوات متوافقـة في عمل مشترك هو نمو ذلك الجسم وتوالده حتى ان خليـات كل مركز من مراكز الدماغ وهي تعد بالملايين تصنع الفكر

مشتركة ، ومع ان البشر بفعل الوراثة والبيئات المختلفة وفعل الطوارئ المتعددة مختلفون متباينون ليس بينهم اثنان يتفقان في فكر أو عاطفة ، أو يقين أو عمل اتفاقاً بديهياً أو ناموسياً فهم بحكم الطبع متباينون مختلفون متنافرون ولكن للاجتماع الذي قضت به النواميس الطبيعية والنواميس الحياتية والنواميس الجغرافية ، عوامل قوية لا ترد، توجب على هؤلاء الافراد ان يعدلوا افكارهم وعواطفهم وارادتهم وأعمالهم بحيث تتوافق وتتشاكل وتتحد ، ومن اتحادها يتكوّن الجسم الاجتماعي والعقل الاجتماعي .

واذا اشترك افراد المجتمع بما ذكرناه فعلوا ذلك لا عن تفكير خاص ولكن بفعل العقل الباطن أي (بالايحاء ، والتقليد ، والاستهواء ، والتشبه ، والاقتباس) مما هو خليق بمن ليسوا محكومين للوعي المنطقي والرشد العقلي .

مقاييس التطور الاجتماعي

وتختلف مقاييس التطور بالنسبة لما ينتج عنه سلباً أو ايجاباً فمقياس التطور الاجتماعي الايجابي هو المدنية ومقياس التطور الاجتماعي السلبي هو التقهقر والانحطاط.

اما المدنية فلها ثلاثة مقاييس(١)

الأول — مقدرة العقل على تسخير قوى الطبيعة ومواردها لخير الانسان ومنفعته في كافة نواحي الحياة، وهي لا تتم الا بواسطة العلم والعلماء ، والتنظيم وتقسيم العمل ، والادارات ، والشركات والمعاهد والمنشئات .

الثاني — رفاهية الشعب وسلامته وهي تضمن سلامة الجسم والنفس ، والروح وتنظيم العلاقات وحفظ الارواح والاملاك والحريات وحفظ الحقوق وضمان المستقبل والتساوي بين الافراد فيما لهم وعليهم .

---

(١) نقلا عن كتاب مبادىء السياسة العالمية (للاستاذ هوكينغ)

الثالث — الاخلاق العامة وهي العمود الفقري من المجتمع ترافق العقل الاجتماعي وتعمل لتطوره .

على ان المجتمع الحي الذي يتحرك وينمو ويعمل بعامل العقليـــة ، وعامل الرفاهية ، وعامل الاخلاقيـة لا يتطور بحروب تنازعيـة وتذهب بجهده الاجتماعي وتفسد انتظامه وطمأنينته ولكنه يتطور بتطور الافكار والتربيـــة فيحصل على ترابط الناس برباط الثقة ، والتعاون ، والأمل ، والنظام ، والصدق ، واداء الواجب ، والطاعة ، واحترام الوازعات الدينية والاجتماعية والقانونية ، فلا تنساق افراده وراء الغرائز والمطامع ولا ينسى أحد منهم اجتماعيته وان عليه حق العمل وحب العمل ، ومسئولية العمل ، وان له حق اجر العمل ، ورفاه العيش بكل ما فرضه على نفسه ويفرض المجتمع عليه لخيره وخير المجتمع .

واذا قيل بان الاخلاق تتغير وتتبدل بتغير الزمن وتبدل الاحوال أجبنا ان الاخلاق التي تواضع الناس على فائدتها ومارسوهـا منذ عرف المجتمع وعرفت المدنيـة لم تتبدل ولم تتغير فلا يزال مفعول الصدق والامانة والثقة والتعاون وحب الخير والعمل والاحسان هو هو مانعاً للفساد وحافظاً لنظام المجتمع من الانحلال .

وهل من ينكر ان سلامة التفكير ، ورقة الطبع ، وحسن المعاشرة ، وكرم الخلق ، وأدب المخاطبـة ، وجمال الفن ، وعمق الشعور ، وسمو الخيال ، مما يقوّي تماسك المجتمع ويجلب رضى النفس ويوجد الرفاه ؟ وهل من عاقل يدعي ان المنطق ليس عاماً بين الامم أو ان تقسيم العمل ليس منطقياً ولا مفيداً ؟ وهل من انسـان سليم الخلق والنفس يؤمن بأن الرشوة ليست سرطاناً في جسم الامة ؟ وهل يستطيع عالم ان يأتي بدليـل من تاريخ الامم يستشهد به على ان انتشار الفحشـاء والمنكر وفوضى الحكم والنظام وظلم الرعية وسوء الادارة وفقدان الوازعات الدينية والقانونية لم تكن من مهلكات المجتمع ولم تقوض بنيان الدولة ؟

لعل البعض يتبجح ويدعي تعليلات ضمنهـا المذاهب الشـاذة ، والمذاهب الاباحية ، والمذاهب الملحدة ، والمذاهب الهدامـة من وجودية أو استبدادية أو

شيوعية أو فوضوية سميت بأسماء مفتكرة فيرد علينا بها، ولكن محك العلم ومقاييس الواقع والتجارب تنفي مدعياتهم وحججهم لانهـــا ليست بما يتفق وسنن الاجتماع وقواعد المدنية التي لا ينهض بهـا الا العقل السليم والاخلاق الفاضـلة والمقاييس الاجتماعيـــة .

مبدأ بحثنا عن التطور الاجتماعي

ولما كان التطور سلسلة مترابطة الحلقات فلسهولة التحديد سنبدأ بما كان عليه مجتمعنا قبـل نصف قرن وهي السنون التي عشنا فيها ولمسنا تحولها وعرفنـا الادوار التي مرت عليها فما هي أهم المظاهر الدالة على تطور مجتمعنا منذ ذلك الحين؟

النواحي الاجتماعية التي يجب معرفة التحول فيها لتقرير نسبة التطور

ان نواحي الحياة ليست واحدة فاذا اخذنا بنظرية الشمول والتوسع للبحث عن فعالية الحياة الاجتماعية ونتاجها والعقل الاجتماعي وتأثيراته وجب علينا البحث في آثار التطور في الازياء وما يتبعها ، وفي المآكل وما يلحق بها، وفي المسكن وما يحويه، وفي البناء وما يتعلق به،وفي الزيارات والولائم والمواسم والاعراس والزينات والمهرجانات والحفلات والضيافات والملاهي والتسليات لأنها من مستلزمات العيش ومن عناصر حياة المجتمع .

تنظيمية المجتمع

ويجب علينـا ان ندرس ونتناول في البحث اثر التطور في أدب المعـاشرة وأدب الحديث والمخاطبة ، وفي لغة الكلام والتفاهم ، وفي البيع والشراء، والتأليف والكتـابة والخطابة، وفي أدب الرواية والقصص والتمثيل، وفي الجمعيات والسهرات لأنها تمثل تنظيمية المجتمع ووسائله الاجتماعية ويتحتم علينـا معرفة تطور الصناعة

والاجور والعمال وارباب العمل ، وتطور النقـــابات والمهن ، والحرف وتطور المؤسسات الصناعية والتجارية والزراعية والتعاونيـــة ثم الشركات والادارات والمعامل ، والنقليـات والضمانات وتطور المكوس والضرائب والثروة واسعـار الحاجيات ونفقات العيش لأنها تمثل ناحية العمل والانتاج في المجتمع .

ثم يجب علينا الوقوف على اساليب الحكم والحكومة وأعمال موظفيهـــا ودوائرها، وعلى اساليب الادارة وتقسيم قوى الدولة ومدى صلاحها وتعاونها، ويجب البحث في القوانين والانظمة والدستور واصول الانتخـاب والتمثيل والتشريع ، وفي وجائب الحكومة ومدى نفاذها وفي سياسة الدولة وما لها وما عليها لانهـا من بنائية المجتمع وضرورات المجتمع .

ومن الواجب البحث في معرفة تطور العلم والعلماء ونسبة التعليم ومقدار انتاج علمائنا وعددهم واتجاهاتهم ، وما هي عليـه مدارسنا ومعلموها وبرامجها وما هو توجيهـا العلمي والقومي ، ثم يجب البحث في الرأي العام والدعاية والصحف والصحافـة والمنتديات والجمعيات والاحزاب وحرية الفكر والعمل والقول ، وفي المؤسسات العلمية والجمعيات التهذيبية ، وفي دور التهذيب والارشاد ومن يتولاهـا وكيف تؤدي رسالتها لانها من عناصر العقل الاجتماعي ونشاطه وعليهـا يتوقف التطور الفكري والاجتماعي .

موجبات الانحطاط الاجتماعي

ويجب علينا ان نبحث في الامراض الجسدية والعقلية والاجتماعية كالبغاء والميسر ، والاجهاض ، والجرائم ، والولادة والوفيـات وفي الخمور والمخدرات ، والامراض التناسلية لانها من موجبات تقهقر المجتمع وانحطاطه .

تطور النمو الاجتماعي

ويجب علينـا البحث في العائلة والروابط العائلية ، والمرأة ومقامهـــا

الاجتماعي، وفي البيت والمعيشة، والطلاق والزواج، والسكن والاطفال ، وفي جهدنا الاجتماعي لسلامة هذه الوحدة الاجتماعية، وفي طبقات المجتمع وصنوف الناس، وفي جهدنا العقلي والاجتماعي، وتزايد السكان وتزايد الاعمال العامة وتزايد الثروة لأن ذلك من مستلزمات النمو الاجتماعي .

ويجب البحث في فعالية المجتمع التي تنم عنها مخترعاتنا ومكتشفاتنا ومنشئاتنا العمرانية والهندسية وغيرها لانها من اسباب تنظيم حياة المجتمع .

تطور المذاهب الفكرية

ومما يجب ان نبحثه في المذاهب الفكرية ، والفلسفية ، والواقعية ، والموضوعية ، والعقلية ، والباطنية ، والوجودية ، وغيرها من المذاهب التي لها تأثير في توجيه العقل الاجتماعي وفعاليته .

العناصر الهدامة

واخيراً يجب ان ننظر في العناصر الهدامة لحياة المجتمع والمفاسد التي تلازمه، والحركات التي تؤخر نموه وتقدمه ، وتعيين موقف مجتمعنا منها ، وما هي وسائلنا لمحاربتها واستئصال جذورها ، لأن بقاءها مهلك لحياة المجتمع . والمجتمع لن يصلح للبقاء الا اذا تغلبت عناصر البناء على عناصر الهدم ، ورجحت كفة التركيب على كفة التحليل .

أجل علينا ان نبحث فيما تقدم إذ بدون معرفته لا يمكن الحكم على تطورنا التقدمي والعاقل من عرف نفسه .

ولكن هل استطيع انا ، أو تستطيع أنت ، أو يستطيع غيرنا كشف هذه العناصر وإيفاء الموضوع حقه في ساعة محدودة ومحاضرة موقوتة. لا اظن ذلك ممكناً.

لذلك سوف أسلك طريق الاختصار والاجمال بقدر المستطاع، وأبحث في أربعة مظاهر دون غيرها . (الاولى) المظاهر الدالة على تطور عقليـــة المجتمع . (الثانية) للمظاهر الدالة على تطور بنائية المجتمع . (الثالثة) المظاهر الدالة على تطور نفسية المجتمع . (الرابعة) المظاهر الدالة على تطور فعالية المجتمع . وعقيدتي ان هذه الاربعـة من أهم الاركان التي يستدل بها على المقصود معرفتـــه من تطور المجتمع السوري .

المظاهر الدالة على تطور عقلية المجتمع السوري

تدلنا المظاهر الآتية على تطور عقلية المجتمع السوري .

اولاً = وجود المدارس، والمدارس معمل تهيئة العقول والاخلاق وتربيتهما تربية الجسم والمواهب ، فنمو عددها وازدياد طلابهـــا وارتفاع مقاييسها ، وصحة مناهجها ، وحسن تعليمها له الأثر البالغ في تطور الجيل الناشئ .

ثانياً ـ انتشار التعليم بين البنين والبنات في جميع درجات التعليم وأنواعه . ومن الحق ان انتشار التعليم بين البنات عامـل في اسراع التطور ،والنهضة التي لا تقوم بتطور الرجل وحده بل بتطور الرجل والمرأة معاً .

ثالثاً = إلزامية التعليم من سن الخامسة الى سن الخامسة عشرة لجميـــع أبناء الوطن .

رابعاً = وجود الكليات العلمية العالية من طب، وقبالة، وصيدلة، وتمريض، وحقوق، وآداب، وعلوم، وهندسة زراعية، ودور للمعلمين والمعلمات، وفتح ابوابها

لكل سوري أتم تحصيله الثانوي وحاز قصب السبق ، والعمل على استكمال بقية الفروع العلمية للجامعة السورية .

خامساً = ارتفاع مقاييس العلم والتحصيل في جميـــع أقسام الجامعة والمدارس الثانوية .

سادساً = تأسيس المدارس الريفية وتعميم العلم بين البدو والعشائر حتى لا يحرموا من نعمة العلم وحتى يتبعوا سير الرقي .

سابعاً = إنشاء المياتم والمعاهد الصناعية والتجارية والزراعية .

ثامناً = نفوذ العقيدة في قلوب الناس بأن طريق الحياة واكتساب الرزق، ونيل التفوق وكفالة المستقبل لن ينالها طالبها الا عن طريق العلم والتحصيل ولا يكفي أبناء العصر الحاضر ان يتعلموا القراءة والكتابة والحساب وامور الدين بل هم في حاجـــة الى نصيب وافر من العلوم في جميع درجات العلم ، والتخصص في الكليات والجامعات ومعاهد الغرب العالية ومن لا يتزود لدنيـاه فلا نصيب له في آخرته لأن الدنيا مزرعة الآخرة ولا ينالها من لا يجدّ لتحصيلها .

تاسعاً = ذهاب البعثات العلمية من كلا الجنسين الى الجامعات الغربيـــة وغيرها لاكمال التحصيل والاختصاص .

عاشراً = التخصص في شتى فروع المعرفـة في أعلى مراتب العلم كالطب والهندسـة والكيمياء والكهرباء والري والتعدين والاقتصاد والحقوق والسياسـة والميكانيك وطبقات الارض وغيرها من العلوم التي تمكن المتخرجين السوريين من خدمة بلادهم وتعزيز رقيها .

ولو شئنا تعداد الجداول (١) للكليات والمعاهد ودور المعلمين وبيان من تخرج منها لطال الشرح فنكتفي بما أوردناه من العوامل لنستدل منها على تطور عقليتنا، وان انتشار العلم والمدارس قد قضى على الفكرة المستحوزة على عقول الآباء في انحاء سوريا بأن العلم لا يفيد وان ما درج الاهلون عليه هم وآباؤهم من الاميـة والقناعة والبساطة تكفيهم مئونة الحياة ومجابهة الزمن .

واذا علمنا بأن التعليم الحديث لم يوجد في الثمانين سنـة التي خلت ، وعلمنا انمقوماتنا الفكرية والقومية والروحية كاد الجهل والاستعباد يقضي عليها ـ اقول اذا علمنا ما تقدم وقارناه بما تطورنا اليه منذ تحررت البلاد السورية لقدرنا نسبة التطور وقدرنا بعد الشوط الذي خطوناه في سبيل اليقظـــة والنهوض . فالتعليم الحديث تأسس في ايام فيصل عام ١٩١٨ ، فقـد دعا لتأسيس المدارس ونشر العلم ونادى بأن الاستقلال لا يؤسس الا على العلم . وفي عهـده في عام ١٩١٩ تأسس المجمع العلمي وانقلبت لغة الدواوين والقضاء والتدريس والانشاء من اللغة التركية الى اللغة العربية، وقام المجمع المذكور بتهذيبها وإصلاحها ثم تأسست بعده (الجامعة السورية) ويرجع الفضل اليها والى اساتذتهـا بتدريس العلوم والفنون في جميع

---

(١) جاء في الاحصاءات الرسمية ان عدد المدارس الاهلية والحكومية في سوريا بلغ في عام ١٩٤٨-١٩٤٩ كما يلي (١٤٧٤) للمدارس الابتدائية و (١٠٨) للمدارس الثانوية و(٦) المهنية و(٤) لدور المعلمين والمعلمات . وان عدد الطلاب في المدارس الابتدائية بلغ (١٤٧٠١٧) للبنين و(٥٨٦٦٥) للبنات وفي المدارس الثانوية بلغ (١٧٩٥٢) للبنين و (٥٩٧١) للبنات وفي المدارس المهنية بلغ (١١٢٨) للبنين و (١٩٤) للبنات وفي دور المعلمين بلغ (٢٢١) معلماً و(٢١١) معلمة .

اما الاساتذة فبلغ عددهم (٣٥٩٩) معلماً في المدارس الابتدائية الرسمية و (١٦٩١) معلماً في المدارس الابتدائية الاهلية و (٤٦١) معلماً في المدارس الابتدائية الاجنبيـــة و (١٠٤٠) استاذاً للمدارس الحكومية الثانوية و (٧٦٣) استاذاً في المدارس الاهلية الثانوية و (٤٣٨) استاذاً في المدارس الثانوية الاجنبية .

وتقول الاحصاءات المذكورة ان عدد الذين نالوا شهادة الكفاءة منذ عام ١٩٤٣ الى عام ١٩٤٩ بلغوا (٨٣٠٢) منها (٦٤٧٩) للبنين و (١٨٢٣) للبنات . وان عدد الذين نالوا شهادة البكالوريا بلغوا سبعة اضعاف ما كانوا عليه في عام ١٩٤٣ . وانهم في عام ١٩٤٩ بلغوا (٤٠٣١) منها (٣٣٢١) للبنين و (٧٢٠) للبنات .

اقسامها من طب وحقوق وصيدلة باللغة العربية ، وبفضل ما وضعوه من المؤلفات العلمية ترجمة وتعريباً خدموا لغة البلاد وأحيوا تراثها وجددوا ثقافتهـــا وبذلك أسدوا الى الأدب العربي أجلّ الخدمات . وبعد هذا عمدت الحكومة السورية الى نشر التعليم وإنشاء المدارس وتوحيد البرامج ، ولما وضع الاساتذة والمعلمون الكتب اللازمة وطبعت ونشرت سهل على ابناء البـــلاد اقتناؤها والدرس فيها وارتقت معارفهم واستطاعت سوريا ان تباهي غيرها بنهضتها وتفوق كتبها وارتقاء مدارسها وان تساير تقدم العلوم وتقدم الفكر الانســـاني ولا تزال جادة في اتمام رسالتها والاسراع بنهضة الامة وتقدمها .

وبياناً لما أسدته الجامعة السورية من الخدمة في نهضة البلاد أذكر عـدد من تخرجوا من كلياتها منذ تأسيسها حتى الآن .

	المجموع	بنون	بنات
كلية الحقوق	٢٠٤٥	١٩٨٣	٦٢
« الطب وفروعها	٥٣٤	٥٢٤	١٠
« الصيدلة	١٩٨	١٩٥	٣
« العلوم	٣٩٨	٣٧٥	٢٣
« الآداب	٧٠	٤٢	٢٨
« الهندسة	١٨	١٨	
« طب الاسنان	١٥٤	١٥٤	
« القبالة	١١٧		٢١٧
« دار التمريض	٢٧		٢٧
« دار المعلمين والمعلمات	٧٤	٥٣	٢١
المجموع	٣٧٣٥	٣٣٤٤	٣٩١

وبناءً على ما انتجه التقدم العلمي وما تأتى عن استقلال البـلاد وممارسة السيادة وما فعله الاحتكاك الاجتماعي عن طريق الهجرة والسياحـة والسفر وعلى

عوامـــل اخرى فرضها الزمن بواسطة الحروب تستدل على التطور العقلي وأثره البالغ في التشريع السوري وفي الحكم الدستوري وفي العمران وما قام فيه من منشئات وهندسـة ومواصلات وحدائق وتخطيط ، وأثره في الاقتصاد وما أتى به التطور الاقتصادي وأوجده من مهن وصناعات ووسائل فنيـة وأدوات وآلات حديثة وشركات وأثره في تقدم الصحافة ، والنشر والطباعة والدعاية التي بدون العلم وتطور العقل الاجتماعي لن تصل الى ما وصلت اليـه والمثل الحكيم يقول : البناء لا يكبر عن عقل مهندسه .

ما وجد في تواريخ حلب من الحوادث

ومن يقرأ في تاريخ حلب لمؤلفه الشيـخ كامل الغزي وفي أعلام النبلاء لمؤلفه الشيخ راغب الطباخ يعلم بأن سكان الشهباء لم يعرفوا لقاح الجدري قبل عام ١٢٤٠ هـ ولا صدرت بلسانهم جريدة الا في عام ١٢٩٥ هـ عندما أصدر المرحوم الحاج هاشم الخراط جريدته وتولى تحريرهـا الكاتب العبقري المرحوم السيد عبدالرحمن الكواكبي ، ولا استعملوا البترول لاضاءة بيوتهم وأزقتهم الا في عام ١٣٢٥ هـ أي في عام ١٩٠٦ ولم تنشىء لهم الحكومة العثمانية مدرسة سلطانية أي ثانوية الا في عام ١٣٠٣ هـ أيام جميل باشا وانهم لم يزرعوا بذور البنـــدورة التي جلبت من مصر الا في عام ١٢٧١ هـ وان التبغ لم يعرفوه ويستعملوه الا في عام ١٠٠٠ هـ وان السكاير لم تصل اليهم الا في عام ١٢٧٠ هـ وان محلة العزيزية لم تؤسس قبل ١٢٨٦ هـ ومحلة التلل لم توجد قبل عام ١٣١٠ هـ وكانت مطرحاً للزبل وتابعة لوقف الحلوية ، وان السبيل لم يصبح حديقة الا في عام ١٣١٤ هـ وكان اسمه قبلاً سبيل الدراويش .

فهل بعد هذا الا ان نقول ان مجتمعنا قد تطور وتطورت عقليتـه لهذه الاحداث وما تلاها ؟

ما هي الظاهر الدالة على بنائية المجتمع السوري ؟

ان أهم ركن في بنائية المجتمع السوري هو المرأة والاسرة وما يتعلق بهما وزيادة المواليد وزيادة نفوس السكان وتأسيس النقابات ، وتحول الحياة الفردية الى الحياة التعاونية والاشتراكية وزوال الاقطاعية ، وتجانس الطبقات وتضامن الافراد وغيرها من المظاهر الاجتماعية التي تقوم مقام البنية في هيكل الجسم الاجتماعي.

اما المرأة فنظرة خاطفة الى ما كانت عليه قبل نصف قرن وما هي عليه الآن ترينا آثار التطور المقصود .

تطور المرأة والاسرة

فازدياد ترابط افراد الاسرة والمرأة والزوج ، والاولاد برباط الدين وأحكامه ، والقانون وواجباته ، والمجتمع وآدابه واعتباراته ، وتقاسم العمل فيما بينهم لكل نصيبه ومسئوليته ، وتناقص التعدد في الزوجات وقيام القانون العائلي مقام التفريق الكيفي وتساوي الجنسين في حدود الاحكام الشرعية والقانونية فكل ذلك دليل على التطور وزوال القيود المانعة لتقدم الاسرة وهنائها .

ومن حيث الحرية والحقوق فقد اصبحت المرأة تمارس حقوقها كما اباحتها لها احكام الشريعة وما سمح به القانون فهي تتعاطى المهن الحرة والمهن الخاصة بها ، تتعاطى التعليم والتدريس ، وتتعلم في المعاهد العالية ، وتتعاطى المحاماة والتجارة ، والطب والصناعة ، وتشتغل في المعامل وتكسب اجر تعبها ، وتشترك في اعمال البر والخير ، وفي المؤسسات الحكومية وتتولى الكتابة والتحرير ، وتؤلف وتنشر افكارها ، وتشتغل في ميادين الجهاد ، والتمريض ، وتقوم بواجبات البيت كأم وزوجة وسيدة .

وان كانت المدن قد نالت حظها من تطور المرأة والاسرة فان بقية أجزاء الوطن لم تحرم من هذا التطور بل ان حظها كان عظيما بالنسبة الى الماضي فانتشار

المدارس ، وسرعة المواصلات ، ودفع المرأة للاقتباس والمحاكاة في كل ما يرفع شأنها جعلها تتطور وتقبل ما هو الأفضل لها والأجمل لطبيعتها وحاجتها .

وفي باب المواليـــد تقرر الاحصاءات ما يجعلنا نستدل على الزيادة وقلة الوفيات وتقدم العناية بالصحة العامة نقول ان الذين ولدوا في عام ١٩٤٤ في سوريا بلغوا (٥٢٠٢٠) وفي عام ١٩٤٨ بلغوا (٥٨٩٠٦) والذين توفوا في عام ١٩٤٤ بلغوا (٢٨٨٢١) وفي عام ١٩٤٨ (١٩٩٦٤) فيكون الزائد في العـام الأول (٢٩١٩٩) وفي العام الثاني (٣٨٩٤٢) يقابل ذلك ما ذكره علامتنـــا المؤرخ المرحوم الشيخ كامل الغزي في المجلد الثالث صحيفة ٣٠١ من كتابه بأن المجاعـــة وقعت في حلب عام ١١٧٠ هـ فقضت على ٨٧ الفاً من الســـكان لفقدان الغذاء واستحالة جلبه من محلات اخرى . واني اعلم ان الوفيات في حماة عام ١٩١٤ بلغت في خمسة أشهر أحد عشر الفاً مات معظمهم من التيفوس ومنهم من مات من الجوع ولما كنت طبيبـاً هنالك شاهدت بأم عيني من أكل الميتـة ، ومن أكل الحشيش ، ومن أكل قشور البرتقال والحبس ومن أكل القطط والكلاب ، وتقول احصاءات الحرب الاولى ان الذين قضوا من سوء التغذية والمرض في سوريا ولبنان يزيد عن نصف مليون .

زيادة النفوس والمواليد

وفي باب زيادة السكان ذكرت الاحصاءات ان النفوس في حلب بلغت في عام ١٩٣٧ (٢٦٢٦٩٧) وفي عام ١٩٤٨ بلغت (٣٤٨٨٩٦) اما المجموع في المحافظة فقد بلغ (٧١٣٩٥٨) في عام ١٩٣٧ و(٩٣٢١٤٣) في عام ١٩٤٨ فتكون الزيادة في مدينة حلب خلال ١٩٣٧ و١٩٤٨ تبلغ (٥٢١٩٩) وفي المحافظة (٢١٨١٨٥) أي ما يعادل (١٨٠٨١) في كل سنة .

على ان هـــذا الاحصاء ليس مشجعاً بالنسبة لما يقوله علم الاقوام وتكاثر السكان فان سكان المدن عادة وفي الاحوال الطبيعيـــة يزيد عددهم ضعفين في كل ١٥ سنة .

تطور الطب والمعالجة

وبالرغم عما ذكرته فان مجتمعنا قد تقدمت اموره الصحية فالجدري يحدث قليلاً ووسائل الوقاية والمكافحة تتقدم عاماً بعد عام والطب يتقدم وعدد الاطباء يكثر ففي حلب مثلاً لا يقل عددهم عن (١٢٠) وقبلاً أي قبل خمسين سنة كان لا يوجد فيها من الاطباء القانونيين الا أربعة أو خمسة وكانت الطبابة بأيدي المتطببين ، والدجالين ، والعطارين ، والاجانب .

وبعد ان كان الناس لا يراجعون الا الحلاقين لمداواة جروحهم أو لجبارة كسورهم ، والعطارين لمداواة امراضهم الداخلية والخارجية ، اصبحوا بعد تقدم العلم يعتقدون ان الاطباء أولى بالمراجعة وعليهم مراجعتهم والتداوي عندهم . ولذا كثرت المستوصفات والعيادات والمستشفيات ، وكثر عدد الجراحين والمتخصصين واصحاب المخابر التحليلية وأسست المراجع التشخيصية للأشعة والتداوي بالكهرباء .

ومما يدلنا على التطور الطبي وجود القابلات في كل المحلات ومعظمهن مأذونات من الحكومة وخريجات دار القبالة ويوجد أربعة عشر مستشفى للتوليد وكان التوليد فيها محرماً أو غير معروف .

ووجود المولدين من الاطباء والجراحين في جراحة النساء ، وأطباء العيون وأطباء الجلد ، وأطباء الداخلية ، ووجود الادوية والصيدليات ووسائل التشخيص والمداواة جعل العقيدة في اهمية المعالجة وكفاءة الطب ووسائله الحديثة تقوى وتتقدم مما ساعد على مكافحة العلل والامراض وزيادة نمو السكان وإطالة عمر الانسان.

الشركات وزيادة عددها

وفي باب الشركات وعددها والمشاريع العامة وما اسس منها تذكر التقارير التجارية والصناعية بأن عدد الشركات الاهلية المساهمة بلغت ٥٤ شركة رأسمالها

(٧٨ ٥٤٥ ٠٠٠) ليرة سورية وذلك من عام ١٩٢٦ الى عام ١٩٤٧ والشركات المساهمة الاجنبية التي لها فروع في سوريا أو انها تتعاطى مع سوريا التجارة بلغ عددها (١١٢) شركة . والشركات تشبه الشرايين في الجسم تنقل البضائع وتجلب الآلات وتعمل على التبادل التجاري بالاموال والمصنوعات فتزيد نمو المجتمع وتقدمه .

النقابات وتطورها

وبما يخص النقابات وهي مفتاح حركة العمال والعمل تعالج شئون المنتسبين اليها وتدافع عن حقوقهم ومصالحهم فالاحصاءات تدلنا على عددها والمنسوبين اليها فتقول ان عدد نقابات العمل في سوريا بلغ (١٢٠) للعمال ينتسب اليها (٢٦ ٧٩٩) عاملاً و(١٢١) نقابة لأرباب العمل ينتسب اليها (١١ ٠٨٦) شخصاً . والنقابات لم تكن معروفة قبل خمس عشرة سنة بالشكل الذي عليه الآن ترتبط بالقانون وعليها مسئوليات . كان هنالك (شيوخ للكار والحرف) يرجع اليهم المراجعون عند وقوع الاختلاف فيحكمون حسب العرف والعادة ولم يكن لهم ارتباط في الحكومة أو ارتباط في العمال كالتنظيم الموجود في النقابات واتحادها .

الصناعات وتطورها

وفي باب الصناعة تقول النشرة التجارية الصادرة عن غرفة التجارة والصناعة (١) بحلب ويعود لها الفضل في تزويد الباحثين فيما يحتاجون اليه من معرفة واطلاع (ان سوريا لم تكن لها قبل الحرب العامة سوى بعض الصناعات اليدوية والحرف المنزلية كالنسيج، والتطريز ، والنجارة ، والحدادة ، والصياغة ، وصنع الحلوى والمربيات وعدد ضئيل من الصناعات الاخرى ، ثم تطورت الصناعة وزادت حاجة البلاد الى مختلف المصنوعات فنشطت المعامل والمصانع لسد الحاجة ولما انتهت الحرب العامة تأسست في دمشق وحلب وبعض المدن الرئيسية الاخرى صناعات جديدة كصناعة السكر ، واستخراج الكحول ، والقلوكوز والنشاء وصناعة التبريد واستخراج الزيوت النباتية وصناعة الزجاج والصابون والدباغة

(١) نقلا عن نشرة غرفة التجارة والصناعة بحلب لعام ١٩٥١

الحديثة ، والصباغة الفنية ، وصناعة العطور ، والمرايا ، وصناعة صقل الالماس الخ.. كما طرأ التعديل والتجديد والتوسيع على الصناعات القديمة وادخل عليها الاساليب الحديثة والمحركات الكهربائية ومن أشهر الصناعات السورية القائمة نذكر صناعة حلج القطن ، وصناعة الغزول ، والنسيج بما في ذلك غزل القطن وحل الخيوط الحريرية الطبيعية وحياكة القطن والصوف والحرير الاصطناعي والدامسكو والاغباني، والصابات الحريرية، والحطايط المصرية، والمشالح المقصبة ،وصناعة الاسمنت وصناعة عصر البذور النباتية ، وصناعة الكونسروة ، وصناعة السكر ، وصناعات اخرى كصناعة الكرتون ، والمستحضرات الطبية ، والمستحضرات الكيمائية ، والمستحضرات الغذائية وصناعة البويا، والشمع، والشريط للاحذية، وصناعة السكب والتلبيس ، وصنع المضخات وبعض الآلات والادوات الزراعية ، وصنع الغالات والمفاتيح والمسامير والرفاسات ، وصناعة الثريات والمكاوي الكهربائية والمدافىء على المازوت ، وصناعة الآنية المنزلية من الالومنيوم، وصناعة الفضة والتلبيس بالنيكل، وازدهرت من الصناعات القديمة صناعة السكاكر والمربيات، والحلاوة، والمعكرونة والصابون ، والتجليد ، والعطورات ، وصناعة الموبيليا والتنجيد .

وكما ارتفعت الصناعة واتسعت تطورت زراعة سوريا وارتقت وتجلى تطورها في التوسع والتنوع والغرس والتحريج وتربية المواشي والدواجن واستعمال الاسمدة ، والتراكتورات ، والحصادات ، وانتقاء البذور واستعمال المضخات لرفع المياه والارواء وتفجير المياه والينابيع وحر الاقنية وحفر الآبار الارتوازية وغرس كروم العنب والزيتون واستثمار الاراضي البور والاعتناء بزراعة القطن والحبوب والأرز ، وإنشاء المشاتل تزود المزارعين بالاغراس وتأسيس الدوائر الزراعية والمخابر وإنشاء المعاهد الزراعية والمؤسسات التعليمية للتدريب وغيرها .

تطور الزراعة

ومن الأدلة على نمو الزراعة وبنائيتها اتساع المساحات المعدة للزراعة وازدياد الانتاج لحد عظيم ضاعف ثروة البلاد أضعافاً مضاعفة . وقد جاء في

الاحصائيات الكركية ان صادرات سوريا في عام ١٩٤٤ بلغت (١٩٧٠٠٠)طون قيمتها (٨٧) مليون ليرة سورية وبلغت (٣٠٧٠٠٠) طون في عام ١٩٤٩ بلغت قيمتها (١١٣) مليون ليرة سورية . وبعد الانفصال الاقتصادي الواقع في ١٣ آذار سنة ١٩٥٠ ولغاية العام نفسه بلغت صادراتنا ٤٣٥ الفاً من الطونات قيمتها ٢٠٨ ملايين ليرة سورية .

وتقول غرفة التجارة بحلب ان النتيجة المذكورة تعتبر في الواقع حدثاً اقتصادياً هاماً يضاف اليه ما تحتله المنتجات الحيوانية ومحاصيل البلاد النباتية ومشتقاتها من المقام الاول بين الثروة النباتية الزراعية .

زوال الاقطاعية

ومن الأدلة على تطور بنائية المجتمع السوري زوال الفوارق الطبقية التي وجدت في عهود الاستعباد والجهل فلا طبقة حاكمة في وقتنا الحاضر ولا طبقة محكومة ولا طبقة اقطاعية ولا طبقة مستعبدة ولا طبقة سيدة وطبقة مسودة انما الطبقات طبقات تتقاسم العمل والعلم والمقدرة ولذا نستطيع نفي مدعي القائل بوجود الاقطاعية في سوريا مع وجود الدستور والحكم الجمهوري ، الاقطاعية التي تعني ان الارض ومن عليها ومن يعمل فيها ملك للسيد الاقطاعي وعبيد موروثون له ولأولاده ونسله .

واذا كان من لا يزال يملك الاراضي الشاسعة ويتصرف بها مستأجرا الفلاحين أو مشاركاً لهم فهذا لا يعني الاقطاعية ، واذا جاز للسلطان الفاتح فيما مضى ان يهب الاعشار أو يهب الاراضي لولاته وقواده ووزرائه فعهد العطاء قد انقطع وولى دون رجعة واصبحت الاراضي ملكاً للدولة وملكاً لأصحابها بحق القانون ، قانون حيازة الاراضي وقانون اراضي الدولة ، ولم يبق لرؤساء الجمهورية أو رؤساء الوزارة أو لغيرهم ان يهبوا ما لا يملكون ولذا فيجب التفريق بين حق التملك وحق التصرف وما هو عليه الفلاح من ظلم وبؤس وعوز ، انه يتظلم ويشقى

لأن الجهل والفقر وفقدان الأمن وسوء الادارة وضعف القضاء وإهمال الاعتناء بحياته وأولاده ومستقبله قد جارت عليه وهضمت حقه وحرمته من اتعابه . وما كان الجور والظلم والتعدي والاهمال مما يقول به قانون ، أو يرضى به عاقل ، أو تقره حكومة تريد رفاهية الشعب وتقدمه لذلك يجب إرجاع الاوضاع الى عواملها وتحديد مفهوم الالفاظ والمسميات دون تضليل ومعالجة الشكوى بالعدل وحسن التدبير والاهتمام وايصال الضعيف الى حقه وإزالة الظلم دون تسويف وإسعاف الفلاحين والعمال بقطع دابر الرشوة ومعاقبة المعتدين ، وفسح المجال لطالب الرزق الحلال بالكسب والعمل وحمايته من كل جور وتعد لأن المزارعين والزراع والفلاحين والعمال هم سبعون بالمائة من مجموع الامة وهم عمادها وثروتها .

وكما برزت آثار التطور البنائي في المرأة والاسرة والنقابات والشركات والمؤسسات وفي الزراعة والتجارة والصناعات وفي زيادة المواليد والسكان ، فكان انتقال البلاد من المحكومية التي عاشت ثلاثة قرون تحت وطأتها وزوال الاقطاعية وعهود الظلم والجور من مجتمعها وحصولها على الاستقلال والسيادة وتنعمها بالحرية والأمن يعد من أعظم التطورات البنائية التي جعلت السكان انفسهم اصحاب الحكم والسلطان والتشريع والادارة والقضاء والعمل والانتاج ، بيدهم الانتخابات ومنهم رجال التمثيل وهم المسئولون عن سلامة بلادهم والدفاع عن حدودها وحقوقها ومصالحها وهم الذين يعملون على تطبيق الديموقراطية بواسطة نظامها الجمهوري الذي ارتضوه ودستورهم الذي وضعوه .

تطور الحرية وزوال الحكم الاستبدادي

ولما كان الاستقلال وسيلة وغاية لتحقيق الاهداف القومية والآمال الاجتماعية وغاية لنقل الشعب من حالة غير محمودة كان فيها الى حالة محمودة ينتظرها ويسعى اليها ويعتقد بسعادتها فان حرية القول وحرية العمل وحرية التفكير والاعتقاد في ظل الاستقلال التام والسيادة المطلقة نقلت الوحدات الاجتماعية المار

ذكرها والوحدات الاخرى من طور الى طور لم تكن لتحصل عليه سوريا لولا قيام الحركة الوطنية من نصف قرن واشتدادها بعد الاحتلال الى يوم الجلاء ولولا اليقظة العامة وانبعاث حب العمل والنهضة ، ولولا اتساع العلم وانتشاره ، ولولا الشعور بضرورة التعاون والتضامن لما استقلت البلاد ، ولا تكونت النقابات ، ولا ازدهرت الشركات ، ولا تألفت الاحزاب والنوادي ، ولا نظمت مصالح العمال وتكاثرت الصحف والمجلات وأقبل الناس على قراءتها ، ولا شجعت الحركات الرياضية وغير ذلك من الاعمال البنائية التي تدل على تطور البنائية الاجتماعية وتدعو للتقدم والارتقاء .

الانتقال من الفردية الى التعاونية

على ان التطور المذكور وإن لم يبلغ الذروة العليا من السرعة والتكامل فانتقال السوريين من الفردية الى الاشتراكية والتعاونية أي الى توحيد الجهود وتقاسم العمل والاشتراك في العمل يعد تطوراً ايجابياً يحمل في ثناياه أعظم الآمال على دوام النمو وتكامل البناء كما يعد تطور نقل الاموال من سجونها في الخزائن والمصارف وصرفها في وجوه المشاريع الاقتصادية والاعمال المنتجة خطوة أعظم لا تقف فوائدها على التحويل والاستثمار بل يتعدى الى تطور المقايضين والمستهلكين ، والناشرين والمحامين والاطباء والمهندسين والعاملين وغيرهم من عناصر المجتمع .

الاتجاه نحو المدنية الغربية

ومع العلم بأن الاتجاه نحو الماضي والتمسك به قد تطور وتحول السوريون نحو المدنية الحديثة واخذوا بالاقتباس والتعليم من الغرب ومسايرة الركب الذي يسير فيه بذات العلم والتفكير والاسلوب فالامم كما قال غوستاف لوبون (لا تحيا الا بتمسكها بماضيها وتقاليدها ولكنها لا تتقدم الا اذا عرفت في الوقت المناسب كيف تتخلى عما لا يفيدها من تلك التقاليد وعنعنات الماضي) .

والذي يؤيد القول ان النفرة من المدنية وتقليد النافع منها والكراهة من كل ما هو اجنبي لم تعد بالنسبة التي كانت عليه وتعدلت نفسية السوريين فرغبوا في ان يتعلموا من علوم الغرب ما يستطيعون الوصول اليه وان ينقلوا عنهم مؤلفاتهم ونتاج قرائحهم وان يستفيدوا من مخترعاتهم ومكتشفاتهم ويستخدموا اخصائيهم وتجاربهم ويتبعوا نهجهم في البحث والتحقيق .

ونحن لهذه الرغبة نتتبع أنظمتهم ونطبق قوانينهم ونتعلم لغاتهم ونستجلب من بلادهم ما نحتاج اليه ونعطيهم ما يحتاجون اليه وسوف نبقى عالة على مصانعهم ومعاملهم ولا ننكش عما يعرضونه علينا من مدنيتهم حتى نستكمل طريقنا ونحقق مثلنا ونستعيد مدنيتنا ، والمدنية ليست وقفاً على امة دون امة والحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها التقطها .

المظاهر الدالة على تطور نفسية المجتمع

ان تطور الرأي العام ولا شك من أهم ما يستدل به على تطور النفسية الاجتماعية لأنه يعدّ الثمرة الناضجة لأعلى درجات المحاكاة أي الاقتباس القويم وعلى نضوجه تتوقف التسوية الفضلى في النزاع المستعصي الذي لا ينفض بغيرها والتسوية أقرب الدرجات الى العدل .

ومن الادلة على تطور النفسية نظرنا الى الحياة كواقعية تتطلب العمل والاهتمام بها وحبها لما فيها من مباهج وتكاثر وزينة ، وتفاخر ولذة وألم وحرمان ووصل وجهد وفناء . ولو تمشى العلم الى قلب كل انسان وأضاء بنوره كل مجتمع وكل بيت لزالت الفوارق المصطنعة واختفت المتناقضات المتكاثرة وانسجمت النفوس والطباع وارتضت بنظام الاجتماع وما دامت نفسيتنا الاجتماعية قد عينت اتجاهنا فمن الخير ألا نعيش كأننا على هامش الحياة . ولكن ليس من الضروري ان ننغمس في حمأة الحديث أي في المدنية المادية دون وعي وتمييز فالروح والمادة يعيشان لغاية

واحدة فان تسلم ضمائرنا وتسلم أجسامنا كانت المدنية لنا نعمة وتقدماً ، وما دامت مقومات الروح والدين والاخلاق والفضائل ومحبة الناس وحب الخير والعلم في حدود الحقيقة هي المحافظة على نفوسنا وما دمنا نبعد عن افكارنا وضمائرنا اللامبالاة والالحاد والاباحية ونزيد طهارة العرض وعصمة اليد واللسان فاننا ولا نشك في طريق الانتقال والتطور الى ذروة التقدم والمدنية .

ولعل من الادلة الثابتة على تطور النفسية ارتقاء العقائد ، ورقي الأدب الذي تعبر عنه أقلام الحق وقصائد الشعر وكتابات الصحافة ، ومقالات أهل الرأي والعلم ومناهج الاحزاب وما ترمي اليه الكتب والقصص والروايات والموسيقى والفنون والازجال والاغاني لانها تنبعث عن عاطفة المجتمع وتمثل قرارات النفس.

وفي ذكر الرأي العام يجب استعراض المواقف الخطرة التي وقفها الشعب السوري من قضية بلاده واستقلالها كمثال لتطوره فنذكر منها .

موقف الرأي العام السوري من الثورة العامة عام ١٩١٦ وموقفه من مظالم جمال باشا وموقفه من الخلافة عام ١٩٢٢ وموقفه من الحكومات التي تعاقبت ايام احتلال الاجنبي والدساتير والمجالس التمثيلية التي فرضها والادارات التي كونها والقوانين التي أخرجها والاعمال التي ارتكبها من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٤٦ وموقفه من التجزئة والوحدة ، وموقفه من المجلس التأسيسي عام ١٩٢٨ ، والمواد التحفظية، وموقفه من ثورات هنانو والشيخ صالح وجبل الدروز والغوطة والقلمون وجبل الزاوية وحماة وحمص وحلب، وموقفه من انتخابات عام ١٩٣٢، وموقفه من المعاهدة ، ومن الكتلة الوطنية ، والاضرابات ، والوفد السوري ، ومعاهدة عام ١٩٣٦ ، والانتخابات في ذلك العام ، وموقفه من الذين تعاونوا مع الفرنسيين وساهموا في نصرته وتأييده ، وموقفه من قضية فلسطين بين عامي ١٩٣٥ و١٩٣٦ ومن الحرب الثانية وسنيها من عام ١٩٣٩ الى عام ١٩٤٣ ، وموقفه من انتخابات عام ١٩٤٣ والحكم الوطني من عام ١٩٤٣ الى عام ١٩٤٦ ، وموقفه من جيش فرنسا ومفوضي فرنسا ، وموقفه عام ١٩٤٦ من فلسطين والحرب لانقاذها وما انتهت اليه ، وموقفه من جامعة الدول العربية وميثاقها ومنظمة الامم والاشتراك في

عضويتها ، وموقفه من الازمات العالمية والازمات الداخلية وغيرهـا من المواقف التي ترينا طرفاً من الامور التي شغلت الرأي العام وجذبته الى مشاكلها .

ذكرنا ذلك لأن الرأي العام فيما مضى كان ضعيفاً بـل كان معدوماً فصار موجوداً وملموساً، وكان همساً فصار مدوياً .

المظاهر الدالة على تطور المجتمع السوري

ان فعالية المجتمع السوري اي حركته ونشاطه وحيويته ظاهرة أو خفية، قوية أو ضعيفة تظهرها امور عديدة كالدين والسياسة والثروة والتشريع والحرب والعمران، وكذا التعليم والاقتصاد واللغة والاختراع والاكتشاف والبحث والبناء والتنظيم والتشريع والانشاء وغيرها ، مما يقوم به العقل الاجتماعي واليدالاجتماعية.

تطور الدين

ففي ناحية الدين يؤمن السوريون على اختلاف مللهم ونحلهم ومذاهبهم بالاديان السماوية التي تجمعهم على توحيد الاله وعبادته وطاعـــة اوامره واجتناب نواهيه وهم يزدادون تمسكاً بما فرضته كتبهم السماوية وبتأثير ما وجدوا عليه وآمنوا به، يحافظون على الشعائر القائمة والعبادات المفروضة ، يربون أولادهم على حب الاله وحب انبيائه وهم كلما تعلموا وخبروا الحياة ورأوا بواطن المدنية شعروا بضرورة الدين وفضله وحاجة النفس اليه وحاجة الاجتماع الى وازعات تقيهم المفاسد وتحبب الى افراده الخير ومحبة الناس .

التطور الحربي

وفي ناحية الحرب وهي قضية تنازع البقاء فالسوريون في جميـــع أزمنة التاريخ أثبتوا تمسكهم بوطنهم واستقلالهم وسيادتهم ولهذه الغاية تنازعوا الفاتحين

والمحتلين وقاوموا سلطانهم وحتى اليوم لم يتبدل موقفهم تجاه كل طامع أو فاتح ومسيطر بل تطورت قواهم الدفاعيـة فحرروا بلادهم وانتزعوا من الغاصبين حريتهم واستقلالهم، وفرضوا سيادتهم، ولذات الغاية المثلى يعدون أبناءهم وجيشهم بايمان وحماس للحرب ان دعتهم الدواعي، أوللدفاع ان تعدت عليهم البواغي .

التطور السياسي

واما تطور المجتمع السوري السياسي فبعد نيل الاستقلال تحول الجهد العام نحو تأسيس الدولة وتثبيت كيانها من جهاز الحكم الى التشريع، والتنظيم، الى نشر العلم والقضاء على الامية، الى تأمين العلاقات السياسية ، الى الاصلاحات في كل أجهزة الدولة الى تقوية الدفاع وتأمين الأمن الى رفع مستوى المعيشـة وزيادة الواردات والثروة القومية .

ومع قصر الزمن بعد الجلاء استطاع المجتمع السوري حكومـة وشعباً ان يظهر الفعالية الوثابة في التشريع اللازم لنمو الدولة ورفاهيـة الشعب والعدالة الاجتماعية وزيادة الانتاج وتأمين الواردات وتقوية المقومات الاجتماعية والعمل على تحقيق المبادئ الديموقراطية، والوصول الى الغايات التي اشارت اليها المقاييس المدنية.

وفي الامور الدولية فقد برزت فعاليـة المجتمع السوري في دخوله منظمة الامم واشتراكه في مجهوداها، ثم في تكوين الجامعة العربية ودعمها وتحقيق اهدافها، ثم في قبوله الضمان الجماعي والدفاع الجماعي بين الدول العربية وسعيه لاقامة علاقات الود والتعاون على أمتن الاسس معها .

ومع ان العالم يسوده الذعر والخوف والقلق من الحرب وويلاتها وتنساب الى قلوب امم سموم المذاهب الهدامـة فان مجتمعنا السوري لا يزال رابط الجأش يأبى الاذعان لكل طامع أو مستعمر أو محتل يفسد عليـه عقائده وخططه التي وضعها لتقدمه وارتقائه .

التطور العمراني

والمجتمع السوري من حيث عمرانه ووعيه وتماسك وحداته قد تطور كثيراً عن أزمنة الغار والوحل والسلب والسخرة والسجن في الخانات والربط بالحبال كأن افراده حمير أو جمال وعن زمن النفي والتبعيد والشنق والمجاعات وزمن الارادات السنية وكم الافواه وزمن الحرمان من كل حق قومي أو سياسي، وانتقل الى زمن الحرية والدستور الى زمن فجر العروبة وشروق القومية ورأى بأم عينه صروح مجده تبنى وثقافته تتسع وعمرانه يشيد وطرقه تعبد ومدنه وشوارعه تنار بالكهرباء وتفرش بالاسفلت والماء يصل نقياً الى بيته فلا يظمأ، والسيارات تنقله الى حيث يشاء، والطائرات تطوف به الفضاء بفعاليته التي ازالت العقبات وهيأت المعدات.

التطور في ناحية الاكتشاف والاختراع

وأما في ناحية الاختراع والاكتشاف والبحث والاستقراء والابداع فما ظهر منه قليل بالنسبة للامم التي تكاملت فيها المؤهلات ونضج فيها العقل الاجتماعي وتسهلت فيها سبل تحقيق الفكر وما تتطلبه الحاجة لأن الحاجة ام الاختراع ومجتمعنا لا يزال يعمل ويجد في إكمال دور تكوينه ونموه أي دور الاستعداد والتهيئة والاقتباس والتعلم حتى يستكمل نواقصه من علم ووسائل وخبرة وتجربة ومتى أتم ذلك انتقل الى الدور الثاني، دور الصنع والايجاد والاكتشاف والابداع بفعل المنبهات الاساسية وهي (الحاجة الى الغذاء والحاجة الى الوقاية والحاجة الى الزينة والحاجة الى الحماية والحاجة الى الغذاء الفكري والغذاء الروحي) وكلها مما يأخذ شكلاً اجتماعياً وشكلاً سياسياً وشكلاً نفسياً في المؤسسات الاخلاقية والاقتصادية والدينية.

ولما كان التطور الاجتماعي في كل ما يبناه لا يقاس الا بمقاييس المدنيـــة فالأمل ان يظل اتجاهنا الاجتماعي موجهاً لتحقيقها وليس لما كسبتها . فالحياة لا يكتب لها التقدم والبقاء الا اذا اتبعت الغاية التي أوجدها المبدع وتطورت مع تطور العقل وقواعد العلم واتبعت سنن الطبيعة في النشوء والارتقاء وانتخاب الافضل .

الختام

وفي الاخير اكتفي بما اوردته من المظاهر الاربعة التي لا تشكل الا جزءاً من نواحي المجتمع اعتقاداً مني انها ترينا مجال البحث للوصول الى المقصود .

ومع هذا فقد بسطت النواحي الايجابية وكان علي ان أبسط النواحي السلبية من هذا الجزء اليسير للخروج بنتيجة « هل نحن حقيقة في تقدم أو تأخر فان كان الأول فما هي الخطوات لاستكمال اسباب نضوجنـا وان كان الثاني فما هي الخطوات للرجوع عنه » ولكن لهذا الثاني شأن آخر وبحث أوفر والمتسع له أقصر فلنتركه الى يوم يكون فيه المجال أوسع ولنتذكر ما قاله غوستاف لوبون في كتابه روح الاجتماع (ان المجتمعات الانسانيـة عويصة التركيب كالافراد سواء بسواء فليس في يدنا ان نحولها فجأة من حال الى حال ، نعم قد يتفق ان تحدث الطبيعـة تغييراً كلياً فجائياً الا ان ذلك لا يكون تابعاً لارادتنا ابداً فلذلك كان حب بعضهم للاصلاحات الكلية من اسوأ المؤثرات في الامم مهما دل النظر على حسنها لانهـا لا تكون مفيدة الا اذا كان في الامكان تغيير روح الامة تغييراً فجائياً والزمان وحده هو صاحب هذا السلطان والذي يحكم الناس مجتمعين هي الافكار والمشاعر والعادات وكلها امور موجودة فينـا وحينئذ ليست القوانين والانظمة الا صورة من صور النفس العامة التي لنا والممثلة حاجاتها واذا كانت القوانين والانظمة صادرة عن النفس فهي لن تستطيع تغييرها . »

المحاضرة السابعة

نظرتنا الى أدبنا

عمر بحبي
. مدير معارف حماه

= القيت بتاريخ ٢ ايار ١٩٥٢ =

في انقباض وحشمة فاذا خاطبت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم

قد تمر بنا أيام نقضيها في بهجة ونغرق فيها غرق الثمل في لذة الصهباء ، يباكرها في فتيـة باصطباح الراح حذاق ، لا يتمثل الا الرؤى الجميلة ، فكل شيء رآه ظنه قدحاً وكل شخص رآه ظنه الساقي ولا نكاد نتبين آثارها ونلمح انوارها حتى تذهب على ألا تعود ، وتمر بنا ايام اخرى يود المرء لو يقسم كل يوم بسل كل لحظة منها الى فصول ، وتقسم الفصول الى شهور والشهور الى ايام لطولها ذلك لأن أويقات الملل اوقات ، ولكن أين هي من الذكرى ؟؟ هـذا ما نعتقده أو ما يدور في خلدنا ، نحس السرور حالمين ولكننـا نحس الاحزان أيقاظا ، والحقيقة ان الساعات والايام التي تنسلخ من الاعمار لا تنحدر الى هوة الماضي كما يقولون ولكنها لا تكاد تنتهي حتى تقفز الى اكتافنا وتبقى هناك دائماً متمثلة لنا صوراً وتماثيل حية بمقدار ما كان فيها من اللذة والألم والتأسي والأمل والكآبة والطرب . ان ساعة تقضيها الى جانب من تحب راشفاً ما تشاء من أمان وأحـــلام متمثلا يقول مالك بن اسماء :

أمغطى مني على بصري بالحـــب أم أنت أكمل الناس حسنا
وحـــديث ألذه هو ممـــا تشتهيه النفوس يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحنا

أو قول ابن زيدون لولادة :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على إن لم يكن زاد في تلك الخطى اذ شيعك
يا اخا البدر سناء وسنى قرب الله زمانا اطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليـل معك

هي غير الساعة التي تقضيها تحت منهمر الثلج أو وهج الشمس تنتظر حافلة (الترام) أو مع ثقيل تجاس اليه وكأنك تحمل في جلدك منه دمّلا ممداً ، يذكرك بقول ابن برد :

وكيف يخف لي بصري وسمعي وحولي عسكران من الثقـال
قعودا حول دسكرتي وحولي كأن لهم عليّ فضـــول مال
اذا ما قمت صبّحني هـــلال وأي الناس أثقل من هلال

أجل وكم من شاب يمشي أبداً خافض الرأس كأنما يبحث في الارض عن سعادته الضائعة ، وأحلامه المفقودة ، وهو يكاد ينوء تحت سنين قليـلة ؛ وشيخ يمشي رافع الرأس لأنه يحمل لسنيه الطويلة ذكريات جميلة ، وتأملات عذبة، وأنت لو سألت (لامارتين) عن زمانه لسمعت منه : ايتها الارض قفي دورانك ، وأنت ايتها الساعات قفي جريانك ، ولو سألت امرأ القيس عن ليله لسمعت منه :

ألا ايها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الاصباح منك بأمثل

ألا يسمع الفرزدق من الشيب صياحاً وصارخة حين يقول :

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليـــل يصيح بجانبيه نهـار

ويلوم ابو العلاء من تسأله عنه مستنكرة كارهة بقوله لها :

خبريني ماذا كرهت من الشيب ـ فـــلا علم لي بذاك المشيب
أضيـــاء النهار أم وضح اللؤ لؤ أم أنه كثغر الحبيب

ان الماضي لا يزول كله بل يبقى منه في الحاضر شيء عظيم ، الحاضر نقطة يلتقي فيها الماضي والمستقبل ، وما العمر للفرد وللامم الا سلسلة واحـدة تبنى حلقتها الاخيرة على أطلال الحلقات الاولى ، ولو تعمق احدنا في تحليل دقيقة واحدة من حياته لرأى كل ماضيه ، ومتى انقطع عنه المستقبل انقطع عنه الماضي بعد ان نتوالى في مخيلته صوره توالي الصور في مخيلة من يشعر بانقضاء زمنه .

فلنتحدث اذن على أننا أبناء الماضي والحاضر بل والمستقبل لا على اننا بقية من بقايا الذكريات كما اريد لي ، فالنفس لا ترضى بالشيخوخة مهما اعترى جثمانها من خطوب وما دام قول أبي الطيب :

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه ولو أن ما في الجسم منه حراب
يغيّر مني الدهر ما شاء غيرهـا وأبلغ أقصى العمر وهي كعـاب

أقول ما دام قول أبي الطيب هذا مدوياً . والأدب ايضاً مهما حدث واختلف وتباينت صوره انما هو امتداد للآداب القديمة واستمرار لها ، وان الرقي الادبي الصحيح يحتاج الى ألا يقطع الادباء والقراء صلتهم بالقديم ، ذلك أحرى أن يعصمهم من الغرور ويحميهم من أن يظنوا بأنفسهم الاعجاز والابتكار على حين انهم قـد اضافوا الشيء الكثير الى ما ترك القدماء ، ولكنهم لم يعجزوا ولم يبتكروا وانما جهلوا انتاج من سبقهم فغلوا في تقدير أنفسهم غلواً كبيراً . « وبعد فهل تكون نظرتنـا في هذه الحياة مضطربة فتكون لها مقاييسنا الادبية مضطربة ؟ اما نفوسنـا فهل فقدت الثقة بها حتى أضعنا مقومات شخصيتنا العربية ـ تلك القوة المعنوية التي تغذي المشاعر وتثبت الايمان ، وما هي نظرتنا الى أدبنا ما دام الادب الحق صورة صادقـة للاجتماع بما فيـه من عواطف وأهواء وآراء ومذاهب ووقائع ، وثمرة للاضطراب

الفكري الذي كان ولا يزال دليلا على قوة الادراك وحياة النفوس، وتعبيراً عن لحظة من لحظات الحياة لا يكتفي بادراك العقل لها إدراكاً ولكنها تخلد بالالفاظ وتوضح بالعبارات . وقف بعد أن جاب الشرق والغرب وترجم ما ترجم وخطب ما خطب وهو يحمل على أدبنا القديم الباكي ، المتمرغ على الاعتاب، البادي الانانية هذا الادب الكاذب الذي لا يلتمس في اكثره سوى النحيب والهجاء والغزل والمديح ، هذا الادب الذي فقد مقومات الرجولة الحقة ومقاييس الرجال الصحيحة واورد من قصيدة لأبي الطيب قالها في شبابه لا في المدح ولا في الهجاء كما ادعى مطلعها :

كم قتيل كما قتلت شهيد ... لبياض الطلى وورد الخدود
وعيون المها ولا كعيون ... فتكت بالمتيم المعمود

قوله :

جمعت بين جسم احمد والسقـ ... ـم وبين الجفون والتسهيد
هذه مهجتي لديك لحيني ... فانقصي من عذابها أو فزيدي
شيب رأسي وذلتي وتحولي ... ودموعي على هواك شهودي

ونسي القصيدة كلها، نسي منها ان مفرشه صهوة الحصان وان درعه الحديدية أحكمت يدا داود نسجها بل نسي منها قوله :

فاطلب العز في لظى ودع الذ ... ـل ولو كان في جنان الخلود
يقتل العاجز الجبان وقد يعـ ... ـجز عن قطع بخنق المولود
ويوقى الفتى المخش وقد ... خوض في ماء لبة الصنديد

ولم يعرف ان للمتنبي فلسفة القوة وكان قوياً في حمله على الناس والزمان ، قوياً في احتقاره اللذات الوضيعة ، وطلبه لمعالي الامور ، قوياً في نفسه لا يهاب الدهر ولا يكترث لأحداثه ، قوياً في دعوته للناس ان يثوروا ويؤسسوا مملكتهم على حد السيف ، يجد في شعره كل انسان وصفاً لناحية من نواحي نفسه ويرتاح

للاستشهاد فيها بشعره وهاهي ذي الحمرة التي صبغ بهـا حدثه الحمرا أصبحت لوناً لكل حرية :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أي الساقيـين الغمائم

***

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وللحـرية الحمراء بـاب بكل يد مضرجة يدق (شوقي)

***

في مهرجان الحق أو يوم الدم مهج من الشهداء لم تتكلم (شوقي)

***

جرح يصيح على المدى وضحية تتلمس الحـرية الحمراء (شوقي)

وهو القائل في قوة نفسه ومضاء عزيمته :

يحاذرني حتـفي كأني حتفـه وتنكزني الأفـعى فيقتلهـا سمي

طوال الرديـنيات يقصفهـا دمي وبيض السريجيات يقطعهـا لحمي

يرتني السرى بري المدى فرددتني أخف على المركوب من نفسي جرمي

وأبصر من زرقاء جو لأنـني متى نظرت عينـاء ساواها علمي

كأني دحوت الارض من خبرتي بها كأني بنى الاسكندر السد من عزمي

ثم تعمق خطيبنا المشهور فبين انه يكبر من يحتقر الدموع ويمجد الألم من الشعراء كألفرد دوفيني مثلاً . وهناك خطر ببالي قول هـذا الشاعر الكبير على لسان الذئب: ونظر الينا والمدى لا تزال الى مقابضها في خاصرتيه ـ نظر الينا ثانية وبدون ان ينحط الى ان يعرف كيف هلك، وبدون ان يصرخ أطبق جفنيه وقضى.

وقول شاعرنا الصغير على لسان أسده :

أنف الكريم من الدنية تارك في عينه العدد الكثير قليـلا

والعار مضاض وليس بخائف من حتفه من خاف مما قيـلا

فقلت : لا فرق بينهما الا كالفرق بين حقيقة الأسد و لذئب ذلك لانه لم يدرس أدبنا القديم كما ينبغي وحفظ منه بعض الابيات ، ثم اخذ يرددها لانها تلائم ما انطوت عليه نفسه من حكم ممزوج باللؤم والضعف ولم يعلم « ان الذين يزدرون الأدب العربي ويغضون منه يجهلون هذا الادب جهلاً منكراً ، وما كان لمن جهل شيئاً أن يحكم عليه » .

فتننا كل ما هو غربي فلم نعرف الا النزر اليسير عن حقيقة العقلية العربية واسترسلنا في فتنتنا حتى سرى هذا الجهل الى براعمنا التقدمية فأصبح الطالب أمل الغد ودعامة المستقبل بعد أن كان يدرس من المتنبي شاعر العنصرية ما يبعث فيه روح القوة والاندفاع ايام المستعمر يكتفي الآن بالقصيدة الواحدة أو الاثنتين: هذه في الرثاء وتلك في المدح يلوكها كما يلوك الادرد قطعة من اللحم النيء لا يلبث ان يقذف بها بعد أن يجهد فكيه لا طعم ولا فائدة ، ولقد كنت أتحدث الى تلاميذ لي سنة ١٩٣٩ في أن الحلفاء يشيدون بالبطولة التي يبدونها في مهارتهم في الانسحاب من أمام الالمان والفرار عن طريق دونكرك ، واذا بطالب يذكرني بقول أبي الطيب في مدح سيف الدولة :

أغرّ اعداؤه اذا سلموا بالهرب استكبروا الذي فعلوا

واذا به يذكرني بشيء يغيب عن حفظي ، أما الآن فقد تركت براعمنا التقدمية هذا الطالب يطلب اليك الاقتصار من المقرر له من الشعر على أبيات، ومن الشرح على أسطر فلا يسير مع أبي العلاء في نقده الحياة الاجتماعية نقداً عاماً شاملاً وافياً متقصياً لا يترك ملوكاً ولا امراء ولا رجال دين ولا وعاظاً :

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء

ولا يطير معه طيران استاذنا الهنداوي على مركب الجحجلول من كفر طاب أو على صحنه الطائر :

وقد وضع قلمه «الباركر» في جيب قميصه بعد أن جمع جراميزه ، ومشط شعره المصبوغ وهو يصرخ لماذا لا نتطور ؟ لا يرضى بقراءة «رسالة الغفران» ولكنه

يقارن بينها وبين ما كتبه دانتي ومحي الدين ويرد ما جاء في القرآن من الفروع الى الاصول .

ولقد تجلس الى احدهم فينفض اليك جمل علمه منتفخاً منتفشاً ويخرج دفائن صدره ناطقاً بوحي الآلهة، منتقلاً من هذا الى ذاك : من شكسبير الى موسه ومن فولتير الى روسو ، من باتو الى وود ومن ونكلمان الى غيره واذا تركته وشأنه دون مقاطعته عب عباً به وزاد اسطخابه حتى اذا سألته عن شيء مما له به صلة سخر منك ملء شدقيه ، ما هو الادب العربي ؟ الخير في إماتته لا في إحيائه ، واخذ ما يصلح للبقاء منه، ثم ان المتنبي شاعر بيت ، وان تفضل جعله شاعر مقطوعة ولا أمل ان يكشف الله عن بصيرته فيجعله يعترف له بالقصيدة لأن القصيدة العربية القديمة لا وحدة معنوية لها ـ على زعمه ـ ، نحمل حملات تختلف في نوعها وقوتها وضعفها ، على الشعر القديم ، نحمل عليه من حيث صحته وعدم صحة نسبته ، ونحمل عليه من حيث إنه ثقيل على الذوق ، بعيد عنه في اسلوبه ولفظه وتشبيهاته ، ونسى أن هناك اشياء نشأت مع الشعر القديم وانتقلت معه في جميع عصوره ، حاولت العصور ان تمحوها فلم تستطع ، وتلك الاشياء تجعل الشعر العربي عربياً وتجعله وحدة يشبه بعضها بعضاً ، بمقدار ما يحافظ عليها الشاعر يكون ممتازاً ، وبقدر ما يحاول ان يحفظ الصلة بين قديم السنة الادبية وحديثها وان يستفيد من خلاصة ما ترك القدماء ويضيف اليها ما ابتكرته عقول المحدثين من ثمرات انتجها الرقي وأثمرها تغير الاحوال وتبدل الظروف يكون موفقاً » .

وبمقدار هذه المحافظة ، وهذا التعصب ، استطعنا أن نبني نفوساً وقفت أمام المستعمر ، انني لن أنسى هذا الطالب الشهيد وهو يحدثني في يوم عاصف وفي باحة المدرسة ويسمعني ما كتبه في موضوعه الادبي من شعر قوي ثم بعد ساعة أراه مزملا بالدم مجندلاً مع رفيقه :

لست أنسى حواره لي يوم الـ ـ ـ مي والصدق ماثل في حواره
ملء عينيه للبراءة معنى يتجلى في ثغره واحواره
ما ترى في هل أفوز وسعي لك باد والمرء رهن اقتداره؟؟

فزت بالمجد يا بني وهـذا ا ـ ـ مرس طفرى التاريخ في اسفاره
أنت رمز الشبـاب يهتز للمج ـ ـ د فيمشي مغروراً في خطـاره

ونهفو الى استلهام الادب الغربي معرضين عن استلهام الادب العربي بعظمته وكبريائه ، ووضوحه ، وهو نتاج مجتمعنا وبيئتنـا قديمها وحديثها مغترين بالاول على ما فيه من بعد عن روحنا ، ظانين اننا نسلك طريق التجديد ، والواقع اننـا نمسخ في نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد فليس التجديد في إماتة القديم ، وانما التجديد في إحياء القديم واخذ ما يصلح منـه للبقاء ، « اما ان ننصرف عن واقعية الجاحظ والجاهلي النبيلة الى واقعية تنحدر الى تصوير أحط الغرائز الدنيا في الانسان » ، الى رمزية مبهمة غامضة لا يعرف المرء من ورائها فكرة أو معنى ، ولا تعنى بمجتمع أو انسان ، ونهيم بهـذه الرمزية حتى نحار كيف نخلق من ابن الفارض شاعراً رمزياً ، ونستلهم عبقريتنا مرة اخرى فنتكر رمزية ابن الفارض وأضرابه من المتصوفة ونوجد من الشريف الرضي رمزية بودلير العرب فنجعله واضع أسس الرمزية العالمية في الشعر العربي كأن امورنا لا تستقيم الا بهذا التقليد ـ فاذا قال فيرلين زعيم الرمزية : ان التنهدات الطويـلة المنبعثة من قيثارة الخريف تجرح قلبي بانحطاط مستمر ، كل شيء خانق وباهت ، وعندما تدق الساعة أتذكر الايام القديمة وأبكي وانطلق مع الريح التي تحملني الى هنا وهنـاك شبيهاً بالورقة الميتة . جعلنا قول الشريف الرضي مقابلة للمعنى ذاته :

لا عادت الكأس عليل النسيم بعدي ولا قضت ختام الهموم
في ليـلة غاب معي بدرها وحاربتها في الظلام النجوم
يا ليلة تكسر ألحاظهـا كأنها مكحولة بالغيـوم
أحيت شآبيب الحيـا منزلا مات لنا فيـه الزمان القديم
كم صبغ الدهر قميص الثرى وعاد رق الارض ضاحي الوشوم
لي في حواشي البرق أنس فلا أدري أأغضي دونه أم أشيم
لو أن قلبي مطلق في الحشـا جرى اليهـا في عداد النسيم

ثم نطبق على شعره فلسفة الادب الرمزي ونجعل صوفيـة ابن الفارض ملتبسة التباساً بالادب الرمزي لان قوام نظمه على المنطق والدليـل العقلي لا على بسط الافكار من حيث اشتراك الحس الشخصي والشعور الباطن ، ثم تعرونا هزة الابداع انتفاضة عصفور أبي صخر الهزلي :

واني لتعروني بذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

فننتقل متوقلين كراع الرق كما يقول المهلهل في محيين أعدائه ، رامين كل ما مر جانباً باحثين عن « السريالية » (أو فوق الواقعية) ولا يكاد ينشر منها نماذج في كتاب حتى يظهر فينا شعراء سرياليون ولا ازال اذكر مجلساً لي معهم وقـد اجتمعوا عند احد الاخوان في حلب واخذوا يبدعون قصائدهم : تراب . رابية . نجم . شجرة . جبل . نهر . قبر . قصيدة .

واني لالتفت الى هـذا وذاك ضارعاً تارة ، ساخراً طورا ، شاتماً حيناً ، وهم يشرحون كل كلمة محاولين ان نفوقوا فحول شعراء السريالية و . . . . . واذا كانت حياتنا ايها السادة تقليدية فلا شك اننا في هـذا النوع نخرف ونهزي بخزعبلات العقل الباطن وهواجس اللاوعي ونحتفل بأضغاث الاحلام ، ونتكر المنطق والعقل والشعور واوضاع المجتمع ! واننا لنؤثر الف مرة ان نعيش في جو امرىء القيس اللاهي والنابغة الشاعر المداحة وعروة الصعلوك وابي نواس السكير وابن الرومي الهجاء الوصاف والبحتري وعلوة بين بانقوسا وبطياس :

فيهـا لعلوة مصطاف ومرتبع من بانقوسـا فباتلى وبتياسي
يا علو لو شئت أبدت الصدود لنا وصلا ولان لصب قلبك القاسي
أمد كفي لأخذ الكأس من رشأ وحاجتي كلهـا في حامل الكاس

وفي جو شوقي وحافظ وبشارة (وأبو ريشه) وعيسى سليمان على ان نعيش في هذا الجو الذي لا نحترم فيه نفوسنا .

جلسنا ثلة من الاصدقاء ، وقـد تناولنا الادب العربي بالنقد ، أما الجاهلي منه فحشن ، وأما العباسي منـه فليس فيه الا المدح والذم وأما المعاصر فلا يساوي

شيئاً (القديم يجب ان يترك للشيوخ الذين يتشدقون بالالفاظ ويملأون أفواههم بالقاف والطاء وما يشبههامن الحروف الغلاظ ، والاستمساك به جمود ، والاندفاع في الحياة الى الأمام هو التطور وهو الحياة وهو الرقي) ومن هو شوقي وحافظ وبشارة وأبو ريشه هؤلاء حاولوا إحياء الشعر العربي القديم والملاءمة بينه وبين العصر الجديد ، ألا تستطيع أن ترد كثيراً من قصائد شوقي وحافظ والبارودي وغيرهم الى البحتري وأبي تمام والمتنبي ، كبائية الاول وسينيته اللتين قلد بهما الاولين كما تقيل أثره في الثانية بشارة الخوري والحوماني وكثير من الشعراء غيرهما ، ومما زاد الطين بلة أن احدهم يرجع الى العصور القديمة النائية ويأخذ منها بعض معانيه ، اننا نعذر مثل ابي تمام في اخذه قوله :

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول اذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحائب

من أوس بن حجر :

أقول بما صبت علي غمامتي وجهدي في جل العشيرة أحطب

ولكننا لا نعذر المعاصرين ، وهنا طاب لي الاندماج في جوهم فقلت وهم الآن يسمعون : لقد كنت جالساً أصيل يوم مع عمر أمام قامة حلب، الطلل الخالد، وما كاد يصل الى قوله الرائع في طلله :

قفي قدمي ان هذا المكا ـ ن يغيب به المرء عن حسه
لقد تعبت منه كف الدما ـ ر وبانت تخاف أذى لمسه
هنا ينفض الوهم أشباحه وينتحر الموت من يأسه

حتى قال لي ـ وقد رآني افكر ـ هات ما خطر ببالك ، قلت له :

اخذ بنو لحيان على تأبط شرا الشاعر طريق جبل وجدوه فيه يجني عسلاً ولم يكن له طريق غيره ، فأقبلوا عليه وقالوا : استأسر أو نقتلك فكره أن يستأسر وصب ما معه من العسل على الصخر ووضع نفسه عليه حتى انتهى الى الارض من غير طريقهم فصار بينه وبينهم مسافة بعيدة ونجا منهم ثم قال :

اذا المرء لم يحتل وقد جد جده ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً ... به الخطب الا وهو للقصد مبصر
هما خطتا اما اسار ومنقصة ... واما دم والقتل بالحر أجدر
واخرى أصادي النفس عنها وانها ... لمورد حزم ان فعلت ومصدر
فرشت لها صدري فزل عن الصفا ... به جؤجؤ عبل ومتن مخصر
فخالط سهل الارض لم يكدح الصفا ... به كدحة والموت خزيان ينظر

فقال لي عمر وقد أشرقت أساريره هو والله ما حزرت وما انتحار الموت من يأسه في بيتي الا صدى نظر الموت خزيان في بيت ابي زهير . وما كاد ينتهي من كلته حتى جاجل صوت هو أشبه بصوت زعيم الأدب : (اني اكاد اتخذ الميل الى إماتة القديم أو إحيائه في الأدب مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم ينتفعوا بها . فالذين تلهيهم مظاهر هذه الحضارة عن انفسهم حين تلهيهم عن أدبهم القديم لم يذوقوا الحضارة الحديثة ولم ينتفعوا بها ولم يفهموها على وجهها وانما اتخذوا منها صوراً وأشكالاً وقلدوا اصحابها تقليد القردة لا اكثر ولا أقل . والذين تلفتهم الحضارة الى انفسهم وتدفعهم الى إحياء قديمهم ، وتملأ نفوسهم ايماناً بالاحياة لقطر الا اذا عني بتاريخه القديم . بالأدب العربي قديمه وحديثه عنايته بما يمس حياته اليومية من الوان الحضارة الحديثة ، هم الذين انتفعوا وهم الذين فهموا وهم الذين ذاقوا .

وهم القادرون على أن ينفعوا في إقامة الحياة الأدبية الجديدة على اساس متين . ونظر الي احدهم وقال : هل رأيت مثل هذا الادب المختار ومد يده الي بكتاب انكليزي فيه مختارات مترجمة من روائع الادب العالمي لاستاذ كبير جامعي في انكلترا واخذ يقلب صفحاته الى ان ثبت نظره في صحيفة وقرأ فقلت له : ترجم فأنا لم أتعلم من اللغة الانكليزية الا بعض الكلمات التي استطعت ان امزجها بالفارسية والافرنسية لأكون ترجماناً لرفيقي في الهند ، ولما ان ترجم لي السطر الاول وهو يهز رأسه إعجاباً خبرته ان ترجمته حرفية لبيت تأبط شرا يصف صديقاً له :

قليل التشكي للهم يصيبه ... كثير الهوى شتى النوى والمسالك

وكانت ترجمة الثاني :

اذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل له كالئ من قلب شيحان فاتك
ويجعل عينيه ربيئة قلبه الى سلة من حد أخلق صائك
يرى الوحشة الانس الانيس ويهتدى بحيث اهتدت ام النجوم الشوابك

ولما ان عرف ان هذه القصيدة موجودة في الادب الجاهلي طلب الي ان اكتبها له واعجبه ادبنا كما اعجبتنا قصيدة السهروردي :

ابداً تحن اليكم الارواح ووصالكم ريحانها والراح

لما ان القاها على مسامعنا في هذا البلد احد كبار المستشرقين وبهرتنا حتى اخذ اشخاص ينقبون عنها وهي اكثر انتشاراً من الفخار في سوق الخابية والباذنجان في (السقطية) وذكرت ان الدكتور محمود عزمي اراد ان يدخل مسجد خليل الرحمن وهو ثاني مسلم مصري متبرنط فلم يجد وسيلة للدخول الا ان يستعير طربوش الاستاذ خليل السكاكيني المسيحي فكان جواز دخوله وكانت مثلا يتندر به في المجالس ، وهكذا نحن نعرف ادبنا عن طريق الغرب فلولا ترجمة جوت لقصيدة تأبط شرا :

ان بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

لما لذت لنا هذه القصيدة ولبقينا لا يهمنا الا ان نثبت انها منحولة غير ناظرين الى ما فيها من رجولة وقوة :

مسبل في الحي أحوى رفل واذا يغزو فسمع ازل
وله طعمان أري وشرى وكلا الطعمين قد ذاق كل
يركب الهول وحيداً ولا يصحبه الا اليماني الأفل

ولولا الاديب الانكليزي الذي ترجم قصيدة تأبط شرا :

قليل التشكي للهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك

لما تزحزحنا عن موقفنا من الازدراء بادبنا . أجل لولا بلاشير لما كتب طه حسين مع المتنبي ولولا ديمومبين لكان الادب الجاهلي في خبر كان . ولا شك ان هذا من ثقتنا بأنفسنا والثقة بالنفس تشد العزيمة وتقوي السواعد وتجعل من القلة كثرة حتى يحسب العدو لنا حساباً فتكون كلمتنا في مضامير النضال (في هيئة الامم مثلاً) هي العليا !!!

وما لنا نذهب بعيداً عن الواقع . لنلق نظرة على روائع النهضة الاوروبية الحديثة تلك التي يطلق المؤرخون عليها اسم (الرونيسانس) أي عصر الانبعاث . ألا نرى ان فحول شعراء الغرب قد اتكأوا في أدبهم من شعر ونثر على آثار اليونان والرومان . وانهم قد تأثروا بتلك الآداب القديمة الى أبعد حد مستطاع . أليست ملحمة الشاعر الانكليزي شلي وهي (بروميثوس طليقا) صدى اسطورة يونانية قديمة . ثم ألم يستوح (بيرون) و (لامارتين) و (جوته) و (دوميسه) و (راسين) و (كورني)وغيرهم آثار اليونان والرومان ويقلدوها تقليداً يفخرون به في اكثر الاحيان . ألم يفتخر (دانتي) خلال ملهاته الالهية بمرافقة شاعر الرومان الاكبر (فيرجيل) وبعده منبع وحيه واستاذه الاكبر في رحلته الخالدة . أجل لقد عرفوا كيف يحيون ماضياً بعيداً عنهم ويستفيدون من ابداعه وعبقريته اما نحن فاننا ما زلنا نتسلخ من ماضينا العربي الاصيل .

اما نظرتنا نحن الى ادبنا هذا المزدرى فهي : ان في كل ادب عناصر انسانية اشتركت فيها الآداب عامة في كل العصور كالحب وما يستتبع من غزل واخلاق الناس وما فيها من رفعة احياناً وضعة احيانا ، ومقياس مقدرة الامة الادبية ليس في نوع ما تعرضه ولكن بمقدار استخدامها لبيئتها في ادبها ، والحق ان الامة العربية استخدمت بيئتها في ادبها استخداما يدعو الى الاعجاب فلم تترك صغيرة ولا كبيرة الا أولتها عنايتها وافاضت عليها الطبيعة من فصاحة القول وقوة اللسن ما يصح ان تقف به أمام الامم الاخرى مباهية .

برع الادب العربي في وصف المشاعر من حب وجمال وتفنن ما شاء له التفنن في عرض الصور حتى كاد يستوفيها مع قوة روح وحرارة حتى ان هذا

النوع من الادب لما ظهر في الادب الاوربي في القرون الوسطى اتجه كثير من النقاد الاوربيين يبحثون عن مصدره في الادب العربي وكذلك الشأن لما ظهرت في اوروبا حركة الرومانتي فقد رأى كثيرون ان لها بالشعر العربي علاقة وثيقة .

أعرب عن عواطف الانسان وصوّر أدق خطرات النفس وأخفى هواجسها ولم يقصر في وصف ما أحاط بالانسان من مظاهر الطبيعة وحوادث الزمان .

والعاطفة في الأدب أبرز سبب من اسباب خلوده . فما كان لمن يذكر ايامه الخوالي وايام طفولته مع من أحب ليعبر بأجمل من قول المجنون وان كانت ليلاه لم تزل في عينه طفلة :

تعلقت ليلى وهي ذات تمائم ... ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت اننا ... الى الآن لم نكبر ولم تكبر البهم

ولذلك الجندي الذي يذكر في مواقف الخطر من يحب بأروع من قول عنترة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لانها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

أو قول خالد بن يزيد في رملة :

تجول خلاخيل النساء ولا أرى ... لرملة خلخالا يجول ولا قلبا
فان تسلمي نسلم وان تتنصري ... يعلق رجال فوق أعينهم صلبا
أحب بني العوام طراً لأجلها ... ومن اجلها أحببت اخوالها كلبا

وهذا الغزل العربي قد بلغ في تصويره العواطف الانسانية الغاية حتى وجد فيه الصوفية تصويراً لأسمى مدار كهم ، الغزل النفسي العالي الذي يسمو بالنفس الى أسمى نزعاتها حتى يكاد يخلعها عن المادة . أليس قول عروة ابن اذينة :

قالت :

وأبثتهـــا وجدي فبحت به قد كنت عندي تحت الستر فاستتر
ألست تبصر من حولي فقلت لها غطى هواك وما ألقى على بصري

أصلا لقول ابن الفارض :

تراه ان غاب عني كل جارحة في كل معنى لطيـــف رائق بهج
في نغمة العود في الناي الرخيم اذا تألفا بين ألحان من الهزج

وما قصر الشعر العربي في وصف الطبيعة واستيفاء ملاهي الانسان والترويح عنه فانظر الى ظرف ابي نواس في قوله :

وقصرية أبصرتهـــا فهويتهـــا هوى عروة العذري والعاشق النهدي
فلما تمادى هجرهـا قلت واصلي فقالت بهذا الوجه ترجو الهوى عندي
فقلت لها لو كان في السوق أوجه تبـاع بنقد حاضر وسوى نقـد
لغيرت وجهي واشتريت مكانه لعلك ان تهوي وصالي من بعد
وان كنتُ ذا قبح فاني شاعر فقالت : ولو اصبحت تابغة جعدي

ويسمو الادب العربي الى ذروة الآداب في الاخـلاق ولا سيما الاخلاق القوية ولعل هذه أروع صحائفه فقد تغنى شعراء الجاهلية بأخلاق الفتيان الاماجد وفضائلهم . بالحرية والقوة والاباء والحلم والشجاعة والسخاء والوفاء ومواساة الفقير والحدب على الضعيف والتواضع وقوة الاحتمال وإكرام الجـار حتى قال عروة بن الورد مخاطباً من سخر من ضعف جسمه وهزاله وسمنه وضخامته :

أتهـزأ مـني ان سمنت وان ترى بجسمي شحوب الحق والحق جاهد
واني امرؤ عافي انائي شركة وأنت امرؤ عافي انائك واحـد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح المـاء والمـاء بارد

وعدد طرفة من سجاياه فبين انه كريم شجاع متلاف ، يعطي نفسه حقها من اللهو ، ويعطي الواجب حقه من التضحية :

انا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد
اذا القوم قالوا : من فتى خلت اتي عنيت فلم اكسل ولم أتبلد
ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد
فان تبغني في حلقة القوم تلقني وان تلتمسني في الحوانيت تصطد
وان ادع للجلى اكن من حماتها وان يأتك الأعداء بالجهد أجهد

وأي غوي من شبابنا الغواة الذين يعيشون بين الكأس والطاس أي غوي لا يجد في هذا تلخيصاً لحياته كلها :

كريم يروي نفسه في حياته ستعلم ان متنا غدا أينا الصدي

وتغنى الآخر بالعزيمة والحزم وانه لا يتردد ولا يتلوم وإلا قضى عليه تردده وتقاعسه فهو :

اذا هم لم تردع عزيمة همه ولم يأت ما يأتي من الامر هائبا
اذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر في رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

يأبى الضيم والاواؤه المضيم ونفوره من الذل جعله محباً للموت خير له ان يموت شجاعاً من أن يعيش ذليلاً جبانا . فالخنساء أم الابطال : تهين النفوس لعلمها ان بذل النفوس يوم الكريهة أبقى لها وأخلد وأن الموت سبيل الحياة فلم لا تستهتر بالمخاطر ما دامت الغاية هي الموت :

فاقني حياءك لا ابا لك واعلمي اني امرؤ سأموت ان لم أقتل

ولم لا يقتحم الخطوب بقلب ثابت وشجاعة بالغة المدى وانفاً من شجاعته وبأسه ودربته وحنكته في حميا القتال انه يبغي من اقتحامه المكاره الحمد والصيت والبقاء في عزة وحرية :

لعمر أبيك الخير اني لخادم لضيفي واني إن ركبت لفارس
واني لأشري الحمد أبغي رباحه وأترك قرني وهو خزيان ناعس

وهو لا ينكر ان الحرب سجال وان الدهر يومان يوم لك ويوم عليك فلا يظن انه لن يصاب ، ان هـذا ظن العاجز لا يكتم التعبير عن وقائعه في صدق وصراحة وقوة في شعر غنائي صحيح والصدق قوة والتمويه عجز :

شددنا شدة فقتلت منهم ثلاثة فتيـة وقتلت قينـا
وشـد وشـدة اخرى فجروا بأرجل مثلهم ورموا جوينا
وكان اخي جوين ذا حفاظ وكان القتـل للفتيان زينـا
فآبوا بالرمـاح مكسرات وابنـا بالسيوف قـد انحنينا

والكرم من السجايا التي نبتت في الصحراء واحتلت منزلة سامية في نفس العربي فرشحته للرياسة والسيادة ، المال في ذاته ليس غرضاً ولا قيمة له ان لم يغث به الملهوف ويكسب به الحمد ويحمى به العرض :

المال يغشى رجالاً لا طبـاخ لهم كالسيل يغشى اصول الدندن البالي
أصون عرضي بمـالي لا ادنسـه لا بارك الله بعـد العرض بالمـال
أحتال للمال ان أودى فأجمعـه ولست للعرض إن أودى بمحتال

ولا ريب في ان الكرم والشجاعة خلقان متلازمان فاذا قيل من للامور الجسيمة والشدائد والسنوات المجدبة لبى النـداء رجال عظام العطايا تندى اكفهم بالخير فاستمع الى آخر يصف شخصاً بالكرم والشجاعة :

يلقى السيوف بوجهه وبنحره ويقـيم هامتـه مقـام المغفر
ويقول للطرف اصطبر لشبا القنا فعقرت ركن المجد إن لم تُعقر
واذا تأمل شخص ضيف مقبـل متسربـل أثواب عيش أغبر
أوما الى الكوماء هـذا طارق تحرتني الاعداء ان لم تنحري

وكرم القلب في الصفح عن السيئة ، والاغضاء عن الخطيئة واللين لخشونة الصاحب حتى يستل منه الضغن ويغسل بماء الحلم وخز الفؤاد :

وذي رحم قلمت اظفار ضغنه بحلمي عنه وهو ليس له حلم
فان أغض عنه أغض عيناً على القذى وليس له بالصفح عن ذنبه علم

انه حلم المقتدرين الاقوياء لأجل الضعفاء والجبناء الذي عبر عنه المتنبي فيما بعد بقوله :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجئ اليها اللئام

في الأدب العربي حماية الجار الذي يصبح له ما لكل افراد القبيلة من حق ورعاية فلا يميز الجار من جاره وكثيراً ما قرأنا في ادبنا غضب من يرحل عنه جاره ويلجأ الى سواه فعل الحطيئة الذي تحول عن جوار الزبرقان فكان فعله طعناً في كرامة الثاني وسبباً من اسباب النزاع بين ابناء العم وكثيراً ما كانوا يذهبون بالجوار الى ما بعد الموت فعل عامر بن الطفيل مع الأعشى حين استجار به فقال له : أتجيرني من الانس والجن قال قد أجرتك قال ومن الموت ؟ قال : نعم . قال : وكيف تجيرني من الموت ؟ قال : ان مت وأنت في جواري بعثت الى اهلك الدية . قال : الآن علمت انك قد أجرتني من الموت . يطول بي القول ان رددت ما لهج به الشعراء من اعتزاز لهذه المفخرة فما ضر أحدهم ان يكون قليلا وجاره عزيز : لا يعتقد الا انه من القبيلة واليها واما تلبيته لدعوة المكروبين في الحرب دون تردد وسؤال :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

وفك العاني الذي أسر في الحرب ودفع ما يطلبه من أسره .

وأما الدفاع عن المرأة فروح هذا الادب وجناحه ينافح عنها في الحرب :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا اذا لم تمنعونا

وفي السلم بعدم التعرض لهن بسوء والمحافظة على عفافها وحرمتها :

وأغض طرفي ان بدت لي جارتي حتى يوارى جارتي مأواهـــا

أما جار اليوم فيمشط شعره ويمسح خديه وقد يصبغ شفتيه ليتمسح بجارته ويقف في طريقها صباح مساء فأين هذا من حاتم الجاهلي القائل :

وما ضر جاراً يا ابنـة القوم فاعلمي يجـاورني ألا يكـون له ستر
بعيني عن جارات قومي غفلة وفي السمع مني عن حديثهم وقر

ذخر الشعر العربي بهذه المروءة العربية وبتلك الفتوة على مر الزمان وقل ان يباشر احد خطباً جسيما من حرب أو نازلة بالنفس أو المال أو حادثة تمتحن بها الاخلاق الا وجد مدداً من الشعر يثبته ويحفزه الى المعالي ويدعوه الى مـكارم الاخلاق . ولا ريب أن في ذخائر الشعر العربي الاخلاقي ما يفي بتأديب امة وتنشئتها على خير الاخـلاق وأحسن السير وليس لأمة من الامم مثل هـذا الشعر القوي العزيز الكريم السامي .

والأدب العربي القديم من أعرق الآداب وأبرعها في رسم الاشخاص وتصوير الطبـائع ، وما من عجب في ذلك فهو وليد حضارة ذكية خلاقة ، حق لنا أن نستخرج كنوزه المدفونة في كتب أدبنـا وأن ننبه الى محاسنها فعل الدكتور طه حسين وتوفيق الحكيم الذي بيّن للناس كيف طبخ لهم هـذا اللون من ألوان الادب في كتابه (أشعب) لقد استحضر اللحم والبقل والتوابـل والابازير من حوانيت أربعة مشاهير : الجاحظ ، ابن عبد ربه ، الخطيب البغدادي وبديع الزمان ، ملأ يده مما تخير من اطايبها وذهب به الى مطبخ فنه حيث مزجه وخلطه وجعل منه عجينة واحدة صاغ منها قصة أشعب المتصلة الفصول ، اقول فعل هـذا الرجل وأضرابه ولربما تجد في قصيدة لأبي تمام أو المتنبي من ابيات الحماسة البليغـة ما لا تجده في الف بيت متوالية في منظومة طويلة كالشاهنامة وربما كان في شعر المتنبي وحده من الابيات الحماسية القوية ما ليس في منظومة فيها عشرون الف بيت .

ألّف المستشرق (براون) اكبر كتاب في تاريخ الادب الفارسي ولم يمنعه الحق أن يقول : ان الشاهنامة لا تقاس ساعة بعيون الشعر العربي الجاهلي ، فما ظنكم بما أبدع شعراء العرب في هذا الضرب بعد الجاهلية .

يقول الريحاني ان في قصيدة واحدة من قصائد المتنبي لوصفاً للجيش وصوراً هائلة من صور الحرب يقصر دونها هوميروس في أليادته فهل يصح لنا ان نقول بعد ما تقدم ان أدبنا كاذب لا نلتمس من اكثره سوى النحيب والهجاء والغزل والمديح ، وان مقومات الرجولة الحقة ، ومقاييس الرجال الصحيحة لا دخل لشعرائنا بها . أيكون لدينا الشعر الجاهلي بقوته، والشعر العباسي بسحره والشعر الاندلسي برقته ، وهؤلاء الشعراء المعاصرون بمواهبهم وتغنيهم بآلامنا وأحلامنا ثم نقف من أدبنا موقفنا ؟

ايها السادة :

ان الادب ولا سيما الشعر منه رسالة الحياة الاولى ، وهي واسعة المدى ، مختلفة الانماط أسمى من أن تشملها نظرة مهما تعمقت أو أن يستوعبها قلب مهما كبر ، ونحن وإن كنا نرتاح الى قول بشارة :

لو الف المجد سفراً عن مفاخره ... لراح يكتب في عنوانه حلبا
بعض الجديد الذي يدعونه ادبا ... يموت في يومه هذا اذا وهبا

نعتقد أن الروح الانعتاقية ينبغي ألا تفوت أدبنا ولكننا ننكر أن ننظر اليه نظرة احتقار وازدراء فنكون مزدرين لأنفسنا متناسين ماضينا ومن لا ماضي له لا حاضر له . والسلام

المراجع : الاغاني – الثقافة – بلوغ الارب – كتب طه حسين – الفتوة عند العرب – وكتب غيرها .

المحاضرة الثامنة

الأدب العربي
بين الأدب القومي والأدب الانساني

الدكتور أمجد الطرابلسي
الاستاذ بكلية الآداب في الجامعة السورية

= القيت بتاريخ ٩ أيار ١٩٥٢ =

سيداتي وسادتي :

فاتحة القول

عندما تفضل مضيفنا الليلة الاديب الكبير الاستاذ الكيالي فاقترح عليّ هذا الموضوع ترددت في قبوله بادئ ذي بدء . ذلك أني كنت مشغولاً بدراسات من نوع آخر لا صلة لها بهذا البحث . وخفت أن يصرفني عنها هذا الموضوع الجديد . فكتبت الى الاستاذ ، حفظه الله ، أنبئه بترددي هذا ، فلم يشأ إرغامي وترك لي الحرية في اختيار الموضوع . ولكنني رأيت بعدئذ أن من أبسط آداب الضيافة أن ينزل الضيف على هوى المضيف ، وأن من أول قواعد المسامرة أن يختار المحدث ما يلذ مستمعيه سماعه . كما أنني ـ وقد فكرت في الأمر ملياً ـ تنبهت الى أنّ من الممكن ، إذ لزمت الموضوع المقترح ، تصحيح بعض الافكار الشائعة وردّها الى نصابها في هذا الباب . وهكذا عدت الى الموضوع متمسكا به . وهأنذا اقدم اليكم حديثاً موجزاً في هذا المعنى ، اقدمه وانا اعترف أنه ليس لي منه إلا الصيغة والالقاء . أما اللباب فمنكم واليكم . فأديبكم هو الذي اقترح الموضوع وهدى الى الفكرة . وقديماً قال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك إذ كا ن دليلا على اللبيب اختياره

سيداتي وسادتي :

القومية والانسانية

يقول شاعرنا الكبير الرصافي ـ رحمه الله ـ في أبي العلاء المعري :

لا تقل : شاعر العرب إنه شـــاعر البشر

وربما استشم من هذا القول ، أو من عنوان حديثنا الليـلة ، أن هنالك تقابلاً ـ إن لم نقل : تنافراً ـ بين القومية والانسانية . وقد يكون من الخير ان نتبين حقيقة الصلات بين هاتين النزعتين ، فذلك ما لا بد منه لموضوع مثل موضوعنا. ولكن الوقت لن يتسع لمثل هذا البحث الأخلاقي الفلسفي . لذلك سنحاول البقاء في دائرة الادب لا نتعداها .

تعريف الفن وطابعه الفردي

إن الفن ـ كما يعرفه بعضهم ـ هو التعبير عن التجارب أو الادراكات أو الاحساسات الفردية البريئة غير النفعية . إن هذه التجارب التي هي مصدر لكل أثر فني ، توصف بالفردية لأنها تتكوّن لدى رجـل الفن دون أن يشاركه فيها سواه . وتوصف بالبراءة لأنه لا غاية لها سوى الادراك نفسه أو الاحساس نفسه . يقول علماء الجمال في تمثيل براءة الهدف الفني : ان المتنزّه المتعب ، اذا وجد نفسه وجهاً لوجه أمام غابة ذهّبها الخريف بألوانه البديعة ، لم يفكر الا في الراحـة التي سيستسلم اليها جسمه المكدود في ظلال تلك الاشجار الوارفة. وأما تاجر الاخشاب فانما يذهب به الفكر أمام هذا المشهد عينه الى تخمين المبالغ التي يمكنه كسبها من استثمار اشجار تلك الغابة . وأما رجل الفن فانه يكتفي بتمثل هـــذا المنظر ويقضي نفسه في تأملاته البريئة .

الطابع الاجتماعي للفن

ولكننا نرى الفنون ـ رغم طابعها الفردي الذي تحدثنا عنه ـ تمثل المجمع الذي تظهر فيه وتتجاوب معه الى حد بعيـــد . لأن الفن هو في كنهه ظاهرة اجتماعية . ولا يعقل تصور الادب أو أي فن آخر إلا في وسطه الاجتماعي. والادب ـ شأنه في ذلك شأن كل الفنون ـ ليس مجرد تجربة وإدراك ، بل هو كما قلنا تعبير عن هذه التجربة أو هذا الادراك ، ثم هو بعـد ذلك نقل وايصال لهذا التعبير . ومن قال : تعبير ونقل وايصال ، قال : مجتمع وحياة اجتماعيـة . فالاديب ـ وان ظن انه يعبر عن إحساساته الفردية ـ انما يعبر في الحقيقة عن العالم الخارجي المحيط به ، وهو ـ بالتالي ـ يساعد هذا العالم الخارجي على التقـارب والتماسك ، وذلك بجعله اياه يشترك في تقبل إحساسات فردٍ من افراده . إذ أنّ اشتراك جماعة من الجماعات في استحسان قصيدة أو ديوان شعر أو تمثال أو لوحة أو لحن من الالحان ان هو الا رابطة جديدة تزيد في تضامن افراد هذه الجماعة . ومن هنا قيـل عن الشاعر القديم : انه يمثل قبيلتـه ، وعن الشاعر الحديث : انه ينطق بلسان امته . ومن هنا ايضاً كان الادب من أثمن الذخائر القومية . وكم من امة عريقة في الفكر والادب ، عصف بهـا الدهر في احدى جهلاته ، فقوّض مجدها ودك استقلالهـا وفتح ابوابها للغزاة عصوراً طويلة ، فلم تيأس ، بل فزعت ـ فيما فزعت اليه للدفاع عن كيانها ـ الى أدبها وتراثها الفني، فعضت عليه بالنواجذ، واكثرت من تدارسه لاعتقادها أن في إبقاء أدبها حياً ماثلاً في القلوب استمراراً لمقوّماتها كأمة، وسنداً لنضالها القومي . وهذا ما فعلته أمتنا العربية في محنتها . وهذا ما فعلته الامـــة البولونية عندما تقسّمتها الدول في الماضي ، وهذا ما فعلته اليونان والهند قبـــل نوالها استقلالها . وهذا ما تفعله اليوم الهند الصينية وكثير من الشعوب المنكوبة بسيادتها وكيانها القومي .

الطابع الانساني للفن

واذا تابعنا المحاكمة في هذه الطريق ووسّعنا أفقها رأينا أن الفنون ـ رغم طابعها الفردي ـ لا تكتفي بتمثيل المجتمع القريب أو الامة ، بل هي كثيراً ما تطمح ـ من وراء المجتمع ومن وراء الامة ـ الى التجاوب والانسانية كلها . فهي لا يقنعها أن تكون رابطة قومية وحسب ، بل كثيراً ما تسمو الى أن تقرب بين الانسان والانسان مهما تباعدا في الزمان أو في المكان أو في الجنس . ولا احسبني بحاجة الى أن أضرب الأمثلة الكثيرة على هذا الطابع الانساني الذي يطبع الادب والفنون الجميلة كلها احياناً فوق طابعها القومي الاجتماعي : فما اكثر الشعراء والكتاب والمصورين والمثالين والموسيقيين الذين انتزعوا إعجاب العالم فلم يعودوا ملك امتهم وحدها بل غدوا مفخرة الانسانية جمعاء . وترجمات الآثار الأدبية الرائعة الى لغتنا والى لغات العالم جميعاً في القديم والحديث ، أليست وحدها دليلاً كافياً على انسانية الادب ؟ ولهذا قال الفيلسوف اوغست كونت : « إن فن الامة هو الجزء الوحيد من لغتها الذي في وسع العالم جميعه أن يفهمه . » وهذا ما يحسن بنا ان نفهمه من قول شاعرنا الرصافي :

آداب كل معاشر كعلومهم جلّت عن الاوطان في استغنائها

القيم الانسانية المشتركة

قد يبدو من المستغرب لأول وهلة أن يصبح الادب ـ وهو في طابعه الفردي الذي تحدثنا عنه ـ لغة عالمية ورابطة إنسانية . ولكن هذا الاستغراب يزول من نفسه اذا تذكرنا أن هنالك قيماً انسانية مشتركة لا تبالي الزمان والمكان، تخفق لها القلوب جميعاً : كالحب والاعجاب بالقيم الجمالية المتنوعة ، والنقمة على الظلم، وعاطفة الابوة ، والصداقة ، والوفاء ، وتمجيد البطولة والتضحية وغيرها من المشاعر الانسانية . فاذا كانت التجربة الفنية الفردية من هذا النوع الانساني

الاصيل ، وأحسن التعبير عنها ، أمكنها أن تتردّد في أجواء الانسانيـــة على ممر الزمن . وما أجمل ما قاله الشاعر الفرنسي هوغو في التعبير عن هـــذه الوحدة الانسانية . قال :

« ليس لأحد منا الحق في أن تكون له حيـاته الخاصة به . إن حياتي هي حياتك ، وحياتك هي حياتي . إنك ستحيا ما دمت انا حياً ، إن هـذا القدر الذي فوقنا واحد . وأسفاه ! إنني لأتحدث عنك أنت عندما أتحدث عن نفسي فكيف لا تشعر بذلك ؟ ما أبلد شعورك يا من تظن أنني لست إياك ! »

وعلى مثل هذا الوتر يضرب ابن الفارض حين يقول في تائيّته :

فلا حي إلا عن حياتي حياته ... وطوع مرادي كل نفس مُريدة
ولا قائل إلا بلفظي محدّث ... ولا ناظر إلا بناظر مقلتي
وكلهم عن سبق معناي دائر ... بدائرتي أو وارد من شريعتي

لا تناقض بين القومية والانسانية في الادب

وهكذا ترون ايهـــا السيدات والسادة أنه ليس هنالك تناقض محتم بين الادب القومي والادب الانساني . وليس من الضروري حتماً أن يكون الادب إما قومياً وإما انسانيـاً . بل إنه من الممكن ومن المعقول ومن الطبيعي أن يكون الادب قومياً وانسانياً في آن واحد . وليس الفرق بـين الادب القومي الصرف ، والادب القومي والانساني إلا في اتساع الافق وبعد الصدى الاجتماعي . وقديكون في وسعنا أن نتصور أدباً قومياً صرفاً يستثير الحماسة الفنية ضمن النطاق القومي ولا يستثيرها لدى الاقوام الاخرى . ولكن من العسير علينـا أن نتصور أدباً انسانياً غير قومي البتة . لأن الادب كما قلنا ظاهرة اجتماعية فلا بد له أن يعكس ما حوله ، ولأن المجتمع الضيق ، أو القوم ، أو الامة ، هو المنعكس الاول للتجربة الفنية ، والطريق التي لا بد من سلوكها لبلوغ الافق الانساني .

انغماس الادب في الخلافات القومية

إن ما يُخيل الينا احياناً أنه خلاف أو تناقض بين القومية والانسانية إن هو في الحقيقة الا اختلاف بين قومية وقومية لا بين القومية والانسانية . وهو خلاف عارض له شروطه وظروفه الخاصة ويزول بزوال هذه الشروط والظروف. وقد يعادي قوم قوماً ويجهرون بهذا العداء ، ولكننا لم نسمع أن قوماً جهروا بعدائهم نحو الانسانية كلها ، بل هم على العكس يستشهدون الانسانية أبداً على حقهم ويستعدونها على خصومهم .

وقد ينغمس الادب في هذه الخلافات التي تنشب بين امة وامة ، كما ينغمس في الخلافات التي تثور بين جماعة وجماعة في الامة ذاتها ، فيشتد إذ ذاك لونه القومي. وربما اصبح آنئذٍ في نظر الانسانية أداة للتفرقة بدلاً من أن يكون أداة للتقريب والتوحيد كما ذكرنا آنفاً . ولا شك أنّ مثل هذا الانغماس ضرورة قومية وطبيعة فنية . وأمثلة هذا الادب القومي أو الحزبي كثيرة في شعرنا القديم والحديث وفي شعر غيرنا من الامم . وربما استطاع هذا الادب ، رغم انغماسه في الخلافات القبلية أو الحزبية أو القومية ، أن يحتفظ بطابعه الانساني اذا كان على حظ كبير من صدق التعبير وحرارة الحياة وكمال الأداء . ولا أدل على ذلك من خلود كثير من الملاحم ، كالالياذة التي ليست في حقيقتها الا تمجيداً لذكرى حروب (طروادة) وتخليداً لأبطالها ، وكقصة عنترة ـ أو بالأحرى عنتر ـ التي ليست الا تمجيداً لمعارك داحس والغبراء وغيرها من وقائع هذا الشاعر الفارس .

ترفع الادب عن الخلافات القومية

وقد نرى الادب احياناً في مثل هذه الخلافات العارضة بين جماعات الامة ذاتها ، أو بين امة واخرى ، يترفع عن ان يكون أداة للتفرقة فيدعو الى التسامح والتعاطف ومسح الاحقاد . وهذا ما يكون أدعى الى احتفاظه بطابعه الانساني .

بين غاندي وطاغور

لما لجأ غاندي زعيم الهند الى سياسة اللاتعاون ومقاطعة الاجنبي الظالم اقتصادياً وعسكرياً أنكر عليه بعض المفكرين أخذه بهذا الاسلوب النضالي العنيف . وكان من اكبر لائمي غاندي على سلوكه هذا شاعر الهند (رابندرانات طاغور) الذي كان يخشى ان تؤدي هذه الدعوة الى بتر الهند عن العالم فكراً وقلباً فكتب يقول :

« لا أحب أن يكون منزلي محاصراً من كل جانب ، ولا أن تكون كل نوافذه موصدة . ليس ديني دين سجن ، إن ديني لا يوصد ابوابه الا أمام وقاحة كبرياء الجنس والدين واللون .

« إن الطائر اذا أيقظته أضواء الفجر لا ينفق لحظات نهاره الاولى كلها في البحث عن الغذاء . بل هو يخفق بأجنحته ليجيب داعي السماء ، بينما تسكب حنجرته في النور الجديد اناشيد الفرح .

« إن الانسانية الجديدة ترسل الينا بنداتها ، فلتجبها نفوسنا بلغتها . إن أول واجب علينا اذا بزغ الفجر أن نتذكر الواحد الأحد الذي لا يفرق بين طبقات البشر وألوانهم . فلندعُ الذي يهب عباده الحكمة أن يجمع شمل بني الانسان في تفاهم حق. »

هذا بعض ما قاله طاغور في لوم غاندي ، ولكن هذا لم يثن غاندي عن خطته في النضال القومي . واليكم بعض ما كتبه غاندي في الرد على انسانية طاغور:

« عندما يتساقط من حواليّ جوعاً لا يجوز لي أن أفكر بغير تغذية الجياع.

أما الشاعر فانه يعيش لغده لا ليومه . وهو يريد منا أن نحذو حذوه فيلوح لأعيننا المسحورة بصورة الطير الذي يستيقظ ليرتل تسابيحه وليرفرف بجناحيه نحو السماء .

« إن هذه الطيور قد أصابت نصيبها من الغذاء وهي إذ تطير إنما تضرب الفضاء بأجنحة نالت قسطها من الراحة وتجدد الدم في أعراقها طوال الليل .

« ولكنني قد أتيح لي انا أن أتألم لرؤية طيور فقدت قوتها فلم تعد ترغب في تحريك أجنحتها . إن الطائر الانساني تحت سماء الهند ليستيقظ صباحاً وهو أشد ضعفاً منه حين تظاهر بالنوم أول الليل . إن حياة الملايين من الهنود ليست الا سهاداً وإغماء متواصلين . لقد استحال عليّ أن اخفف من حدة آلام هؤلاء بالغناء. فلنعطهم عملاً ليأكلوا منه . »

وهكذا اصطرع الشاعر العظيم والزعيم العظيم . ولعمري إن غاندي في قوميته وفي تفطّر قلبه لمظالم شعبه كان أعمق انسانية من انسانية طاغور .

بين لامرتين وموسه

وها كم ايها السيدات والسادة مثلاً آخر لتشبث الادب احياناً بالفكرة الانسانية وترفعه عن الانغماس في الخلافات القومية :

في عام ١٨٤٠ نشب خلاف بين المانيا وفرنسا حول المسألة الشرقية . فنظم الشاعر الالماني (نيقولا بكر N. Becker) قصيدة عنوانها : (انشودة الريف) يتحدى بها الفرنسيين . وكان كل مقطع من مقاطعها يبدأ بالعبارة التالية :

« لن يكون لهم ابداً ، هذا (الرين) الالماني الحر ! »

فانبرى للرد عليه شاعران فرنسيان من اكبر شعراء ذلك العصر : أولهما الفرد دوموسه . وقد قابل هذا التحدي بمثله ونظم قصيدة عنيفة عنوانها (الرين الالماني) يقول فيها :

لقد سبق أن امتلكنا نهركم الالماني هذا !
ولئن نسيتم ذلك فلا شك أن فتياتكم قد احتفظن بذكرانا

إذ هن اللواتي كن يسقيننا خمركم الابيض اللذيذ .

ولا بد لنا نحن الابناء ، أن نمرّ حيث مر آباؤنا !

والشاعر الثاني هو (لامرتين) . ولم يشأ ان يزيد كغيره في حدة الخلاف الطارئ ، فنظم قصيدته الفخمة التي سماها (مارسيليز السلام) . وفيها يقول :

« تدفق حراً رائعاً بين ضفتيك الفسيحتين ايها الرين !

« واحمل في طياتك هذه الحقود والمطامع التي تغمر صدور هذه الامم التي ترتوي من مياهك .

« يا ابناء هذه الامم ! هل يقف الحب حيث تقف اقدامكم ؟!

« إن الاثرة والحقد وحدهما لهما وطن . أما الاخوّة فلا تعترف بالاوطان »

وكلا هاتين القصيدتين من صميم الادب الفرنسي القومي . وقد تكون قصيدة (موسه) نالت من الشهرة حين نظمها فوق ما نالته قصيدة زميله (لامرتين) ولكن قصيدة لامرتين ثبتت فيما بعد خالدة في سجل الادب الانساني . وهو شرف لم تظفر بمثله القصيدة الاخرى .

ولم يكن ذلك لضعف شعور لامرتين القومي . فكل من قرأ شعر لامرتين عرف مدى حبه لوطنه وعبادته كل بقعة من بقاعها . ولكن وطنيته كانت من النوع النبيل السامي . ولامرتين هو القائل في معرض آخر :

« هنالك وطنيتان : إحداهما مؤلفة من جميع الاحقاد والضغائن الموروثة التي تحملها الشعوب بعضها لبعض . إني اكره وأحتقر الامم المجاورة أو المنافسة لأمتي فأنا اذاً وطني .

هذه هي الحكمة البربرية التي اتخذها بعض الرجال اليوم شعاراً لهم . إن مثل هذه الوطنية لا تكلف صاحبها غالياً ، بل يكفيه من اجلها أن يكون جاهلاً ،

وأن يشتم ويحقد . اما الوطنية الثانيـــة فهي على العكس مؤلفة من كل الحقائق والمواهب والحقوق التي هي مشاع بين الناس . إن هـذه الوطنية التي تبدأ بتقديس وطنها الخاص تسمح لعطفها أن يتجاوز الحدود والاجناس واللغات . انها وطنيـة الاديان والفلاسفة ووطنية قلوب عظماء الرجال . »

موقف زهير في حرب داحس والغبراء

وقديماً وقف شاعرنا العربي زهير موقفاً يشبه موقف لامرتين هـذا ، وذلك حين راعه أن يرى الدماء تسيل هدراً من جراحات القبيلتين الاختين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء ، وحين راعه أن يرى الشعراء من الطرفين يلغون في هذه الدماء ، فنظم معلقته المعروفة في الدعوة الى الصلح وحقن الدماء وتمجيـــد المصلحين والتكريه بالحرب وبيان ويلاتها مما أدخله في سجل شعراء الانسانية الخالدين .

* * *

الادب القومي وشروطه

نستنتج مما تقدم ايها السيدات والسادة أن الادب اذا تجاوب ونفسية الجماعة التي ينتمي اليها الاديب اصطلحنا على تسميته أدباً قومياً . وليس من الضروري ان يكون الادب في الدفاع الصارخ عن القومية حتى نسميه قومياً ، بل إن قومية الادب هي قبل كل شيء في تمثيله المجتمع الذي يحيط به . والشروط التي يجب توفرها في الادب ليكون قومياً هي نزاهة الاحساس ، وصدق التعبير عنـه ، والقدرة على النقل والايحاء ، والبقاء في محور الامة فكرياً وعاطفياً ولغوياً . وهنا يسقط دفعة واحدة من حساب الادب القومي ، بل من حساب الادب نفسه ، كل هذا الرصف اللفظي المزركش البـارد المقلد الذي لا يمتّ الى القلب بصلة ، والذي يخرج من شفتي صاحبه ليتبدد في الهواء . وهنا يسقط ايضاً من حساب الادب القومي كثير من أدب المديح والهجاء والتهاني الرسمية حين لا يكون له حافز الا الانانية والنفع ،

وحين لا يكون فيه كثير من الاخلاص أو التمثيل الصحيح للمجتمع . أقول : كثير من هذا الادب ، ولا اقول : كله ، لأن كثيراً من مدائح المتنبي لسيف الدولة ومدائح أبي تمام للمعتصم وأهاجي ابن الرومي لأبناء عصره كانت صدى عميقاً لعواطف المجتمعات العربية والاسلامية آنئذ ، وما يزال اكثرها يتجاوب وعواطفنا حتى اليوم .

الادب الانساني وشروطه

واذا استطاع هذا الادب القومي أن يسمو ويتسع افقاً فيتعدى الحدود الضيقة ويستجيب للعواطف الانسانية الأصيلة وينقل احاسيسه من المجتمع الذي يظهر فيه الى المجتمعات الاخرى اصطلحنا على تسميته أدباً انسانياً . والشروط التي يجب أن تتوفر في الادب الانساني هي مبدئياً الشروط نفسها التي يجب ان تتوفر في الادب القومي الحق ، والفارق الحقيقي بينهما هو فارق نسبي بمعنى أن الادب الانساني هو أقدر على الايحاء والايصال من الادب القومي . وهو دائم الاتصال بالقيم الانسانية الخالدة .

ويخطئ من يظن أنه ليس في وسع الادب السمو الى أفق الانسانية الا بالابتعاد عن اللون المحلي أو القومي . وربما كان العكس هو الصواب ، أي كثيراً ما كان الادب أصدق انسانية اذا كان أصدق قومية . ذلك أنّ الابتعاد المصطنع عن القضايا القومية والالوان المحلية يُخرج الادب عن نزاهته وصدقه . والنزاهة والصدق شرطان اساسيان من شروط الادب القومي ، بل من شروط الادب بلا تحديد . واذا عدنا الى قصصنا وأشعارنا الحديثة التي كتبت لها أن تترجم الى اللغات الاخرى وان تتجاوز حدودنا القومية وتندمج ـ ولو الى حد ـ في التراث الادبي الانساني ، ـ وذلك ككتاب الايام لطه حسين ، وكبعض تمثيليات شوقي وآثار تيمور وتوفيق الحكيم ونعيمة ـ أقول ، لو عدنا الى هذه الآثار لرأيناها بوجه عام من ألصق آثارنا الادبية الحديثة ببيئتنا القومية وبألواننا المحلية .

الادلة على انسانية الادب

ولو طلب الينا أن نبيّن أبرز دلائل الانسانية في الادب لذكرنا الدليلين التاليين :

١ — الديمومة : أما الدليل الاول فهو ديمومة الادب الانساني ـ إذ يبعد ان تختفي من سماء الشهرة بعد اليوم هذه النجوم الساطعة التي ما زالت تلمع فيها منذ قرون عديدة كالمعري ، وشكسبير ، ودانتي ، وابن الفارض ، وموليير ، والمتنبي وغيرهم كثير .

٢ — الاحتفاظ بقيمته مترجماً الى اللغات الاخرى : وأما الدليل الثاني على انسانية الادب ، فهو قدرة هذا النوع من الادب على إثارة النشوة الفنية في نفوس الناس جميعاً ، مترجماً الى لغاتهم . ولا تبالنّ بعد ذلك ايها السيدات والسادة بما قاله سيد كتابنا الجاحظ ، ولا بما ردّده الناس بعده من استحالة ترجمة الشعر .

فالادب ليس كله شعراً . كما أن الموسيقى ليست هي كل شيء في الشعر . فهنالك حرارة القيم الانسانية الخالدة التي هي اكثر اصالة في الشعر من العنصر الموسيقي ، تلك القيم التي قلنا انها تجعل من الادب بوجه خاص والفن بوجه عام اللغة الاممية الطبيعية الوحيدة . وليس هنالك على وجه البسيطة أمة لا ترتعش نشوة عندما تقرأ هوميروس أو عمر الخيام او الف ليلة وليلة في لغتها شعراً أو نثراً .

الانسانية رابطة فكرية :

وليس بعجيب أبداً أن يكون للادب مثل هذا الطابع الانساني وان يصبح من أمتن الروابط الانسانية ، إذ ان الانسانية في الحقيقة رابطة فكرية صرف لا رابطة عرق او جنس او لحم ودم . والقيم الانسانية الاصيلة المشتركة التي تحدثنا عنها هي التي تربط الانسان بأخيه الانسان ، لا العصبيات المختلفة . ولعل الادباء

ورجال الفنون كانوا أسبق الناس الى إدراك وحدة مواهبهم والى تمثّل هـــذا التعاطف الانساني الشامل . وما احلى ما قاله ابن قتيبة في هذا المعنى :

« ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصّ به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوماً بين عباده . »

وفي اليابان جمعية اسمها جمعية (الخيزران الابيض) سميت بهذا الاسم لانها تجتمع تحت ظلال اشجار الخيزران في جبل (اكاجي) . ومبدأ هـذه الجمعية ان الفنون الجميلة مظهر العبقرية الانسانية المتحررة من العصبيّات والتقاليد الضيقة ، وان الفن هو لغة الحقائق الانسانية الخالدة . ومن اهم اهداف هـذه الجمعية نشر الآثار الفنية العالمية في اليابان . وقد اتخذ افراد هذه الجماعة من ذكريات ميلاد عظماء رجال الفكر والفن في العالم اعياداً سنوية لهم .

وهنالك مؤسسة اخرى لها اليوم فروعها في كثير من انحاء العالم ، وقـد جعلت شعارها : (عالم واحد لذوي المواهب) . ولا ننسى اخيراً منظمة اليونسكو التي تزعم هي ايضاً بدورها ان غايتها خدمـة السلام والتمهيد له عن طريق التعاون الفكري بين الامم .

كل هـــذا يقوم دليلاً ايها السيدات والسادة على ان الانسانية هي رابطة فكرية قبل كل شيء . فلا عجب اذا اتخذت الفنون ـ ومنها الادب ـ هـذا الطابع الانساني الذي تحدثنا عنه .

سيداتي وسادتي :

تطبيق ما تقدم على الادب العربي :

يخيل اليّ ان إطار الموضوع قد اتضح لنا بعد هذا الذي قدمناه ، ولم يبق علينـا الا ان نطبق هذه المصطلحات والمفاهيم على ادبنا ، لا لنرى أهو ادب قومي

ام انساني ، فمثل هـذا السؤال لم يعد متفقا مع ما تقدم ، ولكن لنرى : هـل في ادبنا القومي ما يمكن اعتباره ادبا انسانيا ؟

الآثار الثانوية في الادب العربي

إن الادب العربي ـ ككل أدب خصب عريـق مثله ـ بحر زاخر يعجز الباحث الفرد ان يضم ما بين شواطئه في نظرة واحـدة . ومن المعقول ان تختلف قيمة الآثار الفنية التي يجمعها هذا البحر الخضم والتي شهدت العصور الكثيرة المتتابعة ظهورها .

ففي ادبنا كثير من الآثار الثانوية التي هي ضعيفة الصبغة القومية من جهة ، وفقيرة بالحرارة الانسانية من جهة ثانية. هذه الآثار قدتفسح لها مجالاً في دراساتنا الادبية والتاريخية ، وقد نعني بنشرها وإحيائها وبذل الاموال الطائلة في سبيلها ، لا لأنها من النوع السامي الخالد ، ولا لكونها تتجاوب وعواطفنا القومية بشدة ، ولكن لأن الدراسات التاريخية لا تستهين بشيء . وكل أثر ادبي ، مهما ضؤل ، مفيد في توضيح معالم تاريخ الادب . ولا اعتقد اننا في حاجة الى ان نشير الى هذه الآثار ، فتاريخ ادبنا مملؤ بأسماء المغمورين . وهؤلاء يمكن ان يظهروا في كل عهد ، ولكنهم يكثرون خاصة في عصور الانحطاط وفي العهـد الذي يفتر فيها النشاط القومي وتنحل فيها مقومات القومية . واذا رأينا بعض المؤسسات العلميـة اليوم تعنى بنشر دواوينهم وإخراج آثارهم الى النور بعـد ان اختبأت زماناً في زوايا النسيان فما نحسب ان هذه المؤسسات تفعل ذلك ثقة منها بالقيمة المطلقة لهذه الآثار ، وانما تفعل ذلك لأن إخراج هذه الآثار ضرورة لا بد منهـا لسد بعض الثغر في تاريخنا الادبي .

ادبنا القومي

وفي ادبنا آثار أعلى طبقة وأنبض بالحيـاة ، كانت تتجاوب والعصر الذي

ظهرت فيه أيّ تجاوب ، ولا تزال حتى اليوم ـ رغم توالي العصور ـ نقرؤها فنتنسم فيها الحياة ، كمعظم شعر الجاهلية وصدر الاسلام في الهجاء والفخر والوصف والنسيب . وخير ما يمثل هذا الشعر في نظري (ديوان الحماسة) . إنا لنقرأ اشعاره فنلمح فيها صوراً مفعمة بالحيـــاة تمثل العربي الصريح في سلمه وحربه ، وخصوماته وعصبياته ودفاعه عن قوميته القبلية ، وتعكس مثله العليـا في الحياة ، وتمثل بيئته وصحراءه أعنف تمثيل ، حتى لنحسّ من خلالها وهج الظهيرة ولذع الرمال وصفاء الليل وهمس النجوم ورجع الحداء . انتـــا لنجهد أنفسنا عبثاً حين نحاول أن نجد عصراً من عصورنا الادبية أثبت صبغة قومية من عصور الجاهليـة وصدر الاسلام .

ادبنا الانساني

واخيراً فان في ادبنا آثاراً هي في قمة السمو فهي تتجاوب بشدة مع الجماعة والعصر اللذين نشأت فيهما . ولكن تجاوبها هـــذا لم يكن مع النزعات العارضة والاحساسات العابرة ، بـــل مع ما هو عميق عميق ، وشامل شامل في النفس الانسانية ، فهي لذلك ما تزال الى اليوم تهز اعماقنا . وستهز اعماق الاجيال بعدنا الى الأبد . وهي لذلك ايضاً ـ على صبغتها القومية الثابتة ـ قـد تجاوزت الحدود لتنصهر في التراث الفني الانساني الباقي على الدهر .

أمثلة لتمييز النبرة الانسانية من النبرة القومية في ادبنا :

أراني هنا في حاجة ـ ايها السيدات والسادة ـ ، قبل ان اعرض عليكم مواطن الانسانية في ادبنا ، الى ان اضرب بعض الأمثلة لتمييز النبرة القومية الصرف من النبرة القومية الانسانية .

مثال من معلقة طرفة :

لنأخذ معلقة طرفة ، فهي من أجمل آثار شعرنا القومي ، وهي تمثل حياة

البادية والفتوة العربية المتمردة أروع تمثيل . وقد قال المعري في رسالة الغفران مخاطباً طرفة بلسان ابن القارح : « ولو لم يكن لك أثر في العاجلة الا قصيدتك التي على الدال ، لكنت قد أبقيت أثراً حسناً . »

يبدأ طرفة داليته هذه بذكر محبوبته خولة وأطلالها . ثم ينتقل الى وصف ناقته التي يمضي بها الهم عنـد احتضاره فيصفها وصفاً لم يجاره قبله أو بعده شاعر آخر في مثله . فهو يصف سيرها وسرعتها ، واتباعها الوظيف الوظيف فوق الطريق المعبد ، ثم يصفها وهي ترعى بين رفيقاتهـا ، ويتفنن في وصف ذيلها الذيال المنبسط كجناحي الذر ، ثم يصف كل أجزاء جسمها : أخلافها وخفذيها وأضلاعها ومرفقها وقوائمها وكتفيها ، وآثار الأنساع في ظهرها وجنبيها ، وعنقها ورأسها وخديهـا وعينيها واذنيها وانفها ومشفرها وخفوق قلبها . وهو في كل هـذه الاوصاف يعمد الى التماثيل الحسية البدوية فيضعها موضعها بكثير من الحذق الفني . وليس من شك في أن هذا الوصف المسهب الدقيق إنما يعكس حب طرفة لناقته ، فهو يتفرس في ملامحها ودقائق جسمها كما يتفرس المحب في محبوبته ، وكأنه يعشقها كلها . إن هذا الوصف سيبقى ذخراً حياً من أدب صحرائنا وقوميتنا . ولكنه لن يرتقي الى الافق الانساني بسهولة ، لاغراقه في الحسية وبعده عن الايحاء الوجداني بعواطف صاحبه كانسان .

ولكن طرفة سرعان ما يتلفت من هذا الجو القومي الحسي المغلق ، الى جو قومي ـ انساني منبسط الآفاق . وذلك حين يمجد نمط الحياة المستهتر الذي اصطفاه لنفسه ، وحين يذكر تمرده على أهله وثورته على الاعتبارات التقليدية :

وما زال تشـرابي الخمور ولذتي ... وبيعي وإنفاقي طريفي ومتـلدي
الى ان تحامتني العشيرة كلهـا ... وأفردت إفراد البعير المعبّـــد
الا أيهذا الزاجري أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات ، هل أنت مخلدي؟
فان كنت لا تستطيع دفع منيّتي ... فدعني ابادرها بما ملكت يدي
أرى قبر نحام بخيـــل بماله ... كقبر غويّ في البطـالة مفسد

ترى حثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضّد
اذا متّ فانعيني بما أنا أهله وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعليني كامرئ ليس همه كهمي، ولا يغني غنائي ومشهدي ؟

إن هذا الشعر من النمط العالي العالي . إنه من صميم أدبنا القومي ، لأنه ، كالخمر المعتقة ، ما يزال ينشينا ـ نحن أبناء قومه ـ وقد مضى عليه اكثر من اربعة عشر قرناً . وهو في الوقت ذاته من صميم التراث الانساني الخالد ، لأننا لا نتصور انساناً أوتي نصيباً من الحس الفني لا تنشيه هذه النغمة الخيّامية الصحراوية .

مثال من زهير

وهاكم مثلاً آخر من معلقة زهير . فزهير يبدأ ميميته بوصف أطلال أم أوفى ، ووصف الظعائن وطريقهن وصفاً فاتناً هادئاً بالغاً غاية الاتقان والروعة . ولكن يخيل إلي أن شعر زهير هذا يبقى في النطاق القومي ولا يسمو في قوميته الى النبرة الانسانية الا في تلك المقاطع التي يصور فيها الحرب الاخوية بين عبس وذبيان أشنع تصوير ، ويدعو فيها الى حقن الدماء وتمجيد السلم وبطليه هرم والحارث ، والا في تلك الابيات الحكيمة الجليلة التي يكشف فيها خلاصة تجاربه العاقلة خلال حياة ثمانين سنة . :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما ان ندرك السلم واسعاً بمال ، ومعروف من القول ، نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عليا معد هديتما ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم
ألا ابلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان ، هل أقسمتم كل مقسم ؟
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم
وما الحرب الا ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر اذا ضرّيتموها فتضرم الخ..

ان هذا الشعر هو ايضاً من النمط الانساني العالي . وهو وإن مثّل البيئة القومية التي ظهر فيها ـ يمثل في الوقت ذاته المشاعر الانسانية العميقة في كل بيئة .

مثال هجاء من المتنبي :

والأمثلة بعد كثيرة ايها السيدات والسادة :

فهجاء المتنبي لضبّة من النوع الرخيص المبتـــذل الذي يمثل المجتمع من أضعف نواحيه . وأما أهاجيه في كافور فمعظمها من الادب القومي العنيف الممتاز. وربما سما المتنبي في بعض مقاطع هـذه الأهاجي الطافحة بالألم والثورة الى النبرة الانسانية المرنحة :

يا ساقيَّ ، أخمر في كؤوسكما ... أم في كؤوسكما همّ وتسهيد ؟
أصخرة أنا ؟ مالي لا تحركني ... هذي المدام ولا هـذي الأغاريد
اذا اردت كميت اللون صافيـــةً ... وجدتهـــا وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيـا ؟ وأعجبه ... أني بما أنا شاك منـه محسود
وبلهـا خطـــةً ، وبل قابلهـا ... لئلهـــا خلق المهريَّة القود
وعندهـــا لذّ طعم الموت شاربه ... إن المنيَّة عند الذل تنديد !

مثال من شعر ابن الرومي :

وكذلك أهاجي ابن الرومي المليء بالسباب الفاحش والطعن بالأعراض ظلماً وعدواناً أو انتقامـاً ، فهي من الشعر القومي الرخيص ، بينما شعره في رثاء البصرة وفي وصف (قالي الزلابية) و (الخباز) و (دجلة) و (مهارج النيروز) فهو من النوع القومي الصحيح . وأما قصائده في رثاء صاحبتـه (بستان) ورثاء ابنـــه (محمد) ووصف غروب الشمس ، والخال الأعمى وو ... فهي كلها أدب انساني رائع :

رأيت حمالاً مبين العمي يعثر في الاكم وفي الوهد
محتملاً ثقلاً على رأسه تعجز عنه قوة الجلد
بين جمالات وأشباهها من بشر ناموا عن المجد
وكلهم يصدمه عامداً أو تائه اللبّ بلا عمد
والبائس المسكين مستسلم أذلّ للمكروه من عبد
وما اشتهي الجهد ولكنه فر من اللؤم الى الجهد
فر الى الحمل على ثقله من كلمات المكثر الوغد

وهكذا يمكننا أن نعدّ الأمثلة الى ما لا نهاية .

بعض مواطن السمو الانساني في الادب العربي :

أما وقد اتضحت لنا ايها السيدات والسادة معالم الأدب القومي والأدب الانساني وما بينهما من وشائج ، ورأينا كيف يتسامى الشاعر إنسانياً فتختلف نبراته من قصيدة الى اخرى بل من مقطع الى آخر في القصيدة الواحدة ، فليسمحوا لي ان نستعرض معاً وبايجاز بعض مظانّ السمو الانساني في ادبنا القومي العريق .

عصر الجاهلية وصدر الاسلام :

أما عصر الجاهلية وصدر الاسلام ـ وهو في عرف كثير من مؤرخي الأدب عصر واحد يتمم بعضه بعضاً ـ فأدبنا فيه كما بينا ذو صبغة قومية عنيفة لا تخلو من الضيق في كثير من الاحيان ، ومع هذا فكثير من شعراء هذا العصر استطاعوا السمو والانطلاق في المدى الانساني البعيد ووفقوا الى استعمال هذه النبرة الوجدانية التي تهزّ أعماق النفوس هزاً . ولقد سبق لنا أن مثّلنا لذلك بأبيات من شعر طرفة وشعر زهير . ويمكننا بسهولة أن نظفر بمثل هذه النبرة في كثير من شعر امرئ القيس وعنترة والمهلهل والخنساء، وبخاصة شعر الصعاليك كعروة بن الورد وتأبط شرا والشنفرى . ولا يخامرني الشك في أن لامية العرب

التي تنسب الى الشنفرى والتي تمثل حق التمثيل تمرد الفرد وإباءه وعزمه لهي من القصائد الانسانية الرائعة . وكذلك عينيـة أبي ذؤيب التي تصور استسلام النفس الانسانية للقدر الجبار . ومثلها يائية مالك بن الريب التي رثى بها نفسه . فهي صورة انسانية مثيرة للفارس المجاهد النبيل يستقبل الموت وحده، فتثور في نفسه ذكريات أحبائه ، ويتلفت حوله فلا يرى من يبكي عليه سوى سيفه ورمحه :

تذكرت من يبكي علي فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا
واشقر خنذيذ يجر عنانه الى الماء ، لم يترك له الدهر ساقيا !

ولا يحق لنـا أن نطوي عصر صدر الاسـلام دون أن نشير الى موطنين ثمينين من مواطن الشعر الانساني في أدبنا :

أولهما : الشعر العذري ، وجله كنز من النبضات والخفقـات الانسانيـة اثارها في هيكل الصحراء الحب الخالص المبرّح ، فهتفت بهـا الرمال والرياح بل والجبال ايضاً :

فأجهشت للتوباد حـين رأيتـه وكبّر للرحمن حين رآني !

وهذه النغمات العذرية هي التي سيتردد صداهـا في صدور شعراء العصور التالية كالعباس بن الاحنف والشريف الرضي وغيرهما من انصار الشعر الخالص .

والموطن الثاني الذي أود أن اشير اليـه هو أدب الخوارج ، ذلك الادب السياسي الحربي المخلص العنيف الذي يمجد التضحية في سبيل الفكرة ، والجرأة في سبيل الحق ، ونكران الذات في سبيل الدفاع عن المبدأ . واذا كان للمؤرخين والفقهاء ان يأخـذوا على الخوارج جرائمهم وغلوّهم في سفك الدماء وتشددهم في تكفير كل من لم يدن برأيهم ، فليس لنا ـ في حرم الأدب ـ الا أن نعجب بما تركوه لنا من أدب قومي هو من صميم العروبة وقلب الصحراء ، ولكنه أدب انساني ايضاً يمثل لنا ثورة الانسان في سبيل الحق ، أو في سبيل ما يعتقد أنه الحق:

واني لمقتاد جوادي وقاذف به وبنفسي العام إحدى المقاذف(١)

(١) الابيات للطرماح بن حكيم

فيا رب إن حانت وفاتي فلا تكن ... على شرجع(١) يعلى بمخضر المطارف
ولكنّ قبري بطنُ نسر مقيله ... بجو السماء في نسور عواكف
وأمسي شهيداً ثاوياً في عصابة ... يصابون في فج من الارض خائف
فوارس من شيبان ألّف بينهم ... تقى الله ، نزالون عند التراجف
اذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى ... وصاروا الى ميعاد ما في الصحائف

العصور العباسية :

واذا انتقلنا الى أدب العصور العباسية وجدنا النبرة الانسانية والسمو الانساني يتجليان في كثير من صفحاته . فكأس أبي نواس وخمرته ونشوته ، وزهديات أبي العتاهية ، ووقفة البحتري أمام أطلال المدائن، ووسوسات ابن الرومي، وحكم المتنبي و كثير من سيفياته ، ورروميات ابي فراس ، كلها من الآثار الادبية التي توفرت فيها شروط السمو الانساني . ولكننا لا نجد في أدب هذه العصور ما يسامي في انسانيته أدب ابي العلاء ، وفي روحانية شعر ابن الفارض . فليس من شك في أنّ أدب هذين الشاعرين الخالدين هو أدب قومي رائع لأنه يمثل بصدق بعض النزعات التي عرفها عصراهما . وربما كان أدب ابي العلاء من هذه الناحية أغرق في القومية من أدب صوفينا ابن الفارض . ولكن كلا من هذين الشاعرين كان له قلب كبير ورحيم يسع الانسانية بكاملها . أما ابن الفارض فلانه كان يؤمن بوحدة الوجود روحانياً ، وأما ابو العلاء فلانه كان يؤمن بوحدة العالم اجتماعياً . ولئن اختلفت الطرق فالهدف واحد ، وهو ان تتسق دقات قلب الشاعر ودقات قلب هذا الكون بأجمعه .

ولم نستعرض فيما استعرضنا الا الآثار الشعرية . ولا يجب أن ننسينا ذلك كثيراً من آثارنا النثرية التي اندمجت ايضاً بالتراث الأدبي العالمي ، كرسالة الغفران وبخلاء الجاحظ ، وكليلة ودمنة ، والمقامات ، وقصصنا الشعبي وفي طليعته (الف ليلة وليلة) و (قصة عنتر) .

---

(١) الشرجع : النعش

ويلاحظ أننا اقتصرنا في هذا العرض السريع على الآثار الادبيـة بالمعنى الفني الضيق للادب ، ولم ندخل في هذا التعداد آثارنا الفكرية الخالدة في الفلسفة والاخلاق والتاريخ والاجتماع ، تلك الآثار التي نجد من نافلة القول أن يقـال عنها انها اصبحت جزءاً لا يتجزأ من التراث الفكري الانساني .

* * *

هذه إشارات خاطفة ايهـا السيدات والسادة الى مواطن السحر الانساني في أدبنا الضخم ، أوردتها على سبيـل التمثيل لا على سبيل الحصر والاستيعاب . وكم كنت أودّ لو اكثر من الشواهد اصطفيها من شعر هؤلاء الشعراء ونثر هؤلاء الكتاب . ولكنني لم اشأ ان اكون كحامل التمر الى هجر ، فكلكم يعرف تمام المعرفة هذه الآثار التي أشرت اليها .

وليس بمستغرب أن يرتفع أدبنا الى الافق الانساني في كثير من صفحاته ، وهو أدب امة أسهمت في الحضارة الانسانية أعظم إسهام في ماضيها ، وأدب امـة تتطلع الى مثل هذه المشاركة الخصبة المنتجة في مستقبلها .

يضاف الى هذا أن أدبنـا العربي ، خاصة في عصور ازدهاره وانطلاقه ، انساني في مصدره ، شاركت في خلقه ثقافات متمازجة لكل منها مكانها في خدمة الحضارة الانسانيـة ، وتضافرت على إبداعه أجناس مختلفة جمعتها الالفة الفنيـة والانسجام الفكري ومحبة خالصة للغتنا العربية .

* * *

مقومات الادب الانساني :

ولو تقربنا من جديد هـذه الآثار الانسانيـة في أدبنا لنتعرف الى كنه انسانيتها ، ولنكشف عن الصفات التي صبغتها بهذه الصبغة العالميـة مع احتفاظها بطابعها القومي .

لرأينا أنّ في وسعنا أن نرد مقومات الانسانية فيها الى ثلاثة امور :

الأمر الأول : هو شدة اتصال هذه الآثار بالقيم الانسانية الأصيلة الثابتة التي أشرنا اليها في مطلع حديثنا .

والأمر الثاني : هو ما في هذه الآثار من وثبات عبقرية جامحة . وأي وثبة أشد جموحاً من وثبة المعري السماوية في الغفران وتصويره جنانها وجحيمها ومناعمها وأهوالها تصويراً ساحراً مبهجاً مرعباً لم يسبق اليه ؟ وأي انطلاقة تلك التي انطلقها خيال البحتري أمام إيوان كسرى حتى أنطق صورة انطاكية ، وحتى عاد أمامه القصر الموحش حياً يعجّ بالوفود ويضجّ بالألحان ويموج بالراقصات ، وما زال يسمو به خياله حتى رفع كأسه ليشرب نخب كسرى ابرويز المصور على الجدار ، وغاب في حلمه تلك الغيبوبة الرائعة ، الى أن أفاق من سكرته الفنية اخيراً وهو يتساءل :

حلم مطبق على الشك عيني أم أمان غيّرن ظني وحدسي ؟!

وأما الأمر الثالث : فهو الحماسة ، ولا أعني بها شعر الفروسية والحرب كما هو مشهور بل أعني بها امتلاء نفس الاديب بفكرته وانتفاض قلبه بها . هي حماسة ابي نواس في خمرياته والمتنبي في سيفياته ، وابي فراس في رومياته والمعري في لزومياته ... هي حماسة العذريين في نسيبهم والخوارج في عنفهم واستشهادهم ... هي الحماسة التي لا بد منها لكل أثر فني خالد . وهذا معنى قولهم : ان ما يتفجّر من القلب يقع في القلب . وما أحلى قول أحد الفلاسفة في هذا المعنى :

« الحماسة قيمة لا تقدّر بثمن . نعم ، إنّ جزءاً من كل حماسة إنسانية لا بد ان يفتر على مر الزمن ، ولكنّ في كل حماسة انسانية ايضاً جزءاً من القوة الحية التي لا تموت ، لأن الدم الحارّ يبقى فتياً أبداً . »

* * *

ولست أدري ، هل يجوز لنا في ختام هـذا الحديث أن نحكم على ادبنـا المعاصر وهو في هذا البحران الذي تتجاذبه فيه النوازع الكثيرة . إنّ في ادبنـا الحديث تباشير كثيرة تجعلنا نتفاءل له بمستقبل قومي وانساني كريم . ولكن الناقد كثيراً ما يخطئ في الحكم على عصره . ولا بد للآثار الفنية من ان تترك لعمل الزمان اللاشعوري . ولو كان يحق لهـذا الضعيف العاجز ايهـا السيدات والسادة ان يوجه الكلام الى الادباء المعاصرين لقال لهم :

ان الشرط الذي لا بد منه كي يسمو الفن قوميـاً وانسانياً هو الاخلاص: إخلاص الفنان لنفسه وشخصيته ، إخلاصه لبيئته ومجتمعه ، إخلاصه في تعبيره ونقله وإبحائه . فالاخلاص والحماسة كنه الانسانية وباب الفن . إن إخلاص الانسان لنفسه كانسان ، ولبيئته كمجتمع انساني هو خير سبيل لمحبة الانسانية كلها ؛ كما ان إخلاص الانسان للانسانية هو خير سبيل لمحبته الوطن محبةً حقيقية . وما اجمل ما قاله جان جوريس في هذا المعنى :

« إن النزعة الانسانية الضعيفة ربما أبعدت الانسان عن وطنه . اما النزعة الانسانية القوية الشاملة فهي التي تربطه بوطنه ربطاً لا انفصام له .

المحاضرة التاسعة

اهداف الشباب ومثلهم العليا

للدكتور اديب نصور

= القيت بتاريخ ١٦ ايار ١٩٥٢ =

اغلب الظن ان اختيار هذا الموضوع لمحاضرة عامة لم يكن مصادفة واتفاقا.

أليس مجرد هذا الاختيار تعليقا رائعا مختصراً على احوال الشباب عندنا ، وحظوظ الاهداف والمثل في بلادنا ؟؟

اني ارى ان صاحب هذه الدار حين فكر في مشاكل المجتمع واختار هذا الموضوع كان جاداً في التفكير ، موفقا في الاختيار .

ولست واثقا من ان التوفيق قد صادفه في انتقاء المحاضر ايضـا . . الكلمة في ذلك للجمهور الكريم ـ والمحاضر هو دائما تحت رحمة الجمهور ـ ويا ويل المحاضر العاثر من جمهور السامعين :

ويل امه اذا ارتجل ثم أطال واحتفـــل

ـ كما كانت تقول العرب ـ

وكتب الادب العربي مليئة بذم الخطباء وذكر عيوبهم ، ولن تجد في الادب العربي ذكراً للجمهور ، لأن الجمهور هو المرجع دائما وهو الحكم ـ

وجمهور زماننا أشد مراسا وأصعب إرضاء من الجمهور القديم ـ ويزداد خطر الجمهور الحديث اذا كان ذكيا ألمعيا نقاداً ، الف ارتياد النوادي وشهود مجالس الادب ، واعتاد ان يأتيه كبار المحاضرين من مصر ولبنان والعواصم ، فهو يستمع ويقابل ويقارن ، وقد يعبث ويلهو ، ويمضي الي شأنه كأنه ما سمع وما رأى..

واني ، ايها السادة ، لا اطمع في ان انجو من نقدكم ، وانما اطلب الرفق في الانتقاد ـ ان المحاضر الماثل امامكم ، ايها السادة ، يحتاج الى كثير من العطف والرثاء .. لقد استدرج الى التحدث عن اهداف الشباب ومثلهم العليا ، ولم يبق له في الشباب نصيب .. وسيجري في طيات حديثه تيار خفي عميق من اللوعة والأسى لأنه مفارق ومودع وحزين . واعلم ان الشيوخ منكم والكهول سيشجيهم هذا النغم الحزين لانهم مثلي قد فارقوا الشباب . والشباب منكم سيذكرون ان شبابهم هذا ليس ربيعاً دائماً وسيشاركون اخوانهم المتقدمين في الشعور برهبة القدر ..

وربما رأى صاحب هذه الدار بحكمته العالية ألا يختار لهذا الموضوع شاباً خاضعاً لطغيان الشباب ، ولا كهلا بعُد عهده بآمال الشباب وأحلامه ورؤاه ، وانما اختار محاضراً يودع الشباب خارجاً منه ، ويستقبل الكهولة داخلاً فيها ، فهو لذلك خليق ان يكون له انس باهداف الشباب ومثله العليا ، وجدير بان يصطنع الاناة ويلتمس الحكمة شأن الشيوخ وشأن المكتهلين ...

والموضوع بعد ذلك ذو خطر ؛ لأنا نعيش في عالم تزعزعت فيه عقائد وظهرت عقائد أخر ، وتداعت فيه قيم وارتفعت على انقاضها قيم ، وانهارت مثل وقامت بعدها مثل ، وشاعت آراء ، وذاعت دعوات وانتشرت نظريات ـ هذه الحال في عالمنا السوري الصغير ، وفي عالمنا العربي الكبير ، وفي العالم الانساني الأكبر .

ونحن حين نبحث عن اهداف الشباب ومثلهم العليا فانما نبحث عن اهداف الانسان ومثل الانسانية في طور الشباب وهو طور التهيؤ والتدبر والاقدام . والخطة التي ترسم في اول العمر توضع للعمر كله . والحياة الجميلة هي فكرة في الشباب تتحقق مع اكتمال العمر ..

الاهداف والمثل الجديرة بالشباب ، اذن ، هي نفسها الاهداف والمثل الجديرة بالانسان . وان أنبل الابحاث ، كما يقول افلاطون ، هو الانسان ـ كيف يجب ان يكون ، وكيف ينبغي له ان يعيش. وهذا لعمري أهم بحث على الاطلاق ـ

اني عند التفكير في امر الشباب الناشئين في بلاد العرب عامة وفي سوريا على الخصوص اجد نفسي مردداً ما قال شوقي في انتحار الطلبة بمصر :

ناشئ في الورد من ايامه حسبه الله ابالورد عثر

وقد رأيتم ورأينا شباب البلاد ومناط الأمل ومعقد الرجاء يعثرون في الورد من ايامهم وتعثر معهم البلاد ـ والشباب فئات والعثار له حالات شتى والوان تدل بمجموعها وتناقضها على قلق النفس واضطراب الفكر وفوضى الأمل ـ

اني اقترح ان نلم إلماماً سريعاً بفئات الشباب التي تعثر او تتعثر في الورد من ايامها ـ

١ ـ ولنبدأ بأهون تلك الفئات ـ فئة الوجوديين ، وهؤلاء يكثرون في لبنان ومصر لكن لهم وجوداً ملحوظاً في سوريا واكثرهم قد مر بالحي اللاتيني بباريس في اثناء الحرب الاخيرة او بعد الحرب واتصل من قريب او من بعيد بتلك الحركة الفكرية ـ العاطفية التي نشأت حول (جان بول سارتر) والتي يقال ان سارتر نفسه يبرأ منها ، ويمكن ان يلخص موقفها بقول الشاعر :

لا تقف في وجه لذاتك مكتوف اليدين
انت لا تأتي الى دنياك هذي مرتين

وانا اعلم ان الوجودية فلسفة عميقة محترمة وهي عند Kierkegaat وHeidegger وسارتر قد تختلف كثيراً او قليلا عن مذهب الوجوديين المنتشرين في زوايا الحي القديم ، لكن الوجودية التي تسربت الينا والتي اندفع بعض الشباب في تيارها لا تؤمن بشيء ولا تتحمس لمبدأ او فكرة او مثل وأنما تدعو الشباب ان

يقبلوا على الحيـاة ويخوضوا في غمراتها ويأخذوا حظهم منهـا وألا يعيشوا لغاية سوى غاية العيش ..

وان قسما من شبابنا لم يسمعوا بالوجودية قط ولم يتصلوا بهـا ، لكنهم في واقع الأمر وجوديون بدون فلسفة وأدب ولغو كثير .

٢ — وقريب من الوجوديين الخياميون ، لكن للخيامية شأناً آخر . فقد نظر عمر الخيام في الكون وتأمل فما وجد غير قدر رهيب ولا عالماً وراء هـــذا العـالم فراح يعزي النفس بارضاء الحواس ويحملها على قبول الاشياء كما هي او كما قدر له ان يراها .

ولم يكن الخيام غالياً في طموحه ولا كان مفرطاً ، وانما رضي من الحيـاة بغصن ظليل في قفر ، وديوان شعر ، ورغيفين مع زجاجة خمر ، وحبيب ..

اما اصحاب عمر الخيام المحدثون فبعضهم نظر في الحياة كما فعل عمر ، وبعضهم تأمل في حال قومه فيئس من اصلاح الحال واقامه الهم بين العجز والتعب ، فلجأ الى اللذات هارباً من تبعات الفكر ومسئوليات المواطن وواجبات الانسان.

وهذا مذهب يغمره التشاؤم والظلام ، لا يرى صاحبه شيئاً وراء الحيـاة ولا يكاد يرى شيئاً في الحياة بعد الشباب ـ

وربيـع الحيـاة عهد الصبـاء
وحيـاتي كهذه الصهبـاء
حلوها المر فهي طبي ودائي
وبلخٍ أو نيسبور سـأقضي
فدعوني بعض اللبـانة أقضي
عيشتي نشوتي وعمري شبـابي
وغـــدا يدهم المشيب الشبابا

٣ ــ وهناك فئة من الشباب أبعد همماً ، وأكثر جداً ، واسمى ذكراً ، وأرق شعوراً ـ لها نواياها الحسنة ومثلها ، لكن مثاليتها لا تصل الى درجة الايمان الحار العميق ، وحسن النية لا يصحبه صحة العزم وصدق الارادة .

نفوس كريمة على ضعف ، فهي تتخبط وتهيم . انهم أشباه (هاملت) في مأساة شكسبير :

آ = منهم الضائع بين الشرق والغرب ـ نشأ في الشرق القديم واتصل بالغرب القديم في اوروبا أو الغرب الجديد في اميركا ، طالباً للعلم فتأثر بالشرق والغرب جميعاً واصبح موزعاً بين عالمين ، وعرف شقاء الانقسام الداخلي في النفس بين طريقتين في الحياة .

وهذا الانقسام الداخلي يحدث توتراً في العقل والعصب وينتج كآبة عميقة ، كثيراً ما تختفي معهما المثل ، وتصاب الارادة بالشلل .

لنا رفاق دراسة ... يذهب احدهم الى لندن او باريس ويبقى في الغرب بضع سنين ثم يعود ، فلا يجد الأمن والراحة وطيب العيش الذي الفه في الغرب ، وتحدثه نفسه بالرجوع فلا يستطيع فيعيش كئيباً لفراق عالم عرفه وعلق به وافتقده الى الأبد ـ ويندب حظه ويلوم السماء لانها جعلت مولده في جحيم هذي البلاد ..

كتبت الى احد هؤلاء اقول : « يا اخي ، باريس ولندن وواشنطون وكل عواصم الدنيا لا معنى لها بدون دمشق وحلب وحماه ـ هنا حقيقتنا ومجدنا وشقاؤنا ـ هنا قدرنا . »

ولكن ما اضعف هاملت أمام القدر ـ

ب = ومن اصحاب هاملت ناشئ يرى البون شاسعاً بين الواقع والمثل بين ما هو كائن وما يجب ان يكون ـ ولا يجوز ان نسرف في اللوم على الناشئين ، وانما ينبغي ان نسائل انفسنا ، ماذا هيأنا نحن لهم ؟

ماذا يرى الناشيء في البلاد ؟؟

يرى امة منقسمة على ذاتها تبحث عن شيء ولا تكاد تراه ، ويرى هيكلاً اجتماعياً يتداعى ، ويرى مشاكل العالم وتزاحم الامم ومطامع الدول ، ويرى .. ويرى .. ، فيصرخ مع هاملت صرخة اليأس والقنوط :

« ان الزمن لفي اعتلال واختلال ومن نكد طالعي ان اكون انا المنوط به علاجه والعود به الى النظام . »

لكن صاحبنا الضائع بين الشرق والغرب ، أو التائه بين الواقع والمثل لا يسقط بعظمة وجلال كما سقط هاملت قتيلاً في آخر المأساة ، ولا يهوى بروعة وجمال كما يهوى الشهاب ، وانما ينطفيء نوره شيئاً فشيئاً ، ويذوب كما يذوب السراج ـ

اعرف شاباً كان من ألمع الشباب في الجامعة . ذهب الى اوروبا واميركا في خدمة الدولة وعاد بالأمس يحمل نظارتين غليظتين على عينيه ، وعلى كتفيه اثقال .. لقد ازداد علماً وفهماً ونضجاً ، لكنه فقد شيئاً أثمن وأغلى من العلم والفهم والنضج ـ فقد ذلك اللهب القدسي ، فقد ايمانه بنفسه وبقومه وانعدمت عنده الرغبة في التفوق والامتياز ـ اكاد اقول انتهى ، وهذي كلة رثاء ...

كم كان (امرسن Emersom) موفقاً حين خاطب الناشيء الاميركي على ايامه قائلا :

« عندما تقول ـ سأفعل كما فعل الآخرون ، اني متخلٍ عن احلامي الاولى ورؤاي ، واكل من خيرات الارض ، ومودع الآمال والاحلام الى موسم آخر ـ عندها يموت الرجل فيك ، عندها تذبل براعم الفن والشعر والابداع وتفنى كما فنيت من قبل في الف الف انسان » .

٤ ـ ولنترك اصحاب هاملت يهيمون في الارض ولنتعرف الى فئة اخرى من الشباب لا ينقصها طموح وانما يأتي خطرها من شدة طموحها واندفاعه .

لا تظنوا ، ايها السادة ، اني عدو للطموح ، متهم للطامحين . اني اري، مع (كلادستون Gladstone) ان الظمأ الى المجد قريب جـــداً من حب الامتياز الحقيـــقي . ولا شيء اعظم أو أروع في حياة الامم والافراد ، على السواء ، من طموح نبيل مشروع يكون حافزاً للعمل الشريف النبيل .

ولكن ما اشد خطر الطموح حين يخطيء الشاب في اختيـار الهدف ، فما اقبح ، مثلاً ، المجد الذي طمح اليه المتنبي وصوره في شعر فخم جميل :

ولا تحسبن المجـــد زقا وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكرُ
وتضريب اعناق الرجال وان تُرى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما تداول سمـــع المرء انمله العشر

فهذا طموح جاهلي بربري عنيف لا يتصل بحق او خير او جمال ، وانما يهم صاحبه ان يحدث في الدنيا ضجة وصخباً ، وان يتحدث به المتحدثون الى آخر الدهر .

ان قصة (فاوست) تتكرر دائماً في التاريخ ، وتذكرون ان فاوست وقع عقداً مع الشيطان وباع نفسه وجسده وخلوده في سبيل الحصول على المعرفة والقوة والسلطان الى أجل مسمى .

وفي كل يوم يبيع نفسه للشيطان بائع في سبيل شهرة أو مال أو جاه عريض.

ان فاوست يطمح الى ما لا يجوز ويتحدى قوانين السماء فتغضب عليـــه السماء ويشقى .

وقد يكون الهدف بحد ذاته مشروعاً سليما ، لكن الطامح اليه غير ميسَّر له وليس عنده الامكانيات الروحية أو المادية لتحقيقه ، فهو حين يحاول ان يحتل مكاناً لم تهيئه له الطبيعة يختل النظام الطبيعي وتضج بأهلها الارض والسماء .

وقد يطمح الناشئ الى امر جليل ويجد في نفسه القدرة على اقتحام الطريق اليه لكن الدولة او المجتمع يقيم في طريقه العقبات . وويل يومئذ للمجتمع من الطامحين . ان اصحاب النفوس الكبيرة يتطلعون بطبيعة الحال الى نباهة الذكر ورفعة الشأن، واذا لم يصلوا الى الصفوف الاولى بالطرق المشروعة امتلأت نفوسهم الخائبة ضغناً وحقداً وعنفاً فسلكوا الطرق الملتوية الى الوصول وزلزلوا اركان الاجتماع .

٥ — لا يكون هذا العرض كاملا اذا لم نذكر العقائديين من الشباب . هؤلاء وجدوا لهم اهدافا ومثلا وغايات جروا في اثرها فهم أقرب الناس الى المثالية، لكنها مثالية قد غلط بها . واكثر هؤلاء الشباب يذهبون ضحايا لأول دعوة تصادفهم في الطريق .

وقد اقبل الشباب في السنوات الاخيرة على المنظمات العقائدية إقبالاً يلفت النظر ، حتى ان رئيس الجامعة السورية وقف عند هـذه الظاهرة في حفلة توزيع الشهادات في حزيران ١٩٥١ ، يقول :

« .. لقد غالى اهل هذا العصر في الايمان بالعقائد والنظم والمناهج ، وغدا الناس افراداً وجماعات ، يعلقون آمالهم في إنهاض امهم وإصلاح البشرية ، على هذه العقيدة السياسية او تلك ، وهذا النظام الاقتصادي او ذاك . في حين انه يجب ان تنشد قبل العقائد والنظم والمناهج الرجال والنساء الذين سينفذونها ويوجهونهـا لخير المجتمع ورقيه . فالاهمية هي دائماً للعامل البشري الفعال ، للشخصية المبدعة ، لا للعقيدة المجردة والمناهج المنظمة . » انتهى كلام الدكتور قسطنطين زريق .

والشاب سمح الطبع ، خصب الخيال ، مستعد بالطبع للجري وراء الاهداف والمثل . وهو طموح يريد ان يصنع شيئاً وان يرقى محلا في مضمار الجهد العام ،وفي تلك « اللحظة البسيكولوجية » الملائمة تسرع اليه المنظمة العقائدية بفلسفة كاملة وبرامج معدة ونشرات ووعود وتقول له : هذا هو الدواء وتلك هي السبيل »

وقد يتردد الشاب اول الأمر ثم لا يلبث ان يقع صريعاً لتلك المدفعيـــة الفكرية الهائلة ويخرج من حالة التردد والقلق . سمعت اكثر من شاب يقول بعـد انتمائه لهذه المنظمة او تلك : « اني وجدت الآن راحة البال فانا لا اطيل التفكير ولا اتألم وانما اطيع ما يصدر اليّ من امر .»

وكثيرون هم الذين يفرون من حرية الفكر الى أمن الطاعة والنظام .

ولست بمستطيع ان اعدد الدعوات المختلفة التي اجتاحت دنيا الشباب في السنوات الاخيرة واخذت عليهم كل سبيل . بعض هذه الدعوات يأتي من الغرب وبعضها يخرج من الشرق ، وبعضها مزيج عجيب من هذا وذاك . وهي كلها دعوات جريئة ملحة مغرية لا اتناولها بالتفصيل وانما اسوق ملاحظات سريعة حولها :

١ ــ وأول ما نلاحظ ان هذه الدعوات تهتم بالعلم والتكنيك والعمل الخارجي المنظم اكثر مما تهتم بالفضيلة وتكوين النفس ـ انها بارعة في صنع الآلة ، مقصرة في غير ذلك .

٢ ــ ونلاحظ ، ثانياً ، ان هـــذه الدعوات تؤكد على الحقوق دون الواجبات ، وهذي آفة الزمن الاخير ـ من الثورة الافرنسية في القرن الثامن عشر الى لجنة حقوق الانسان في هيئة الامم ونحن لا نسمع غير حديث الحقوق والمصالح ، وقلما يرتفع صوت نبيل يذكر بالواجبات لأن حديث الواجبات ثقيل على السمع ، يحمل صاحبه عبئاً ويكلفه جهداً وعسراً .

ومن عادة رجال الفوغاء ان يخلقوا بعصى سحرية جنات الفردوس امام العامة والدهماء . اما المصلحون الكبار والانبياء والمرسلون الذين غيروا وجه التاريخ فلم يتحدثوا عن الحقوق والمصلحة والفائدة والامتيازات ، وانما تحدثوا عن الواجب والحب والتضحية والفداء ـ « والفرق بين رجال الحق ورجال الواجب » ، كما يقول مازيني ، « هو ان رجال الحقوق متى حصلوا على حقوقهم الفردية فانهـم يتوقفون عن العمل لأن الدافع الاساسي ينعدم ، اما جهود رجال الواجب فلا تنتهي الا بانتهاء الحياة . »

٣ ــ ونلاحظ ، ثالثاً ، ان الدعوات الحديثة ، من عالمية ومحلية، تستهدف المادة قبل المعنى ، فهي تطالب بتحسين العيش ورفع الاجور ، وتاح على اهمية الخبز والمتاع ، وتتحدث باحصاء وأرقام ــ واحسب ان هذي الامور لا بد منهـا ، لكني استنكر ان تصبح الغاية الاولى في الحياة مادة واقتصاداً ، واعتقد انه « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » ــ

عندما يتخلى الانسـان عن حاجات الروح ومطامح الفكر ، فماذا يبقى من الانسان؟ ألا يغدو حيواناً اقتصادياً هيناً ، كما اراد له (كارل ماركس) ان يكون؟

والشعب حين يزهد الشعب بالمثل المعنوية ، ما الفرق بينه وبين القطيع ؟

كان الشعب الروماني عظيما صاحب سيـادة وسلطان . وفي يوم من الايام القى الشعب العظيم همومه الى الريح وتقلص طموحه وحصر همه في مطلبـين (الخبز والالعاب Panem et Circenses) يومذاك هبط الشعب العظيم واخذت الامبراطورية الرومانية بالانهيار ..

قد يقول قائل : ألم تسمع بدعوات دينية وحركات ؟ أقول بلى ، في الشرق والغرب حركات دينية منظمة ، واسعة الانتشار . لكني لا اكاد اجد فيهـا نفحة من نفحات الروح ولو تحدثت بلغة الانبياء . والتيار الأقوى في العـالم وفي البلاد هو تيار الالحاد ، وقد سمعت الكثير من الشباب يرددون قول نيتشه : « ألم تسمع في الغابة ان الله قد مات » ــ

٤ ــ ونلاحظ ، رابعاً ، ان هذه الدعوات لا تقتصر على نهج الحياة وانما تتناول كيان الانسان وشخصيته القومية فتقول له : « انت سوري ، انت عربي ، او انت مجهول النسب ، انت مسلم ، انت انسان ، انت كائن اقتصادي ، انت اقطاعي، او رأسمالي ، او عامل ، او صعلوك . »

اضف الى هذا كله تلك الدعوات السمجة ، المبتذلة ، المعادة كل صباح

وكل مساء ـ صوت اميركا ، راديو موسكو ، راديو باريس ، محطة الاذاعة البريطانية ، ولا انسى محطة الشرق الادنى ـ

أفبعد هذا كله تعجبون من حيرة الشباب وتخبطهم وضلالهم البعيد ؟؟

والواقع ان الامة باسرها في حيرة واضطراب . وحيرتنا ابلغ من حيرة سائر الامم لأن ابناء الحضارة القديمة المتصلة لا يؤخذون بسهولة ، والمجتمع القوي المتماسك يصمد لهزات الفكر وموجات العاطفة وجموح الغرائز . وفي الامم الناضجة الواعية مؤسسات تعدل من اندفاع التيارات الطارئة وتنصح وتهدي وتشير . ولكن من عندنا يصحح ويعدل ويشير ويهدي ؟؟ في خضم الدعوات وفوضى المذاهب والآراء ما صنعت المعارف السورية ، وما يصنع المفكرون وزعماء الرأي وقادة العمل ؟؟؟

المعارف :

اما المعارف فتزيد من هذه الفوضى وتشارك فيها ، وحسبي ان اذكر ان تلك الدعوات التي اشرت اليها كانت ممثلة في الاساتذة والمعلمين وان منظمات عديدة اعتمدت على المعلمين في حشد الطلاب ـ وكنت تجد في المدرسة الواحدة معلماً شيوعياً ، الى جواره معلم بعثي ، لهما زميل قومي سوري ، ومعهم اخ مسلم . وكنا نتساءل : هل تعمل المعارف السورية على نشر الفكرة الشيوعية أم تتبنى القومية السورية ، أم تكون على مذهب الاخوان المسلمين ؟ هل للدولة توجيه ؟؟

ان منشئ المدارس العامة في انكلترا كان يقول : اريد ان اعد جنتلمان ، مؤمناً ، متنوراً ـ ومضت المدارس العامة في إعداد طبقة ممتازة من المؤمنين المتنورين . فمن هو السوري الذي تعمل المعارف على إخراجه ؟ طرحت هذا السؤال على عدد من كبار رجال المعارف ومن صغارهم فلم أظفر بجواب . ان المعارف تكتفي بنشر العلم او المعلومات ولا تهتم بصنع الشخصية على مثال تراه .

لذلك لم يحمل المعلم السوري ، او لم تحمّله المعارف ، رسالة غير تيسير العلم اليسير لأكبر عدد ممكن من الناس .

أرجو ألا يفهم مما تقدم اني لا اقدّر الدور الذي تلعبه الاحزاب في النظام النيابي الحر ، كما أرجو ألا يفهم اني احرم على المعلم ان يفكر ويجتهد لنفسه ويعتنق الفكرة السياسية التي يشاء ، ولكن لا يجوز للمعلم وهو عامل الدولة وامينها على ابنائها وحارس الحضارة والقيم ان يستغل مركزه للتأثير على الناشئين . واجب المعلم ان يعوّد الطالب على التفكير الطليق وان يهديه الى المثل الاخلاقية العليا ويتركه وشأنه بعد ذلك ، يختار ما شاء من مذاهب في السياسة والاجتماع .

المفكرون :

أفي سوريا ادباء وشعراء وخطباء ومفكرون يقومون بحق الفكر والفن والادب ؟ ان اكثر كتابنا صحفيون ليس لما يكتبون قيمة في ميزان القيم ، وليس لهم سلطان ادبي يجعلهم مسموعي الكلمة محترمي الرأي ، واكثر ادبائنا يفهمون الادب على انه تركيب الفاظ وصناعة إنشاء .

وشعراؤنا ؟ صادفت بالأمس شاعراً في دمشق ، فتن الشباب والعذارى وشهد له بالألمعية شعراء لبنان وأخرجت له ديواناً مطابع مصر — انه يستطيع ان يقول قصيدة كاملة في « المايوه الأزرق » وفي « احمر الشفاه » .. هو شاعر موهوب ، ما في ذلك ريب ، لكن هذه المواضيع لا يمكن ان تجعل منه شاعراً عظيما يغني لشعب عظيم .

وأين أين المفكرون الذين يبحثون عن الحقائق ، ولهم الجرأة الكافية لاعلانها ؟

أتصدقون ، ايها السادة ، ان شهوراً عديدة تطوى وقد تمضي السنة والسنتان ولا يخرج في سوريا كتاب ؟ وفي بيروت لا يمضي اسبوع لا يصدر معه

كتاب من دار نشر واحدة ، وهناك عشرات الدور للنشر . ونزعم ان سوريا هي زعيمة الفكرة العربية ومركز الاشعاع والانطلاق ؟

ومرت عاصفة فلسطين ولم تخلف في عالم الفكر سوى رسالة كتبت على عجل..

والغي دستور ، ووُضع دستور ، وعلق دستور ، ولم نسمع كلمة المفكرين في نظام الحكم وما يلائم طبائع العرب وحاجات الزمان .

وحدثت الأحداث الجسام فما حركت مفكراً ولا اوحت بنظرية او رأي صريح .

فما بال المفكرين ، وما خطبهم ؟؟

لعل المفكرين في قيود من مطامعهم وفي حرص شديد على الأمن والعافية. لأن من اراد ان ينصب نفسه معلماً لقوم ومرشداً وهاديا ، عليه ان يترفع ويتطهر كما فعل سعدي الشيرازي حين تقدم للهداية والاصلاح ـ

« يا سعدي ، لقد تشجعت في القول
وما دام السيف بيدك فتولّ به الفتح
وقل كل ما تعرفه فمن الخير ان تقول الحق
فلست مرتشياً ولا مرائيـــا
ان الطمع قيد، فاقطع بحكمتك هذا القيد
واقض على الطمع وقل كل ما تريد .»

وهكذا استطاع سعدي ان يخاطب الملوك والامراء وان يفرض احترامه على الناس جميعاً .

قد يقول قائل : ولكن من يضمن حرية القول للمفكرين ؟ واجيب : ومتى كان المفكرون الكبـار واصحاب الرسالات ينتظرون ان تهدى اليهم الحرية ليقولوا ، اذا وجد المفكر الاصيـل فانه يمنح نفسه الحرية الكاملة ويقول ما ينبغي ان يقال .

اليونان بأسرها والانسانية جمعاء مدينة لرجل اعلن الحق الذي رآه وذهب الى السجن راضياً ومشى الى الموت رافع الرأس وضرب للاجيال أروع مثال في الوطنية والاخلاق .

الزعماء

التفريق بين المعلم والمفكر والزعيم اقتضاه مجرد عرض الفكرة ، واني اعتبر الزعيم الحقيقي معلماً لقومه وهاديا ، واني حين افكر في الاصلاح والانفاذ اتمثل المنقذ في صورة معلم كما كان مازيني معلماً لقومه في القرن الماضي وكما كان غاندي قبيل انتصاف هذا القرن .

كم اتمنى ان ارى شباب سوريا يجتمعون في حلقات حول مفكر كبير نبيل كما اجتمع شباب اثينا حول سقراط ، وشباب اميركا حول امرسن ، وشباب المانيا حول فيخت (Fichte) وجوته (Goethe) .

في قصة تانكريد (Tancred) لدزرائيلي يقول اللورد تانكريد للامير فخرالدين اللبناني : « اذا اردت ان تحرر بلادك وتكون امة من هذه الشعوب فلا تحسب الأمر يتم بارسال السفراء الى لندن وباريس ، فمن يدري ما يكون مصير المدينتين ؟ انما ينبغي ان تصنع مثل محمد وموسى . ان العالم لم يغلب قط بالكيد والدهاء ، وانما غلب العالم بالايمان واني اراك لا تؤمن بشيء » .

ويجيب فخرالدين : « الايمان ، آه لو استطاع امرؤ ان يؤمن بشيء ويكتسح الدنيا .. فيعود تانكريد الى القول : « انظر يا فتى ، اني لا اجدما يغري في اكتساح الدنيا من اجل بيت شهاب ـ ان البيت المالك يزول كسائر الاشياء ، وانما يجب ان يغلب المرء العالم لينصر فكرة ، ان الفكرة وحدها تبقى الى الأبد ، ولكن اي فكرة ؟ هنا الفلسفة وكل الحكمة . »

ونحن نتساءل : أي اهداف وأي مثل ؟

اني احب كثيراً تلك الحكاية او الاسطورة التي يرويها افلاطون، وهي وان كانت من خيال الشاعر العظيم الا انها لا تخلو من عنصر حقيقة .

يزعم افلاطون ان النفس قبل ان تهبط الى هذا العالم تطوف السماء في صحبة الآلهة وترى المثل أو الفكر الخالدة ـ ترى الشجاعة الكاملة والعدالة التامة والجمال المطلق وكل الفضائل والكمالات ـ والنفس بعد الولادة حين ترى وجهاً جميلا أو تمر بروض انيق او تصغي الى شاعر عظيم تهفو وتصبو وتطرب لأنها تذكر ما رأت في السماء اثناء الطواف مع الآلهة .

ويزعم افلاطون ان التوفيق في الحياة يكون بقدر ما يحفظ الانسان ذكرى تلك الرؤيا الجليلة في السماء .

وهكذا ترون ايها السادة اني رجعي ارجع الى سقراط وافلاطون والقدماء ولا آتيكم بجديد ، وانظر بتحفظ الى دعوات الاصلاح السياسي والتجديد الاقتصادي وتوزيع الحقوق وتحسين العيش .

مشكلتنا أعمق بكثير من السياسة والاقتصاد ، هي مشكلة امة فقدت مثلا قديمة كانت القوى الفعالة في حياتها ولم تجد مثلا اخرى تتفق عليها . واني اعتقد ان العمل الجديد يجب ان يكون اخلاقياً روحياً قبل كل شيء ـ

نحتاج الى من يقودنا ثانية الى المثل الخالدة ـ الى الحق لذات الحق ، الى الخير لأنه خير ، الى الجمال لوجه الله ، الى الحرية مهما تكن العقبات ، الى الشجاعة ، الى الحب ، الى كل فضيلة وكل كمال .

ولا يكفي ان نرشد الناشئين الى الفكر المجردة وانما ينبغي ان نضع امامهم أمثلة عالية من الادب والتاريخ والحياة ـ وان نطلعهم على أفضل ما كان وما كُتب وما صُنع وما خطر على بال . ولنغرس تلك الصور في صدورهم كمقاييس يهتدون بها ويرجعون اليها في الحكم على الاشياء .

ان المؤدب اذا اراد ان يعدّ شاباً موهوباً ليكون فناناً او صاحب ذوق سليم يضع بين يديه أروع ما رسمت ريشة فنان .

واذا اراد ان يغذي شاعرية شاعر يطلعه على ما انتج اعظم شعراء العالم من هومير الى داتي وشكسبير ، لأن صحبة العبقريين تعودنا على جو المرتفعات وتعطينا النغم والنمط والاسلوب الذي ينبغي ان نجري عليه .

وهكذا اذا اردنا ان يصبح الناشئ مواطناً فاضلاً فلنضع أمامه أنبل الأمثلة عن المواطن الآثيني في القديم والمواطن السويدي أو السويسري في هذا الزمان .

واذا اردنا مصلحاً ومنشئاً ورجل دولة فيجب ان ندله على نماذج فذة من الدول الفاضلة في التاريخ ـ آثينا على عهد بركليس ، روما يوم كان كاتو وشيشرون احراراً في مجلس الشيوخ ، اميركا على عهد لنكولن وواشنطون .

الرؤى الجليلة والمثل العالية هي الزاد الضروري لرحلة الحياة ، ويحصل الناشئ على ذلك الزاد في صحبة أفضل الأشياء في العالم — اجمل الصور ، احصن البناء ، أفضل النظم ، أنبل الاشخاص ، وارق الدول .

ايها السادة ، لقد تحدثت طويلا عن الاهداف والمثل ولم اذكر بعد مصدر المثل جميعاً ومنبع الفكر ومبعث النور والحكمة وكل خير وكل جمال .

ان دعوتي ، ايها السادة ، ليست أقل ولا اكثر من العودة الى الله .
ولله المثل الأعلى ، كما جاء في القرآن الكريم ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض .

المحاضرة العاشرة

التفاعل السياسي والثقافي
بين البيزنطيين والحمدانيين

فؤاد افرام البستاني
مدير دار المعلمين والمعلمات في بيروت
واستاذ الآداب وتاريخ الحضارة
العربية في جامعة القديس يوسف

= القيت بتاريخ ١٨ نيسان ١٩٥٢ =

ايها السيدات والسادة

أراني ، متكلماً عن الحمدانيين في عاصمتهم، وفيها المؤرخ والشاعر والاديب، كناقل التمر الى هجر . واراكم ، وقد استمعتم بشيء من الصبر الى هـذا الحديث ، تقولون : هذه بضاعتنا رُدّت الينا ! بيد ان ما شجعني على المضي في هـذا الموضوع دعوة الصديق الكريم الاستاذ سامي الكيالي ؛ ثم رغبة الانسان في ان يسمع دائماً عمن يحبه ويعجب به . ولم تكن حلب ، وقد احبّت سيف الدولة وأحبها، لتخرج عن هذه القاعدة :

حديثه أو حديث عنه يطربني ...

* * *

لا بد في الحرب من ان يتعارف الفريقان . يتعارفان في ساحة الوغى ، كما يتعارفان بتقـارير العيون والارصاد ، وبدروس الخبراء والاختصاصيين . فيستفيد كل من تنظيم الفريق الآخر ، من مؤسساته الادارية والاجتماعية والثقافية .

فكان لا بد اذاً من ان يتعارف الحمدانيون والبيزنطيون ، وقـد تحاربوا نحو ثلث قرن . فنتج عن ذلك تفاعل في السياسة والثقافة .

ونحن نفهم السياسة بمعناها الواسع القديم ، أي الادارة والتدبير ، ومنها تدبير الجيوش في السلم والحرب وما يلحق بذلك من تبادل الاسرى واساليب الفداء، ثم سائر العلاقات بين الدولتين كالوفادة والسفارة .

اما الثقافة فتشمل مظاهر المعرفة جميعها .

ولا يخفى ان مصادر هذا البحث قليلة جداً ، لأنه قلما اهتم المؤرخون بهذه النواحي . انما كان اكثر همهم الحوادث الحربية . فكان محتوماً علينا ان نستنتج ونقابل . وقد عرضنا لكل ما امكننا الوصول اليه من اقوال مؤرخي العرب والبيزنطيين . ولم نهمل الشعراء ، وفي شعرهم شواهد تاريخية وثيقة لم تُستغل بعد كما ينبغي ، لسوء الحظ .

ورأيت ان نبدأ الحديث بلمحة اجمالية نلخص فيها هذه الحروب المتتابعة على اكثر من ثلاثين سنة ، والبارزة فصلاً مختصراً من تاريخ الحروب البيزنطية ـ الاسلامية ، التي بدأت سنة ٦٣٤ ولم تنته الا بعد ثمانمائة وعشرين سنة ، بسقوط بيزنطية سنة ١٤٥٣ .

كان هم البيزنطيين ، منذ القرن الثامن ، ان يستعيدوا ما اغتصبهم اياه المسلمون من المناطق الواسعة ـ الا انهم ظلوا عاجزين عن الأخذ بالثأر طول ما كانت الخلافة العباسية قوية نشيطة . وكان لا يزال صهيل جياد الرشيد والمعتصم يرنّ صداه في انحاء هرقلة ، وزبطره ، وأنقره ، وعمورية .

ولكن لم تأخذ وحدة الخلافة بالتجزؤ منذ اواخر القرن التاسع ، حتى استعاد البيزنطيون حماستهم القديمة ، ووضعوا خطة أخذوا بتنفيذها شيئاً فشيئاً ، حتى بدأ القرن العاشر ، واذا بهم قد تقدموا حتى حدود قيليقية . فصرحوا بمقاصدهم يحمسون جيوشهم وقوادهم ، واعلنوا ان غايتهم تخليص بيت المقدس واستعادة قبر المسيح . فكانوا من هذه الناحية سابقي الصليبيين الى فكرتهم .

ولو لم يقف امامهم قائد مدرب شجاع كسيف الدولة في اواسط القرن العاشر لما قويت الجيوش الاسلامية على اعتراضهم مدة طويلة . على ان سيف الدولة نفسه كان في الكثير من الاحايين يُضطر الى الدفاع بدل الغزو ، والى الفرار بدل الهجوم . وقد رأينا ايضاحاً لهذه المعارك المتتابعة مدة حكم سيف الدولة ، وتسهيلاً لفهم هذه الغزوات المتلاحقة كل سنة ـ أن نقسم حروب سيف الدولة والبيزنطيين أربع حقب :

الحقبة الاولى (٩٣٨–٩٤٤)

سيف الدولة : امير ديار بكر عليـــه ان يحارب البيزنطيين على حدود ارمينية وعلى حدود الجزيرة .

(قائد البيزنطيين إذذاك: الدمستق قرقاس) (Corcuas) الارمني الاصل.

امبراطور الروم : رومانوس الاول (Romaine Lecarpène) الحرب سجال ، مع ميل الى النصر من ناحية الروم .

ينتصر سيف الدولة على اعدائه ، أول الأمر ، ويدخـــل حصن زياد (خربوط) في شتاء سنة ٩٣٨ ، ثم يضطر الى التراجع امام مائتي الف من عسكر الروم ، فيقيم بأرزن حتى الربيع .

يعود الى الغزو ، ويتقدم ، فيدخل قلونية (قره حصار) المدينة العظيمة المحصنة .

ولكن الفتن الداخلية بين القبائل العربية تشغله كثيراً . فيتقدم الروم سريعاً حتى يصلوا قرب حلب في اوائل سنة ٩٤٢ .

ثم يدخلون ديار بكر من جهة الشرق ، ويفتحون أرزن ويخربونهـا ، ويحاصرون الرها مطالبين بالمنديل المنطبعة عليه صورة المسيح . فيعطيهم اياه المسلمون على شرط ان يطلقوا أسراهم .

وهكذا كان . فعاد الروم مغتبطين الى بيزنطية في ١٥ آب ٩٤٤.

الحقبة الثانية (٩٤٤-٩٥٤)

سيف الدولة : ملك حلب .

امبراطور الروم : قسطنطين السابع (٩٤٤-٩٥٩) (Gorphyrogénète)

الدمستق : بردس أو فردس بن الفقاس (Berdos Ghocas)

على سيف الدولة ملك حلب ، ان يحمي كل الحدود الشامية والجزرية .

من قواعده المهمة : حلب في سورية . وآمد ، وميافارقين في منطقة ديار بكر .

أهمها فتحه حصن برزويه ، شمالي أفامية سنة ٩٤٧ .

ودخوله قيسارية قبادوقية ، وتوغله في بلاد الروم حتى سمندو ، في شمالي الطريق بين مرعش وقيسارية ، وحتى خرشنة في شمالي منطقة سيواس .

مرّ بنهر آلس ، ونزل على صارخة ، وهي على سبعة ايام من بيزنطية ، فأحرق ضياعها وكنائسها وأكثر القتل في اهلها . وهزم الدمستق ، وأسر من بطارقته نحو ٨٠ ، « وكانت غزاة مشهورة وغنم المسلمون ما لا يوصف ، وبقوا في الغزو أشهراً » ، على قول الذهبي ، وذلك سنة ٩٥٠ .

على أن الدمستق لم يستسلم للخذلان ، وهو أعرف بمناطق بلاده . وعلى الطريق ، طريق الرجوع ، عقبة يسميها شراح المتنبي « مقطعة الاثغار » ويسميها غيرهم « عقبة الشير » أو « درب الكنكرون » ؛ كان لا بد لسيف الدولة من اجتيازها بتلك الجيوش ، والاسرى ، والغنائم . فأسرع الدمستق وامتلكها ، وصفّ رجاله على جانبي الجبل . قال الذهبي :

« ورجع سيف الدولة في مضيق صعب . فأخذت الروم عليه الدروب ، وحالوا بينه وبين المقدمة ، وقطعوا الشجر وسدوا به الطرق ، ودهدهوا الصخور في المضايق على الناس . والروم وراء الناس مع الدمستق يقتلون ويأسرون ، ولا منفذ لسيف الدولة . وكان معه اربعمائة اسير من وجوه الروم فضرب اعناقهم ،

وعقر جماله وكثيراً من دوابه ، وحرق الثقل ، وقاتل قتال الموت . فنجا في نفر يسير . واستباح الدمستق اكثر الجيش وأسر امراء وقضاة . ووصل سيف الدولة الى حلب ولم يكد . »

وكان ذلك في ٢٠ تشرين الثاني سنة ٩٥٠ .

وكان المتنبي مع سيف الدولة في هذه المعركة . فعمل على تخريج الانكسار تخريجاً يخفف من عاره ، وينسبه الى جبن العسكر وخيانة السكان . وذلك في قصيدته العينية التي ينوهها بمدح سيف الدولة وتعزيته بانه سيعود الى الأخذ بالثأر :

الدهر مقتدر ، والسيف منتظر ، وأرضهم لك مصطاف ومرتبع

ولم يخطىء المتنبي في توقعه الأخذ بالثأر ، فقد عادت الى سيف الدولة حميته ، فجمع فلول جيشه ، وعاد يستأنف الغزوات على الثغور ، ويبني ما تخرب من حصونه بسبب الحروب أو بسبب الزلازل المتوالية في سنة ٩٥١ .

وفي سنة ٩٥٣ ، ثارت القبائل في ديار مضر على سيف الدولة ، وأشدها بنو عقيل ، وقشير ، وعجلان ، فاضطر الى ترك الثغور الرومية لتأديب البدو ناحية المشرق .

وعرف الروم غيابه ، فتقدم الدمستق الى ناحية جيحان . وسمع به سيف الدولة فأسرع حتى أدركه على النهر . وهنا اشتبكت معركة شديدة جرح فيها الدمستق بردس قوكاس في وجهه ، واسر ابنه قسطنطين ـ وهو الثالث من اولاده بعد نقفور ولاون ـ في ٢٦ تموز سنة ٩٥٣ . وقد اتفق مؤرخو العرب ومؤرخو البيزنطيين على ذكر هذا الجرح . وكان المتنبي مع سيف الدولة ، على عادته ، فقال القصيدة التي مطلعها :

ليالي بعد الظاعنين ، شكول طوال ، وليل العاشقين طويل

وكان ذكر هذا الانتصار بعيد الأثر في بلاد الأمير الحمداني ، فبعد ان أنشد فيه المتنبي قصيدته الآنفة الذكر أخذ الشعراء يتبارون في موضوعه، فيتبسطون في شجاعة الأمير وما ناله من أسر ابن الدمستق وجرح ابيه . قال النامي :

وقد سار في الروم الدمستق باغياً ... له ساعة نكراء في ثوب نكد
وأسلم قسطنطين للقتل فردس ... وولى ، وقد خدّته فوهاء في الخد

وظلّ الناس يذكرون هذا النصر العجيب مدة طويلة . وهذا المتنبي يعود اليه في عيد الاضحى سنة ٣٤٢ الموافق ١٧ نيسان ٩٥٤ ، وقد مرّ عليه عشرة أشهر ، في داليته الرائعة التي هنأ بها سيف الدولة . ومطلعها :

لكل امرئ من دهره ما تعوّدا ... وعادة سيف الدولة الطعن في العدى

ومنها ، في ذكر الحادثة :

فولى ، واعطاك ابنه وجيوشه ... جميعاً ، ولم يعط الجميع ليحمدا ...
وأصبح يجتاب المسوح مخافةً ، ... وقد كان يجتاب الدلاص المسرّدا
ويمشي به العكاز في الدير تائبا ، ... وما كان يرضى مشي أشقر اجردا

يشير الى اختفاء فردس ، وترقبه في أحد الاديار ، كما يشير غيره من الشعراء الى هذا الأمر . قال النامي :

لكنه طلب الترهب خيفة ... ممن له تتقاصر الاعمار
فمكان قائم سيفه عكازه ، ... ومكان ما يتمنطق الزنار

على انه لم ينكر هذا الأمر أحد من مؤرخي البيزنطيين . بل اننا نرى ما يخالفه في ما يأتي من الاحداث . ذلك ان فردس نفسه جمع جيشاً جديداً في السنة التالية ، وأقبل يحارب سيف الدولة أمام قلعة الحدث كما سنرى . ولعله يكون قد لجأ ، في هربه ، الى احد الاديرة مختبئاً موقتاً ، فوصل الخبر الى معسكر سيف الدولة ، فعلق به الشعراء ، وولدوا منه حكاية الترهب .

اما قسطنطين فقد قضى مدة في الاسر والذل ، وحاول ابوه افتداءه ، فعرض على سيف الدولة ثمانمائة الف دينار وثلاثة آلاف اسير، على قول ابن شداد، فلم يرض سيف الدولة . ويقول ابن العديم انه في آب ٩٥٧ أخبر سيف الدوله بان الروم يكاتبون جماعة من غلمانه في أمر تسليمه اليهم ، فغضب ، وقتل من كان بحلب من اسرى الروم . وكانوا زهاء اربعمائة . وضيق على ابن الدمستق وزاد في قيده ... حتى مرض قسطنطين ومات . فقال مؤرخو بيزنطية ، وفي طليعتهم قدرينوس ، ان سيف الدولة سمّه . وقال ابن شداد ان الدمستق ، ابا قسطنطين ، « سيّر الى عطار نصراني بحلب وأمره ان يسقي ولده سماً ففعل ، وذلك كي لا يستخدمه سيف الدولة » وهو غريب . ويقول كمال الدين ان سيف الدولة ، كان يحمل اسيره قسطنطين الابريق الى المتوضأ ، فيبكي هذا » .

اما آخر انتصار في هذه الحقبة المجيدة فهو انتصار قلعة الحدث الذي طالما أشاد بذكره شعراء سيف الدولة ، ومن بعدهم مؤرخو العصر الحمداني .

كان جيش الروم في هذه الوقعة مؤلفاً من خمسين الفاً يقوده الدمستق فردس ، ومعه ابنه نقفور الذي سيصير دمستقاً شديد الوطأة على سيف الدولة ، وسيدخل حلب بعد ثماني سنوات .

وكان سيف الدولة قد أتى الحدث بجيشه . ولا يذكر المؤرخون عدده . فبدأ بناء القلعة في ١٨ تشرين الاول سنة ٩٥٤ ، وحفر أول الاساس بيده . فنازله الدمستق في ٣٠ من الشهر نفسه . وكانت معركة شديدة من اول النهار الى العصر. وكان النصر قد مال الى البيزنطيين مدة ، فحمل سيف الدولة بنفسه في طليعة حرسه الخاص أو غلمانه المدربين ، وعددهم خمسمائة ، على قلب الجيش المنازل . فانهزم الدمستق وترك نحو ثلاثة آلاف قتيل . وأسر العرب عدداً من كبار القواد، فقتل سيف الدولة اكثرهم ، واستبقى بعضهم . منهم صهر الدمستق واسمه تودس الأعور ، أو تيودوسيوس بطريق سمندو ولقندو ، وابنه اي ابن بنت الدمستق ، ولم يذكر اسمه . واختفى نقفور بن فردس في قناة الحدث ، الى ان اتى الليل فخرج منها ولحق بأبيه . وغنم سيف الدولة الغنائم الكثيرة . وظل في المدينة حتى أتمّ

بناء القلعة ووضع آخر شرفة منها بيده في ١٣ تشرين الثاني ٩٥٤ فتبارى الشعراء في ذكر هذا الانتصار الجديد . من ذلك قول السري الرفاء :

رفعت بالحدث الحصن الذي خفضت منه الحوادث حتى ذلّ جانبه

ولأبي الطيب في هذا الانتصار قصيدة ضخمة تغني شهرتها عن ذكرها ، ومطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

الحقبة الثالثة (٩٥٤–٩٦٠)

كان امبراطور الروم في هذه الحقبة لا يزال قسطنطين السابع (Corphyrogénète) وظلّ الدمستق نفسه فردس بن الفقاس . انما بدأ يعاونه ابناه : لاون ونقفور (Nicphore) .

وقد بدأ الروم يستعدون للانتقام ، على أثر تلك الكسرة الهائلة التي لحقتهم أمام قلعة الحدث ، فيلمون شعثهم ، ويعودون الى الحصن نفسه ، فيحاصرونه في ايلول ٩٥٥ ، ويقطعون الطرق ، فيسرع سيف الدولة خائفاً على قلعته ، حتى اذا قرب منها ، خرج اهل القلعة المحاصرون ، وجعلوا الروم بين الجيشين فكانت الكرة عليهم هذه المرة ايضاً . وفي هذه الموقعة يقول المتنبي قصيدته التي مطلعها :

ذي المعالي ! فليعلون من تعالى هكذا هكذا ، والا فلا لا

وقد جرأ هذا الانتصار سيف الدولة على متابعة غزواته في بلاد الروم . فمشى حتى قطع نهر أرسناس على اطواق وسفن حملها معه مخلعة ، كما يقول ابن ظافر – وأرسناس نهر يدعى ايضاً مراد – صو – ثم قطع الفرات ، واناخ على تلّ بطريق ، على الضفة الغربية . وفيه القائد (Jean Tzimikés) الذي يسميه العرب يأنس بن الشمشقيق . فأخلى المدينة . فدخلها سيف الدولة وأحرقها .

وقتل من الروم نحو اربعة آلاف رجـل ، وغنم ما يفوت الاحصاء من الدواب والديباج .

وكان ابن الشمشقيق بعد تراجعه من تل بطريق ، قـد التحق بالدمستق فردس ، فاتفقا على ربط الدرب على سيف الدولة في رجوعه . وهي خطة طالمـا لجأ اليها قواد الروم بعد أن ادركوا ما كان من اندفاع سيف الدولة في التغلغل في البلاد حتى التهور ، وعدم الاحتياط للرجوع . وما اتصف به من الاستبداد برأيه، كما سنرى .

الا أن الانتصار كان لسيف الدولة هذه المرة ، فعاد سالماً الى آمد ، وذلك سنة ٩٥٦ .

وكان لاون البطريق ، ابن الدمستق فردس ، قد سار بشرذمة على دلوك. فالتقاه ابو العشائر الحمداني ـ ويسميه البيزنطيون (Apolasar) ـ في جيشه . فانتصر لاون وأسر ابا العشائر وحمله الى بيزنطية . وفيها مات .

وكان ابو الطيب مع سيف الدولة في المعركة، على عادته، فقال نونيته المعروفة:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحـــل الثاني

وتبعت هذه المعركة معارك كان فيها النصر تارة لسيف الدولة ، وطوراً للروم . وقد كان من ظفر الروم في هـــذه الحقبة أنهم اغاروا على ميافارقين (Miphracta) فأحرقوا قراها ، ونهبوها ، وسبوا اهلها . وعادوا غانمين .

فمشى عليهم سيف الدولة حتى التقى بابن الشمشقيق، وكان لا يزال بطريقاً، فكسره وشتت جيشه وذلك سنة ٩٥٦، فكان نصر بنصر . ويذكر شراح ديوان المتنبي ان البطريق المذكور أقسم عنـــد ملكه بانه يغلب سيف الدولة ، ولا نرى اشارة الى هـذا القسم في آثار المؤرخين . ولعل الشراح أخذوا بقول المتنبي في مطلع قصيدته الجزيلة الفائدة من جهة التاريخ ، وهي آخر قصيدة أنشدها الشاعر لسيف الدولة في حلب ، قبل فراقهما . ومطلعها :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في اقدامك القسم

وكأن الطبيعة ختمت تلك المفاخر بهذه القصيدة الرفيعة . فأبعدت المتنبي عن اميره كي لا يرى تقهقر جيوشه المتواصل .

وليس من شك في ان سيف الدولة أفلت كواكب سعده ، منذ سنة ٩٥٧، فدخل الدمستق حصن الحدث في حزيران وجلا اهله الى حلب، وأخرب الحصن.

وسار ابن الشمشقيق الى آمد ، وأرزن ، وميافارقين ، سنة ٩٥٨ . فسير اليه سيف الدولة غلامه نجا في عشرة آلاف . فكسرهم ابن الشمشقيق ، وقتل منهم نحو ٥٠٠ على قول يحيى بن سعد . وتقدم ابن الشمشقيق ومعه البراكموس أو البارکمونس (Basile le Parakimoumène) ففتحا سميساط في أقل من يوم ، وحاصرا رعبان . فتقدم سيف الدولة بعسكره . ولكن لم تطل المعركة حتى انهزم سيف الدولة . فأوقع الروم ، وقتّلوا وأسروا من اهله واصحابه ووجوه غلمانه ما كثر عدده . وذلك في تشرين ٩٥٨. ويزيد يحيى أن ابن الشمشقيق أدخل الى القسطنطينية من الاسرى الفاً وسبعمائة فارس ، وطوّف بهم ، وهم على خيولهم ، لابسون سلاحهم . ثم اغارت الروم على قورس وسبوا خلقاً من اهلها ، الا ان سيف الدولة خلّص منهم الأسرى .

وكانت هذه الانتصارات مقدمات لتلك الغزوات البعيدة المدى في بلاد الاسلام التي قادت بيزنطية من حيث الاعمال الحربية الى دخول حلب سنة ٩٦٢ ، ومن حيث السياسة الى فرض معاهدة شديدة الوطأة على الحمدانيين شاء القدر ان يخلّص سيف الدولة من ألم توقيعها ، فمات قبل امضائها بسنتين . وذلك في الحقبة الرابعة .

الحقبة الرابعة (٩٦٠—٩٧٠)

توفي الامبراطور قسطنطين السابع سنة ٩٥٩ ، فخلفه رومانوس الثاني .

وكان الدمستق فردس قد شاخ ، فعين الامبراطور الشاب دمستقاً شاباً على جيوش الشرق ، هو لاون بن فردس ، وعين اخاه نقفور بن فردس قائداً عاماً ، أو دمستقاً ، على جيوش الغرب .

فسار نقفور لفتح جزيرة اقريطش . وكان كثيراً ما حاول القواد فتحها قبل ذلك فعجزوا . وظل الدمستق الجديد على حصارها حتى فتحها سنة ٩٦٠ . وكان اخوه لاون قد مشى على نواحي طرسوس . فسبى ، وأخرب ، وفتح الهارونية . وسار الى ديار بكر داكاً الحصون في طريقه . وأسر في احدى وقائعه محمد بن ناصر الدولة .

وكأن الانتصارات الرومية دفعت الحماسة في قلب سيف الدولة فاستعاد شيئاً من قوته ، وأغار على بلاد الروم في صيف ٩٦٠ . فأحرق عدة قرى ، وفتح بعض الحصون ، واكثر السبي متوغلاً في البلاد . حتى اذا اراد الرجوع ماراً بدرب مغارة الكحل (Andrasos) قريباً من مصيصة (Moponefe) وجد الدمستق لاون قد ملك عليه المضيق ، جارياً على الخطة المعروفة ـ وقد ذكر ابن الأثير ان بعض اهل طرسوس قالوا لسيف الدولة قبل وصوله الى المضيق : « ان الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه ، والرأي ان ترجع معنا ... فلم يقبل منهم ، وكان معجباً برأيه ، يحب ان يستبد ولا يشاور احداً ، لئلا يقال انه اصاب برأي غيره . وعاد في الدرب الذي دخل منه . فظهر الروم عليه . واستردوا ما كان معه من الغنائم . . . ووضعوا السيف في اصحابه ، فأتوا عليهم قتلاً وأسراً . » وكان من جملة الأسرى ابو فراس الشاعر ، وعلي بن منقذ ابن نصر الكناني . ويقول كمال الدين ان سيف الدولة « لما أخذوا عليه الطريق وثب به حصانه عشرين ذراعاً وقيل اربعين ، فنجا في نفر قليل » ، يجعلهم ابن الأثير ثلاثمائة ، ويزيد : « وهذا من سوء رأي من يجهل آراء الناس العقلاء ! » .

ولم يمض القليل حتى رجع نقفور ظافراً من بعثة اقريطش ، فغدا اعظم رجل في الامبراطورية خطراً . فأوجس منه الامبراطور نفسه ، وخاف ان يبقى في العاصمة ، فولاه دمستقية المشرق مكان اخيه لاون . واذا بالقائد الجديد يتقدم نحو

بلاد الحمدانيين بجيش عظيم يبلغ به مؤرخو الروم مأتي ، ويزيد مؤرخو العرب نحو الستين الفاً ، على التفصيل الآتي ، مأخوذاً عن ابن العديم :

٢٠٠ ٠٠٠ فارس
٣٠ ٠٠٠ راجل بالجواشن
٣٠ ٠٠٠ عامل للهدم وتطريق الثلوج
٤ ٠٠٠ بغل

تجمّع هذا الجيش على الأرجح ، في قيسارية قبادوقية . ثم مشى قاطعاً جبل طوروس دون مقاومة تذكر ، ماراً من « الدروب » أو «الابواب القيليقية» (Piles Ciliciénnes) ، حتى اذا ظهرت طلائعه في سهول قيليقية، في اواخر كانون الأول ٩٦١ ، تسارع المسلمون الى الحصون الجبلية يحتمون بها . وكانت الحصون منتشرة في المرتفعات كأوكار النسور ، وكلها في يد الحمدانيين ، فوق ما في السهول والبطائح من المدن المحصنة كطرسوس ، وأدنه ، ومصيصة ، وسلوقية ، وعين زربة (Anazarbe) وهذه الأخيرة من أشهر المواقع المحصنة في بلاد الثغور ، ارتفعت على أحد سواعد جيحان (بيرام) فأشرفت على الطريق من طرسوس الى بلاد الشام . حصّنها أولاً الامبراطور يوستينوس ثم يوستينيانوس ، ثم هرون الرشيد ، فاشتهرت بمناعتها وعلو اسوارها . وكان الحمدانيون يضبطون ايضاً منافذ الطرق القيليقية الى بلاد الشام ، وهي دروب الأمانوس أو جبل اللكام .

الا ان جيش نقفور الهائل أوقع الايجاس في قلب سيف الدولة ، فأمر باخلاء السهول والتراجع الى الحصون .

وتقدم نقفور مسرعاً من انتصار الى انتصار حتى بلغ ما احتله ، في ٢٢ يوماً ، ٥٥ حصناً ومدينة ، على قول ابي الفرج ، و٥٤ على قول ثابت بن سنان وابن الأثير ، واكثر من ٦٠ على قول لاون الشماس . ولم يهاجم جيشه مهاجمة تذكر الا مرتين : الاولى : في طريقه الى حصار عين زربة ، إذ هاجمه ابن الزيات ، امير طرسوس ، فباء بالفشل . والثانية في اثناء الصوم ، وقد هجم نجا ، أحد قواد سيف الدولة ، غازياً قيليقية ، فاضطره الجيش البيزنطي الى الرجوع حالاً .

ومما يذكر من الاحداث المهمة في هذه المدة سقوط عين زربة . وذلك ان حاميتها كانت قليلة الذخيرة ، فما اقام الجيش البيزنطي على حصارها حتى طلبت الأمان. فأمّن نقفور سكانها ، على ان يخرجوا حاملين ما شاءوا . ودخل الجيش القلعة في اوائل شباط ٩٦٢ . بيد ان الدمستق نقض عهده مع السكان في ما خص ممتلكاتهم.

ثم أخرب أسوار المدينة ، وما كان فيها من جوامع . واتصل الخراب بالضواحي فقطع العسكر اكثر ما كان في الأرباض من الشجر ، وكانت أشبه بغوطة دمشق ، على قول المؤرخين .

وتقدم الروم الى حصن سيس ، على أحد سواعد جيحان ، فسقط في يدهم.

بعد ذلك أمر نقفور رجاله بالراحة ، مدة الصوم الكبير . واتجه هو الى قيسارية مدينة ملوك قبادوقية ، ليقضي صومه وفصحه ، وقد وقع الفصح تلك السنة ٩٦٢ في ٣٠ آذار .

ثم أتى الصيف وجيش البيزنطيين مخلد الى السكينة ، وجيش الحمدانيين منتظر هجوم الاعداء .

ولم يتحرك نقفور الا في الخريف . فتابع سيره نحو منافذ الامانوس ، تحت الاسكندرونة، وهو «الابواب» أو «الدروب» الشامية (Pyles Syriennes) ومنها مدخلان الى بلاد الشام : مدخل بيلان ، ومدخل بغراس . ولم يصادف الجيش لديهما مقاومة تذكر ، فقطعهما في اوائل كانون الأول ٩٦٢ . وكانت مرعش ودلوك قد سقطتا . وافتدى اهل بغراس انفسهم بالمال . فأصبحت سورية مفتوحة الانحاء أمام نقفور .

عند ذلك أسرع سيف الدولة فجمع نحو اربعة آلاف رجل ، وهجم على مقدمة الروم ، قرب اعزاز ، على اثنتي عشرة ساعة شمالي حلب . ولكنه اضطر الى التراجع أمام ذاك الجيش الهائل ، فعاد الى عاصمته يحصنها . وترك في اعزاز قائده نجا في ثلاثة آلاف يكشفون حركات العدو ويؤخرون تقدمه ، اذا امكن .

على ان الجيش لم يكن ليتأخر ، والحصون تسقط في يده واحداً اثر واحد، والسكان يهربون أمامه . وقد امتلك مرعش ، ودلوك، وعينتاب ، ورعبان، ومنبج.

وكان امير منبج ، ابو فراس الحمداني الشاعر ، في الصيد ، إذ تقدم الى حصار مدينته ، تيودور ، ابن أخي الدمستق في تشرين الثاني ٩٦٢ . ففاجأت الشاعر كشافة البيزنطيين فدافع عن نفسه دفاعاً شديداً حتى ثقلت عليه الجراح فاستسلم مع سبعين من رجاله ، فأسر وحمل الى بيزنطية ، وظلّ أثر الجرح في فخذه، يعرج منه طول حياته . وفي هذه الوقعة يقول :

أسرت ، وما صحبي بعزلٍ لدى الوغى، ولا فرسي مهر ، ولا ربه غمر
ولكن اذا حُمّ القضاء على امرئٍ فليس له بر ، وليس له بحر ؟

وطال الأسر على ابي فراس ، وهو يرجو ان يفتديه سيف الدولة ، ولا يعلم تلك المصاعب التي كان يتخبط فيها سيف الدولة ، فيعتب ، ويحنق ، ثم يكبح أنفته ، فيستعطف ، ويكتب الى والدته معزياً مؤملاً بالفرج القريب . كل ذلك في قصائد رائعة باخلاص العاطفة ولطف التعبير، حتى غدت «روميات» ـ أي القصائد التي كان يرسلها من بلاد الروم ـ من أجود المذكرات الأدبية بالدرس والتأمل .

أما البيزنطيون فقد واصلوا سيرهم نحو الفرات . وسيف الدولة مجدّ في تحصين حلب . وكانت اسوارها تبلغ خمسة كيلومترات طولاً ، وفيها سبعة ابواب أهمها باب قنسرين في الجنوب الغربي من القلعة .

وظلّ الجيش البيزنطي على تقدمه لا يقف في وجهه حاجز . حتى قطعت طليعة خيالته نهر القويق عوماً لأن الجسورة كلها كانت بيد الحمدانيين . وكان مع الدمستق نقفور رفيقه ابن الشمشقيق .

وليس لنا في وصف تقدم البيزنطيين ، وتراجع الحمدانيين ، أفضل من رواية المؤرخ كمال الدين ، وعنه أخذ من أرّخوا الحادثة من المستشرقين ، فضلاً عن العرب ، كفريتاغ وشلومبرجه .

وخلاصتها ان نقفور دخل المدينة في ٢٢ كانون الأول ٩٦٢ ، فتحصنت الحامية في القلعة ، وكان من الطبيعي ان يخرب قصر سيف الدولة . فأخذ منه نقفور ٣٩٠ بدرة دراهم ، و٢٤٠٠ بغل ، ومن خزائن السلاح ما لا يحصى . ثم أحرقه وأخرب الجامع الأكبر . ولم يتعرض لسواد حلب والقرى التي حوله .

وقد كان وقع هذا الفتح عظيما في بيزنطية ، كما كان وقعه عظيما كذلك في انحاء العالم الاسلامي .

أما نقفور فانه لم يقم طويلاً في حلب . وقد أتاه البريد بوفاة الامبراطور رومانوس الضعيف ، فأسرع الى العاصمة حيث تُوّج امبراطوراً باسم نقفور ، وتزوج تيوفانو ، امرأة رومانوس . وترك دمستقاً على المشرق رفيقه ابن الشمشقيق. فسهل على سيف الدولة الرجوع الى حلب .

وفي كانون الثاني ٩٦٣ ، عاد سيف الدولة الى حلب . فعمر ما خرب منها ورمم المسجد الجامع . وعادت الحرب سجالاً بينه وبين الروم ، على تقدم وهجوم من ناحية الروم ، وعلى ضعف ودفاع من ناحيته. وقد اخذت بوادر المرض تنهك قواه .

وكان نقفور ، الذي اصبح امبراطوراً ، قد رجع بنفسه ، يتابع انتصاراته في الشرق . فاحتل مصيصة وطرسوس سنة ٩٦٥ .

وظلت الجيوش البيزنطية على تقدمها من ناحية آمد ـ ديار بكر . وسيف الدولة يحس بالضعف ، ويستنجد بالعرب ، فينجده بعضهم . الى ان دخلت سنة ٩٦٧ فاشتد المرض على الامير ، واختلف فيه . فقال بعضهم هو الفالج . وأنكر غيرهم . بيد أن الثابت ان الأمير توفي بعسر البول نهار الجمعة في ٨ شباط ٩٦٧ ، في حلب . فنقل الى ميافارقين ، ودفن باحتفال مهيب .

خلفه ابنه ابو المعالي ، وكان صغيراً . فتولى الوصاية الحاجب قرعويه . ولم يكن يخلو من طموح الى الاستئثار بالحكم ، فزادت الاضطرابات ، وتتابع تقدم الروم . وتفاقمت الحالة بثورة ابي فراس في نواحي حمص ، تلك الثورة التي انتهت بقتله في نيسان ٩٦٨ .

وفي تشرين الاول من السنة نفسها ، عاد الامبراطور نقفور الى بـــلاد الحمدانيين ، فاكتسح وادي العاصي حتى حمص ، وهبط منها الى طرابلس . ومشى على الساحل حتى انطاكية . وفي السنـة التالية عمّر نقفور حصن بغراس وجهز جيوشـــه للحرب ، وأقام قائداً عليها ابن اخيه لاون ، بطرس فوكاس الملقب (Stratopédarque) والذي يعرفه العرب باسم الطربازي والاطربازي. ورجع الامبراطور الى بيزنطية لما وصله من ان البلاط شاغب عليه. وكانت زوجته تيوفانو قد اتفقت على التخلص منه مع زميله السابق ابن الشمشقيق ، فنفذت مأربها في ليلة ١٠-١١ كانون الأول ٩٦٩ قاتلة نقفور ، منادية بصاحبها امبراطوراً .

وكان الطربازي يتابع سيره على حواضر العالم الاسلامي . فدخل انطاكية في ٢٨ تشرين الأول ٩٦٩ ومشى على حلب . فانسحب ابو المعالي الى حمص. وكان محاصراً حلب انتقاماً من قرعويه الذي ثار عليه ، واستقل بالمدينة . ففرح قرعويه، الا ان فرحه لم يطل ، لأن الطربازي أخذ بحصار المدينة من جديد ، حتى فتحت ابوابها في اوائل كانون الأول ٩٦٩ .

وعلى أثر ذلك عقدت معاهدة شهيرة أقرت حماية البيزنطيين ، أو انتدابهم، على مملكة حلب ، فختمت تلك الحروب المستطيلة . وقد وقعت المعاهدة قبـل مقتل الامبراطور نقفور ببضعة ايام ، فأمكنه ان يموت قرير العين .

* * *

كان سيف الدولة أول الأمر ـ ولا سيما زمن امارته على ديار بكر ـ يقوم بالحروب على شكل غزوات سريعة يكتفي فيها بالتخريب والاحراق والنهب والأسر. وكثيراً ما كان يهمل السهر على طريق الرجوع ، فيقع في ما كان ينظمه الروم من اشراك في العقبات ، فيخسر كل ما يكون قد افاده في تلك الغزوات الصاعقة .

على انه لم يكن يستتب له الأمر في حلب ، وتتوالى المعـارك المنظمة بينه وبين الروم ، حتى أخذ يستفيد من طرق التنظيم في الجيش الرومي ، ومن خطط

قواده ، في اساليب الهجوم والدفاع . وللروم ماضٍ عريق في هـذه الشؤون ، وخبرة واسعة افادوها من حروب متواصلة في الشرق والغرب مدة القرون الطويلة. حتى ان نقفور ترك كتاباً شهيراً في هذا الموضوع أسهب فيه في تحديد الطرق التي ينبغي للقواد أن يسيروا عليها في حروبهم مع المسلمين من ناحية الثغور الجنوبيـة أي من ناحية الشام (طوروس واللكام) ، وأشار الى كيفية قطع العقبات والمنافذ الجبلية مع وصف المخابئ والملاجئ والخدع الحربية مما يدل على تقدم بالغ في تنظيم الخطط وسائر الاساليب المعروفة بالستراتيجية . حتى انه لم يهمل جليلاً ولا دقيقاً في باب الاستعداد للحرب وقيادتها : الاسلحة ، الذخائر ، المؤن ، الميـاه وتوزيعها في اثناء المعارك . الكشافة ، الطلائع ، مـدة السير في كل نهـار ، حفظ الممرات ومراقبتها ، احتلال المضايق في الجبال قبل وصول العدو ، مفاجأة العدو ومباغتته بعد رجوعه من الغزوة . مراقبـة حركات الجيش العربي ، اساليب التخمين في تقدير عدده وعُدده . دور المشاة ولا سيما في الدفاع عن المجازات والطرق الجبلية. وهناك فصل خاص في ما يجب اتخاذه لدرء هجمة غير منتظرة ، وفي تنظيم الموافقـة بين سير الخيالة وسير المشاة ، مع المحافظة على المعدات والذخائر ، والاسراع في نقلها. ثم في اساليب نصب الاشراك لجيش يفوق الجيش البيزنطي عـــدداً ، وفي تنظيم اللحاق به بفرق قليلة العدد منتشرة الغارات . ولم يفته الحصار فدرس اساليبه في الحصون الجبلية ، وفي القلاع الساحلية . الى غير ذلك مما استفاد منه سيف الدولة إذ رآه مطبقاً في الجيش البيزنطي ، كما استفاد من نظام العسكر المأجور في جيش الروم فأحدثه في جيشه . وهكذا أمكننا ان نصف الجيشين المتحاربين وصفاً يكاد يكون تاماً استندنا فيه الى المصادر العديدة شرقية وغربية .

كان جيش سيف الدولة مؤلفاً من عسكر نظامي يشتمل على مسلمي بلاد سيف الدولة ، يضاف اليهم كثير من الشبـان المتحمسين المعجبين بجهاد الامير في سبيل الاسلام ، يأتون من جميع انحاء العالم الاسلامي ، كل ربيع ، فينخرطون في الجيش الحمداني .

وكان هنـاك فرق من الفرسان أشهرها فرقة غلمان سيف الدولة ، أو حرسه الخاص ، تجمع الموالي الناشئين في حماه ، واكثرها من الصبية المأسورين في بلاد الروم أو في غيرها من ديار الحرب .

وفوق ذلك فرق العبيد المأجورين من مصر خاصة ، ومن بـلاد الترك . يلتحق بهم عدد من السودان والبربر ، مسلمين وغير مسلمين .

ولكل هذه الفرق ، فرساناً ومشاة ، نظام دقيق وترتيب عسكري لا يقل في شيء عن نظام البيزنطيين .

ولهم العيون والجواسيس والطلائع ، المتمرنة على السرعة والانتباه والحذر ، تحتل المنافذ والدروب ، فتقف على غايات العدو ومقاصده ، وتطير حاملة الى الأمير ، أو الى أقرب قواده اليها ، المعلومات الدقيقة .

أما اسلحة العرب فكانت القوس والنشاب ، والحراب ، والرماح ، والسيوف ، والفؤوس ، والعمد أو المستوفيات ، وهي عمد من حديد مربعة يبلغ طول الواحد منها الذراعين ، وله مقبض مدور . وكانوا يلبسون الخوذ والدروع . ولكنها كانت تختلف عن دروع البيزنطيين بأن دروع البيزنطيين كانت سابغة طويلة . اما دروع العرب فتغطي صدورهم وحدها . وقـــد يلحقون قطعاً لتغطية السواعد والاخفاذ والسيقان . وكان للبيزنطيين دروع للخيول سابغة تغطي اجسامها وبعض قوائمها . وهي التي قصدها المتنبي إذ قال في وصف جيش الروم الزاحف على الحدث :

أتوك يجرون الحديد ، كأنما سروا بجيادٍ ما لهن قوائم

ولم يكن لخيل العرب دروع . على انهم كانوا يستعملون تروساً واسعـــة تستر البطل بكامله .

وفي ما عدا دروع الخيل ، كانت الاسلحة تتشابه في الجيشين .

اما الاختلاف فكان في طرق نقل الذخائر . كان البيزنطيون ينقلونها في المركبات ، أو على ظهور البغال . والمسلمون يحملونها على ظهور الجمال . ثم كان الحمدانيون لا يستعملون الابواق في الحرب . بل الطبول الصغيرة يقرعونها قرعاً متقارباً مستطيلاً . فكان هذا القرع يُجفل خيول البيزنطيين، اذا ما التقى الجيشان، كما يقول الامبراطور لاون . وكذلك القول عن منظر الجمال بما عليها من الشرائط والشراريب المتدلية المتنوعة الالوان ، فانه كان يؤثر في الخيل البيزنطية فتضطرب.

وهناك اختلاف في طرق الحصار ، واستعمال آلاته . فقد كان الجيش البيزنطي اكثر تقدماً فيها . كما كان خيالة الحمدانيين أجرأ على الهجوم وأسرع في الرجوع .

كان للبيزنطيين أكباش قوية ، وهي آلات لهدّ الاسوار . ومجانيق ، وعرّادات ، وللعرب منها . إلا ان مجانيق البيزنطيين أقوى وأضخم يمكنهم ان يرموا بواسطتها صخوراً كبيرة على المحاصرين . وقد رموا في حصارهم مدينة الخندق في جزيرة اقريطش ، بقيادة نقفور بن فردس الذي كان دمستقاً في الغرب سنة ٩٦٢ ، حماراً حياً . وكان ذلك على سبيل المداعبة عندما عض الجوع المسلمين المحاصرين فهزئ منهم البيزنطيون بأن رموا اليهم بالحمار ليأكلوه .

وكان البيزنطيون يستعملون النار اليونانية، تلك النار التي اخترعها كالينيكوس اللبناني من اهل بعلبك ، فحملها الى بيزنطية سنة ٦٧٢ ، وظل البيزنطيون يتناقلون سرها فيستفيدون باستعمالها دون غيرهم من رجال الحرب حتى القرن الثاني عشر .

أما الجيش البيزنطي فكان مجموعة من الامم المتباينة تتكلم اللغات المختلفة :

كان فيه الخزر وهم نصارى ، والفرغان أو الفارنجيون ، والمجريون الترك، والارمن ، والصقلب أو السلافيون ، والدلماسيون ، ثم المردة ، وهم أشجع عساكر الامبراطورية البيزنطية ، وأشرسهم على قول شلومبرجه ، وهم أنسباء الموارنة في لبنان ، والمرديون والارناووط في ألبانية .

وكان من اشهر خيالة الجيش البيزنطي الروس ، ارباب الخيول المصفحة، اذا صح التعبير . وقد أخذ المتنبي بمنظرهم فوصف خيولهم المدرعة ، ودروعهم ، وخوذهم ، وأسلحتهم البيضاء اللامعة كأنها تحت وقع أشعة الشمس حتى لا يكاد الناظر يميز بين الفارس والفرس ، وبين الثياب والعمائم والدروع والخوذ ؛ على حد قوله :

أتوك يجرون الحديد كأنما سروا بجياد ما لهن قوائم
اذا برقوا لم تعرف البيض منهم ثيابهم من مثلها والعمائم

وقد قرنهم بالروم في بيت آخر دلالة على اهميتهم :

وكيف ترجى الروم والروس هدمها وذا الطعن آساس لها ودعائم

وكان هؤلاء الروس وثنيين في بلادهم يسكنون مناطق اسكندينافية ، ويأتون جماعات الى بيزنطية بطريق البحر في قوارب صغيرة يحفرونها فى جذوع الاشجار . ولفرط ما اشتهروا به من القوة والبطش كان الامبراطرة يعقدون مع امرائهم معاهدات ليرسلوا كل سنة الى بيزنطية عدداً معيناً منهم . فكان البيزنطيون يعمّدونهم (ينصّرونهم) فور وصولهم ، ويدخلونهم في الجيش بين المأجورين أو المرتزقة . وقد عرفوا بضخامة ابدانهم وبسلاح خاص : هو سيف عريض ، أو رمح طويل ذو سنان مزدوج ، أو فأس منحية لها حربة في رأسها . الخلاصة كانوا يمثلون على خيولهم المدرعة ما تمثله الفيلة في الحروب القديمة ، وما تمثله الدبابات في عصرنا .

وكان لكل من هذه الشعوب لغة خاصة به . ولم يكن بد للقائد البيزنطي الأعلى من تراجمة ينقلون اوامره الى لغات هذه الفرق . وهو ما أشار اليه المتنبي ايضاً في وصفه الجيش الزاحف على الحدث :

خميس بشرق الارض والغرب زحفه وفي اذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث الا التراجم

ولنتقل الى ذكر العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين بادئين بالاشارة الى الوفود في سبيل مفاداة الاسرى .

يذكر المسعودي فداء أتمه سيف الدولة في خلافة المطيع في تشرين الاول ٩٤٦ وكان القيم به نصر الثملي من قبل سيف الدولة. وعدد من فُدي من المسلمين ٢٤٨٢ من ذكر وانثى . وفضل للروم على المسلمين قرضاً مائتان وثلاثون لكثرة ما كان في ايديهم فوفاهم سيف الدولة ذلك وحمله اليهم . وهذا الفداء كان قد باشره الاخشيد على يد أبي عمر عدى بن احمد بن عبد الباقي الأذني (نسبة الى أذنة) المعروف بشيخ الثغور . وكان قد قدم دمشق في السنة السابقة مع رسول ملك الروم الذي يسميه المسعودي يوانس الأنسيبطوس البطريقوس المسدقوس المترقب ويقول عنه : « وكان ذا رأي وفهم بأخبار ملوك اليونانيين والروم ومن كان في أعصارهم من الفلاسفة وقد أشرف على شيء من آرائهم . »

أما ابو عمر عدى بن احمد الأذني فالمعروف عنه انه كان سفيراً في بيزنطية، على عهد الامبراطور لاون السادس (٨٨٦-٩١٢) وقد رافق الوفد البيزنطي الى بغداد على عهد المقتدر .

وهناك رجل تصح تسميته سفير سيف الدولة في بلاد البيزنطيين ، هو ابو القاسم الحسين بن علي المغربي ، الذي ارسله سيف الدولة سنة ٩٦٥ الى نقفور رهينة عن بعض الاسرى . فكان من حسن سياسته ولطف دهائه ان غدا يقوم، لا مقام الرهينة ، بل مقام السفير .

وكان سيف الدولة بحاجة الى هدنة يرتب فيها امور مملكته ويطلب مفاداة الاسرى الذين كثروا عند الروم ، وبينهم ابو الفوارس محمد بن ناصر الدولة ، وابو فراس الذي كان يلح بطلب المفاداة منذ اربع سنوات. وكان لدى سيف الدولة عدد من اسرى الروم في طرسوس كان الغلاء وسوء الحال وقلة الاقوات تعجز الدولة عن إعالتهم .

فكان في تلك الهدنة مصالح عدة . وكان لأبي فراس دور مهم في إقرار الفداء ، حتى اذا ورد كتاب الشاعر بموافقة الروم على طلب سيف الدولة « وفيه خط ملك الروم بالاحمر وخطوط بطارقته » على ما في قول الذهبي؛ سار سيف الدولة « الى سميساط ، وأقام الفداء على شاطئ الفرات ، في يوم الخميس مستهل رجب سنة خمس وخمسين وثلاثمائة (أي ٢٣ حزيران ٩٦٦) ، كما يقول يحيى بن سعيد؛ وفادى بمحمد بن ناصر الدولة ، وبأبي فراس ، وغيرهما من بني حمدان ، وبالقاضي ابي الهيثم بن ابي الحصين ، وزهير ، وقطاس ، وغيرهم من غلمانه » ... ودفع بدلهم من بطارقة الروم رأساً برأس . « وكان ابو العشائر قد مات في القسطنطينية في الحبس ... ولما لم يبق عند سيف الدولة من الروم من يفادى به اشترى من الروم بقية أسرى المسلمين . وكان عددهم ثلاثة آلاف بمائتين واربعين الف دينار رومية . »

ولم تقتصر الوفادات على مفاداة الاسرى . بل كانت تأتي احياناً في طلب الهدنة ، كالوفد الذي رئسه بولس مونوماك ، فوصل حلب في حزيران ٩٥٤ ، وسيف الدولة في ابهة مجده ، فاستقبله استقبالاً باهراً أظهر فيه عظمة جيوشه في سفح جبل جوشن ، على ما جاء في ديوان ابي فراس ، « وأمر بالركوب بالسلاح فركب من داره الف غلام مملوك بألف جوشن مذهب على الف فرس عتيق والف تجفاف ... وركب الناس والقواد على طبقاتهم حتى الجيش . » وفي ذلك يقول أبو فراس :

علونا جوشناً بأشد منه وأثبت عنه مشجَّر الرماح

وللمتنبي في هذه الوفادة قصيدتان اشهرهما اللامية التي يشير في مطلعها الى كتاب ملك الروم في طلب الهدنة ، والى ان ذلك محاولة منه لتأخير الغزوة ريثما يتأهب للقتال ، فيقول :

دروع لملك الروم هذي الرسائل يرد بها عن نفسه ويشاغل

وفي تاريخ كمال الدين (زبدة الحلب) ان ملك الروم ارسل وفداً الى سيف الدولة ، وكان في آمد ، سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) وكان في رجال سيف الدولة

مروان العقيلي القرمطي . ولأمرٍ ما قتل مروان رجلاً من اصحاب موفد الروم . « فتلافى سيف الدولة ذلك وسيَّر الى ملك الروم هدية سنية ، وافرة دية المقتول ، واعتذر ان مروان فعل ذلك عن سكر . »

وكان بين الدولتين ، على رغم المعارك المتتابعـــة ، مجاملات ، ومعاملات انسانية راقية ، نعجب بها حتى في عصرنا ، اذا ما شهدنا العلاقات الدولية في اثناء الحرب . من ذلك انه لما توفي قسطنطين ابن الدمستق فردس ، في أسر سيف الدولة ، أعطى الأمير جثته نصارى حلب فدفنوها في احدى كنائسهم باحتفال لائق . وكتب الى ابيه كتاب تعزية .

ومنها ان الامبراطور البيزنطي أمر ان يُفرد في السجن المعروف بالبريتون (Prœtorion) في بيزنطية ، محل خاص حوّل مسجداً ليتمكن أسرى المسلمين من اداء الصلاة . ويذكر ابو الفداء مسجداً آخر في بيزنطية رممه الامبراطور قسطنطين مونوماك .

نذكر ذلك فيزيد إعجابنا ان تلك الحروب كانت دينية خالصة . ويتضاعف احترامنا لهذا التساهل الذي لمحنا أثره في المعاهدة الاخيرة التي حسمت الحروب المستطيلة بين بيزنطية ودولة الحمدانيين ، معاهدة فرضها الغالب البيزنطي سنة ٩٦٩ فكانت أشبه بصك الانتداب . ومع ذلك فقد نصت في احدى موادها بما يلي حرفياً : « وأي مسلم دخل في دين النصرانية فلا سبيل للمسلمين عليه . ومن دخل من النصارى في ملة الاسلام فلا سبيل للروم عليه . »

ومن هذه المجاملات ان الامبراطور كان كثيراً ما يدعو كبار الأسرى من امراء الحمدانيين الى الحفلات العامة ، فيحادثهم ، ويناقشهم احياناً تلك المناقشات الدينية التي عرف بها البيزنطيون . فيتخذ التفاعل شكلاً ثقافياً . ولا يخفى ان العرب كانوا قد أخذوا يعرفون ، في هذا العصر ، بالعلم ، والتبحر ، والتصرف في مختلف انواع الكتابة ، كما عرفوا بضعف السلطة المركزية ، وانحطاط قوة الخلافة . فكان البيزنطيون ينسبونهم بالاكثر الى الكتابة . متظاهرين باهمال خطرهم الحربي ، بينما كانوا يدلون بأنهم ، أي البيزنطيين ، لا يزالون محتفظين بالسلطتين : الثقافية والحربية . وفي ديوان ابي فراس اصداء لهذه المناقشات .

يدلنا بعضها على رغبة الدمستق ـ وهو بالأرجح نقفور المعروف بتقواه وحسن عبادته ـ في المناظرات اللاهوتية . وقد حضر الشاعر الحمداني واحدة منها، فأحفظه ان يخوض الدمستق في شؤون الحلال والحرام ، متباحثاً مع بطارقته الكثاف اللحى ، الضخام العثانين ، فيشير بما يخالف معتقد الشاعر الأسير ، فيقول هذا :

ألا من أعجب الاشياء علج يعرفني الحلال من الحرام !
وتكنفه بطارقة تيوس تباري بالعثانين الضخام

وفي مناظرة اخرى ـ ولا ندري موضوعها لسوء الحظ ـ ولا مصدر لنا في هذا سوى ديوان ابي فراس ، يظهر ان الشاعر تجاوز الحد ، في وهيج الجدال، فأحفظ الدمستق فقال هذا : « انما انتم كتاب ، ولا تعرفون الحرب» فقال ابو فراس: « نحن نطأ ارضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام » ؟

ثم دون ذلك في شعره ، شأنه في ما كان يعرض له في بيزنطية حتى صح ان الروميات خير مذكرات أسره . فقال :

أتزعم يا ضخم اللغاديد ، اننا ونحن اسود الحرب ، لا نعرف الحربا

ومنها :

بأقلامنا أجريت أم بسيوفنا ؟ وأسد الشرى قدنا اليك أم الكتبا ؟ .

ولنتنبه لدقة الوصف في نعته الدمستق بضخامة اللغاديد ، وهي جمع اللغديد واللغدود أي اللحمات بين الحنك وصفحة العنق ، وهو وصف يوافق ما يذكره مؤرخو الروم عن نقفور .

وهذا مما يزيد في قيمة شعر ابي فراس خاصة ، والشعر الحمداني عامة ، فيدفعنا الى التدقيق في تفهم هذه النصوص ، وبالتالي الى تخطي ذكر الاحداث الحربية ، وما تجره من تخريب ونهب وإحراق ، الى استجلاء مظاهر التفاعل السياسي والثقافي بين الحمدانيين والبيزنطيين .

الفهرس

صفحة		
أ	توطئة	
١	صفحة من تاريخ حلب الادبي	الاستاذ سامي الكيالي
١٩	الحركات الادبية التي عاصرتها	« خليل الهنداوي
٣٨	نحن في المعترك	« غسان التوبني
٥٥	العلم يسير بخطوات المارد	« وجيه السمان
٧٧	نمو الاقتصاد العربي وتوجيهه للصمود في وجه اسرائيل	« محمد سعيد الزعيم
١١٩	التطور الاجتماعي في سوريا	الدكتور عبدالرحمن الكيالي
١٤٩	نظرتنا الى أدبنا	الاستاذ عمر بحبي
١٧١	الادب العربي بين الادب القومي والادب الانساني	الدكتور امجد الطرابلسي
١٩٧	اهداف الشباب ومثلهم العليا	الدكتور اديب نصور
٢١٥	التفاعل السياسي والثقافي بين البيزنطيين والحمدانيين	الاستاذ فؤاد افرام البستاني

تصويبات

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
ب	١١	التمثيل	والتمثيل
٩	١٤	القائل	والقائل
١٤	١٨	ولأن	ولئن
٣٣	١٠	القصيرة	والقصيرة
٤١	٦	وبوشائح	وبوشائج
١٠٣	٢٠	نحواً	نحو
١٠٥	٥	الاعمار	الاعمال
١٢٩	٣	للمظاهر	المظاهر
١٤٢	١٤	لا ينفض	لا ينقض
١٤٤	٢٠	تنازعوا	نازعوا
١٥٥	١	الحمرا	الحمرآء
١٥٦	١	ولذئب	والذئب
١٥٨	١٨	قضت	فضّت
١٥٩	٥	يذكراك	لذكراك
١٦٢	٨	وبهرتنا	بهرتنا
١٦٤	١٣	المبتسم	المتبسم
١٦٧	٥	وشدّ	وشدّوا
١٦٧	٥	وشدة	شدة
١٨٦	١٠	واجيائها	واحيائها
١٨٨	٢٢	ابهذا	ايهذا
١٨٩	١	حثوتين	جثوتين
١٩٠	١٥	تنديد	قنديد
١٩٠	١٧	المليء	المليئة
٢٠٥	٧	قيئة	قينة
٢٣٨	١٨	مشجّر	مشتجر

DATE DUE

892.74
حلب. دار الكتب الوطنية
المحاضرات العامة لعام ١٩٥٢-١٩٥٧
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01039026

089.927
D213mA
1952
c.1